

القسم الثانى

جند الله . . أخلاقاً

المقدمة : فى الأخلاق الأساسية

(١)

من أهم ما ينبغى أن يعرفه المسلم : الأخلاق الإسلامية الجامعة التى لا يُستكمل بناءه الأخلاقى إذا فقد واحداً منها، ولعل من أهم ما وقع التفريط فيه من قبل المسلمين هو هذا، فقد ضخم بعضهم خُلُقاً من أخلاق الإسلام، وصغروا خُلُقاً آخر، مع أنهما قد يكونان فى ميزان الإسلام سواء، مما أدى إلى ضياع كثير من أمهات الأخلاق الإسلامية، ونسيان المسلمين لها، ونتج عن ذلك أن فقدت الشخصية الإسلامية جمالها وكمالها وتناسق سلوكها وتكامله .

فمثلاً : من السور التى يحفظها كل مسلم قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣] .

فأنت ترى أن هذه السورة قد جمعت أربعة أخلاق لو نقص خلق منها لوقع الإنسان فى الخسران، بينما نجد عملياً أن الخُلُقَيْنِ الأولين قد سُلِّطت عليهما أضواء التطبيق، بينما أهمل الخُلُقَانِ الآخِرَانِ إلا فى النادر .

وزاد الطين بلة، أن كثيراً من الأخلاق التى سُلِّطت عليها الأضواء أكثر من غيرها، لم تُفهم الفهم الصحيح المستوعب لكل جوانبها، وأبرز مثال على ذلك، وعلى ما قبله، موقف كثير من المسلمين من أمثال هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥] .

فهنا عُلِّقَ الفلاح على أخلاق ثلاثة : التقوى، وابتغاء الوسيلة، والجهاد .

والملاحظ أنَّ الجهاد لم يأخذ من عناية المسلمين ما أخذته التقوى، ولكن التقوى نفسها لم تُفهم فهماً شاملاً صحيحاً كما وضَّحها القرآن، وقُلْ مثل هذا كثير فى كثير من الأخلاق الإسلامية الأساسية .

(٢)

وهذا مكمّن الفرق بين شخصية المسلم الأول فى القرون الأولى، وبين شخصية المسلم فى العصور التى تلت : المسلم الأول لا تشاء أن ترى خُلُقاً من أخلاق الإسلام إلا وجدته فيه، أما المسلم الآخر فصرت ترى جوانب من الإسلام متضخمة عنده، وأخرى قد فُرِطَ فيها .

المسلم الأول كان عالماً، وزاهداً، وعابداً، ومقاتلاً، وداعياً، وجريئاً، وصريحاً، وحكيماً، ولسناً، وسياسياً، وإدارياً، وكيّساً، وفطناً . . . والمسلم الآخر لم يعد كذلك، صرت تجد عالماً لا يعرف القتال، ومقاتلاً لا يعرف الله، وسياسياً ليس عليمًا ولا حكيماً، وهكذا ضاعت الشخصية الإسلامية النموذجية التى يُفترض أن يكون عليها كل مسلم فلم نرها إلا بأفراد .

(٣)

لذلك وجدنا أنه لا بد من أن تُعاد إلى الأذهان الصورة الصحيحة للأخلاق الأساسية فى الإسلام، التى إذا فقد المسلم خُلُقاً منها كان على شفة هلكة، وأردنا كذلك أن نعطى لك خُلُقاً من هذه الأخلاق مدلوله الصحيح ومضمونه الواسع المستمد من الكتاب والسنة، وحاولنا ألا ننسى تبيان الطريق الذى يتحقق به المسلم بهذه الأخلاق، والأمل بفضل الله كبير، أن تعود الأخلاق الإسلامية إلى الظهور مرة ثانية ليحيا بها الإسلام من جديد، ولتحيا بعد ذلك الأرض بالإسلام من جديد وتطهر .

(٤)

ولا شك أنَّ الأخلاق الأساسية فى الإسلام كثيرة، ولكن عند التتبع يجد

الإنسان أنَّ كثيراً من الأخلاق التي ذُكرت في الكتاب والسنة تتفرع عن أصل جامع، ولما كانت غايتنا هي الوصول إلى هذه الأصول الجامعة التي تتفرع عنها كل الأخلاق الأخرى . ولا يصح التفريط في واحد منها، اتجه البحث عن هذه الأخلاق، وبعد التتبع وُجد أنَّ أمهات الأخلاق التي تتفرع عنها كل الأخلاق الإسلامية هي التي وصف الله عزَّ وجلَّ بها حزبه في القرآن، وإذا وجدنا أنه ما من خُلُق في الإسلام إلا ويرجع إلى صفة من هذه الصفات .

ولكى نرى المسألة بوضوح نعيد بعض ما ذكرناه في المقدمة .

إنَّ كلمة حزب الله ذُكرت مرتين في القرآن : مرة في سورة المائدة، ومرة في سورة المجادلة .

أما في سورة المائدة فقد ذُكرت بعد هذه الآيات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].

والملاحظ أنَّ هذه الآيات كلها تصف حزب الله، بدليل ذكر الغلبة في الأخير، والردة في الأول . والقوم الذين يقفون في وجه الردة في الوسط . فلا بد أنَّ الذين يستحقون الغلبة هم هؤلاء القوم الذين يجابهون المرتدين، وبالتالي فهم حزب الله .

وأما في سورة المجادلة فقد ذُكرت كلمة « حزب الله » بعد ما يلي :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾.

وبعد التحقيق نجد أن ما من صفة ولا خُلُق ذُكِرَ في القرآن إلا ويمكن إرجاعه إلى واحد من الأخلاق المذكورة في هذين النصين . فمثلاً التقوى مرجعها إلى الصفة الأولى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] لأن الله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] ، والصلاة مرجعها إلى التقوى لأن الله يقول : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢-٣] ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرجعه إلى : ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ... وعلى هذا قس .

(٥)

ولا بد هنا من الإشارة إلى شيء هو : أن إحياء هذه الأخلاق مجتمعة هو الطريق الوحيد للقضاء على الردة أو شبه الردة الحالية المنتشرة في العالم الإسلامي . لأن آيات المائدة تذكر أن الردة - حال وقوعها - لا يقف لها ولا يصمد لها ولا يقضى عليها إلا قوم اصطفاهم الله بذلك ، وهم المتصفون بالصفات التي أشارت إليها الآيات ، فلا يمكن إذن أن يكون غيرهم ممن فقد صفة من هذه الصفات مرشحاً للقيام بمثل هذا العبء الجليل الخطير .

وعلى هذا فدراستنا لهذه الأخلاق ينبغي أن تكون عملية ، القصد منها التطبيق والتحقق قبل أى شيء آخر .

مثل هذه الدراسة تختمها مسئوليتنا أمام الله ، وقد وجدنا في مثل هذا

العصر :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] .

(٦)

وقد ذكرت الآيات التي ذكرناها خمسة أخلاق هي :

- ١ - ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ..
- ٢ - ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ..
- ٣ - ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ..
- ٤ - ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ..
- ٥ - ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] ..

والملاحظ أن آيات المجادلة أشارت إلى الصفة الخامسة فقط على اعتبار أنها ذروة صفات حزب الله، ولا يكون الإنسان مستجمعاً صفات حزب الله، حتى يجمع الصفات الخمس كلها، فمن لم يكن ذليلاً على المؤمنين فليس من أهل هذا المقام، ومن لم يجاهد فليس من أهل هذا المقام، ومن لم يحب الله ويحبه الله، فليس من أهل هذا المقام، ومن والى غير المؤمنين فليس من أهل هذا المقام، ومن والى غير الله والرسول ﷺ فليس من أهل هذا المقام .

(٧)

وعلى هذا فسنكتب خمس فقرات عن هذه الخمس صفات، نرى فيها ما تغذيه كل صفة، وما يدخل فيها من أخلاق، ونرى فيها أن كل الأخلاق الإسلامية ترجع إلى هذه الصفات الخمس، والفقرات الخمس هي :

- الفقرة الأولى : الولاء .
- الفقرة الثانية : المحبة .
- الفقرة الثالثة : الذلة على المؤمنين .
- الفقرة الرابعة : العزة على الكافرين .

الفقرة الخامسة : الجهاد .

فتتضح معنا صفات حزب الله، وصفات الجماعة التي تستأهل نصر الله، وصفات الإنسان المرشح لحمل رسالة الله، ونعرف بداية الطريق لإنهاء هذه الردة الحاضرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].

فإلى الفقرة الأولى . . .

* * *

الفقرة الأولى - فى الصّفة الأولى تحرير الولاء : لله والرسول والمؤمنين

(١)

ليس هناك شىء يُعيّن كون الإنسان من حزب الله، أو حزب الشيطان كالولاء، فلا الصلاة، ولا الزكاة، ولا الحج، ولا الصوم، ولا غير ذلك من أعمال الإسلام يجعله من حزب الله إذا خُدش ولاؤه، وإذا صحّ ولاؤه فإنه يكون من حزب الله على تقصير فى العمل، وفى الحديث : « مَنْ فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » . ويؤكد هذا المعنى الذى ذكرناه كثير من آيات القرآن . فقد قال الله عزّ وجلّ فى وصف المنافقين : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٣٨-١٣٩] .

(٢)

لذلك فإننا نلاحظ كل مرة ذُكرت فيها كلمة « حزب الله » فى القرآن إنما ذُكرت بجانب الولاء مقيدة فيه، مما يدل على أن الولاء هو الميزان الذى يوزن إيمان الإنسان به . . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

[المائدة : ٥٦]

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ

الإِيمَانُ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهاتان الآيتان بينتا أنه لا يكون الإنسان من حزب الله إلا إذا حرر ولاءه ومودته، فلم يعطهما لعدو لله مهما كان نوعه، بل يعطيها لله ورسوله والمؤمنين، وهذه هي الصفة الأولى للمؤمنين : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١].

(٣)

فلا ولاء في الإسلام إلا على أساسه النظرى والعملى، وكل آصرة أخرى يعطى الناس ولاءهم على أساسها آصرة باطلة، والولاء على أساسها باطل، ولا يكون الإنسان معها من المؤمنين .

فآصرة العمل الذى يتلاحم عليها الشيوعيون ويتآخون غير معتبرة شرعاً وباطلة . وآصرة القومية التى يتآخى عليها القوميون غير معتبرة شرعاً وباطلة . وآصرة الوطن التى يلتقى عليها الوطنيون غير معتبرة وباطلة . وآصرة الإنسانية التى يلتقى عليها الماسون غير معتبرة شرعاً وباطلة .

فالمسلم الذى يعطى ولاءه للشيوعيين بجامع العقيدة الشيوعية والعمل المشترك لم يعد مسلماً .

والمسلم الذى يعطى ولاءه للقوميين على كفرهم بجامع مصلحة القوم المتوهمه لم يعد مسلماً .

والمسلم الذى يعطى ولاءه للوطنيين مع عدم اعتصامهم بحبل الإسلام بجامع مصلحة الوطن المتوهمه لم يعد مسلماً .

والمسلم الذى يعطى ولاءه لكل ماسون العالم من كفرة وملحدين ومرتدين
بجامع الإنسانية لم يعد مسلماً .

إِنَّ اللَّهَ يُبْئِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْطَى وَلاَءَنَا إِلَّا بِجَامِعِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وما ذكرناه من الأواصر إنما هو تمثيل لا إحاطة . وإلا فكل أنواع الموالاتة على
أى آصرة من الأواصر غير آصرة الإسلام باطلة ومخرجة لصاحبها عن الإسلام .
كآصرة دين غير دين الإسلام، أو آصرة الأخوة، أو البنوة، أو الزوجية، أو العشيرة،
أو القبيلة، أو المهنة، أو البلد، أو اللون، أو القارة، أو النادى .

إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْطَى وَلاَهُ عَلَى أَىْ أُسَاسٍ غَيْرِ أُسَاسِ الْعَقِيدَةِ
السَّالِمَةِ الصَّحِيحَةِ، وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ نصوص لا يدع مجالاً للشك فى هذا الأمر .
وَالنصوص فى هذا كثيرة، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا
عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٢] .
أى إن هذا غير ممكن لأن عباد الله لا يوالون أحداً من دون الله فكيف يوالون
أعداء الله . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦٠] .

والوليعة فى اللغة : البطانة، والخاصة . . . والله أعلم .

(٤)

وإذا أردنا أن نصوغ المسألة بشكل آخر نقول :

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْطَى وَلاَهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى اخْتِلَافِ
أنواعهم، كما حَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْطَى وَلاَهُ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ . ومتى

أعطى المؤمن ولاءه للكافرين فقد صار منهم، ومتى أعطى ولاءه للمنافقين صار منهم، وإذا أعطى ولاءه للمؤمنين صار منهم إذا أدى حق الإيمان، وهذه نصوص قطعية فى الموضوع لا تحتمل جدلاً :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧].
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[المائدة: ٥١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ *
وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
[المائدة: ٥٧-٥٨]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].
﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾
[آل عمران: ٢٨]

ومعنى ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: أى إلا أن أن تخافوا من جهتهم ما يجب
اتقاؤه، فالله عز وجل منع من موالاتهم ظاهراً وباطناً إلا وقت المخافة، أما فى حالة
الاختيار فلا يجوز بشكل من الأشكال .

وإذا وضح أنه لا يجوز موالاة الكافر أو المنافق فهل يجوز موالاة المؤمن
الفاسق ؟ لقد حدّد الله صفات من يجوز لنا موالاته بقوله :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

فقد استعمل أداة الحصر « إِنَّمَا » التي تحصر الحكم فيما بعدها مما يفيد أن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات هم وحدهم الذين تجوز موالاتهم، أما إنسان يدعى الإيمان ولا يُصلّى ولا يُزكّى فلا يعطى الولاء، وكذلك إذا كان فاسقاً بالمفسقات الأخرى، وكلامنا هذا كله فى حالة الاختيار أما فى حالة الإكراه فالأمر له أحكامه الخاصة .

(٥)

وإذا كان الولاء لا يُعطى لكافر أو منافق فلا بد من معرفة الكافرين والمنافقين، ونخص هذا المقطع بالكافرين .

لقد مر معنا فى مبحث الشهادتين فى كتابنا عن الإسلام كثير من النواقض لهما، التى يكون بها الإنسان كافراً . وفى هذا المقطع نشير إشارة إلى بعض مظاهر الكفر .

كل من لم يدخل فى الإسلام فهو كافر سواء أكان نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً أو مجوسياً أو هندوسياً أو وثنياً أو لا دينياً ملحدًا، سواء أكان شيعياً أو وجودياً أو غير ذلك، والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦] ^(١) ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

(١) والبرية: الخلائق أو البشر.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿

[النساء: ١٥٠-١٥١]

وَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَمِلَ عَمَلًا أَوْ اعْتَقَدَ اعْتِقَادًا يَنْقُضُ الشَّهَادَتَيْنِ فَقَدْ كَفَرَ وَارْتَدَ وَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ، وَلَكِنْ لَا نَقْتُلُهُ بِرَدَّتِهِ نَدْبًا إِلَّا بَعْدَ الْبَيَانِ لَهُ وَإِصْرَارِهِ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ مَا يَنْقُضُ الشَّهَادَتَيْنِ كَمَا مَرَّ: أَنْ يَسْجُدَ لَصَنْمٍ، أَوْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ يَسْتَهْزِئَ بِشَيْءٍ مِنْ نصوص الكتاب والسُّنَّةِ، أَوْ يُكَذِّبَ بِهِ، أَوْ يَسْتَهْزِئَ بِشَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، أَوْ يَحِلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ يَحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، أَوْ يَنْكُرُ شَيْئًا مَعْلُومًا مِنَ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ، كَكُونِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أُمَّةً وَاحِدَةً، أَوْ يَنْفِي وَجُودَ هِدَايَةِ اللَّهِ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ كَالْحَيَاةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، أَوْ يَعْتَمِدَ عَلَى الْأَسْبَابِ نَاسِيًا السَّبَبَ، أَوْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَفْضَلًا إِيَّاهُ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يَرُدَّ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللَّهِ، أَوْ أَلَّا يُكْفِّرَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ بِكُفْرِهِ، وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِمَّا مَرَّ مَعْنَا وَيَمُرُّ، وَيَجِدُ تَفْصِيلَاتَهَا الْإِنْسَانُ فِي كُتُبِ الْفَقْهِ . . كل ذلك يجعل الإنسان كافرًا تجب محاربته وتحرم مولاته .

(٦)

وَأَمَّا النِّفَاقُ فَإِنَّهُ شَرٌّ مِنَ الْكُفْرِ لَضَرَرِ أَصْحَابِهِ بِالْمُسْلِمِينَ لِعَدَمِ وَضُوحِهِمْ وَلِخِدَاعِهِمْ . قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠] .

وَلَمَّا كَانَ الْمُنَافِقُونَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَإِنَّهُمْ خَطَرُونَ، لِذَلِكَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُمْ مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَصِّلَهُ الْمُسْلِمُ حَتَّى لَا يَعْطِيَهُمْ وِلَاءً، فَيُضِلُّوهُ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَيَفْصِلُوهُ عَنْ جِسْمِ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ حَدَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ طَرِيقَةَ مَعْرِفَةِ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ

لَأَرِنَا كَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿ [محمد: ٣٠].

علّق معرفتهم بسيماهم على مشيئته وأكد معرفتهم بواسطة لحن القول .

فأقوالهم وأفعالهم هى التى تحدّد لنا هويّتهم، وقد أكثر الله عزّ وجلّ من وصف أقوالهم وأفعالهم كثرة تدعو إلى التأمل الكبير، وبنفس الوقت تدلنا عليهم دلالة لا يبقى معها شك، ومن رحمة الله بنا أنّ هؤلاء المنافقين لا يتركهم الله عزّ وجلّ دون فضح أمرهم . قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

بعد هذه المقدمة عن المنافقين نبدأ باستعراض الآيات والآثار التى دلّتنا على

صفاتهم :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْزِلْهُنَا مِنَ السَّمَاءِ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣].

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٦].

قَصَّ الله علينا فى هذه الآيات نمطاً من أقوالهم وسلوكهم وأخلاقهم، فهم لا يمسكون بكتاب الله حتى يكونوا مصلحين، بل يفسدون فى الأرض بتهديم شريعة الله ويظنون أنفسهم أنهم مصلحون، كواقع الملايين من الناس الآن، الذين يطلقون على أنفسهم اسم التقدميين والأحرار المصلحين والمتنورين، وهم إنما يدعون للفساد فى الأرض .

ثم هم رأيهم فى المؤمنين سىء، يتهمونهم ويسفّهون آراءهم ويرفضون

اتباعهم والسير معهم كواقع الملايين من أبناء المسلمين اليوم، إذ يحتقرون أهل الإيمان ويتهمونهم بأبشع التهم : كالرجعية، والجمود، وعدم العقل والفهم . .

ثم هم مع أهل الإيمان يظهرون الإيمان، بل يحلفون أنهم مؤمنون بالله والإسلام، ولكنهم عندما يجتمعون مع رؤساء الضلالة والكافرين يقولون لهم : إننا نضحك على أولئك بكلامنا ذاك لهم، كواقع كثير من أبناء المسلمين، تراه مع أهل الدين على نوع من الأدب، فإذا اجتمع إلى سادته فى الحزب أو فى المحفل ممن كفر بالله كالشيوعيين وأمثالهم يقول : إنما نفعل هذا سياسة لخداعهم .

وقد تجدد هذه المعانى فى الزعماء الذين يتظاهرون بالإسلام، كما نجد فى الأتباع، ولكن فى الغالب تجدد الزعماء يجهرون بشيء من الكفر الذى ينقض دعوى الشهادتين عندهم .

(ب) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿ [النساء: ٦٠-٦١].

هذه الآيات أبرزت سمة جديدة من سمات المنافقين : فالطاغوت كل متعد، وكل رأس ضلال، وكل معبود من دون الله، وكل صارف عن طريق الخير. فهؤلاء المنافقون يأبون أن يُحَكِّمُوا الله ورسوله ويصدون عن ذلك، ويعرضون إذا دُعوا إليه مع رضاهم بتحكيم الطاغوت .

وهذا مظهره فى الأفراد العاديين واضح، كأن يرفضوا القضاء الإسلامى، أو الحكم الشرعى رغبة عنه إلى قانون جائر غير إسلامى .

وأما مظهره فى الزعماء فكان يدعو إلى غير الكتاب والسنة، أى إلى غير الإسلام، ويريدون أن يستبدلوا بالإسلام شيئاً آخر، وإذا ذُكِّروا بالله وشريعته غضبوا وانتقموا وأعرضوا، فهؤلاء أفضع من أن يكونوا منافقين بل هم طواغيت بلا تردد .

وشبيه بهذه الآيات آيات سورة النور :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

(ج) ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

فمن صفات المنافق أنه يأمر بالمنكر : كعقوق الوالدين والزنا والخمر والتبرج وترك دين الله وشريعته .

وينهى عن المعروف : فإذا رأى إنساناً ذاكراً لله عنفه، وإذا رأى إنساناً صائماً سفهه، وإذا رأى إنساناً ماشياً فى طريق الخير دعاه إلى تركه، وإذا رأى إنساناً أعفى لحيته سخر منه ونهاه عن ذلك . . .

ويقبض يده : فلا يطعم مسكيناً ولا يعطف على يتيم ولا يخرج صدقة لله .

وينسى الله : فلا يذكره ولا يعبد، وإذا ذكره أو عبده فرياءً وسمعة وبثقل .

وشبيه ببعض ما فى هذا النص قوله تعالى - على رأى من فسر السورة كلها بأنها فى المنافقين : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِّينِ ^(١) ﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ

(١) يُكَذِّبُ بالدين : يجحد الجزاء لإنكاره يوم البعث، والماعون : إما الزكاة، وإما ما يُستعار فى العادة فيتعاور .

الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧-١﴾ [الماعون: ١-٧].

(د) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]

فهذه صفة أولى فى هذه الآيات : أنهم يوالون الكافرين ابتغاء العزة عندهم .

﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وهذه صفة ثانية : أن المنافقين يبقون جالسين مع الكافرين ولو كانوا يكفرون بآيات الله أو يستهزئون بها .

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وهذه صفة ثالثة : أن المنافقين يقفون على الحياد ظاهرياً فى الصراع ما بين المؤمنين والكافرين ، فإن انتصر المؤمنون ادَّعوا أنهم كانوا معهم ، وإن انتصر الكافرون ادَّعوا أنهم كانوا معهم بدليل أنهم لم يقاتلوا مع المؤمنين ، فكأن عدم قتالهم مع المؤمنين منع للمشركين من المسلمين واستيلاء عليهم ، والاستحواذ هو الاستيلاء . وشبيه بهذه الآية :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠-١١﴾
[العنكبوت: ١٠-١١]

فالمؤمن يتحمل لظى المعركة مع إخوانه المؤمنين مهما كانت ألوانها، أما الحيات
خوف الأذى فتلك طبيعة المنافقين .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ * مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى
هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٢﴾

[النساء: ١٤٢-١٤٣]

أكدت هذه الآيات صفة الحيات الظاهري للمنافقين في المعركة الدائرة
الدائمة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأكدت مراعاة المنافقين في صلاتهم، وقلة
ذكرهم لله، وكسلهم في عبادة الله، ولعل ما يوضح هذا الجانب ما ورد في
الحديث : « تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني
الشیطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (١) .

(هـ) وقال عليه السلام : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن
كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خُصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أوتمن خان،
وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » (٢) .

والآيات التي وصفت المنافقين في القرآن كثيرة، بحيث دلت المسلم
على كل صغيرة وكبيرة من أمرهم، ولعل في سورة « براءة » وسورة « المنافقون »
بياناً كافياً لما قلناه، أما في هذا البحث فنجتزئ بما قدمناه من صفاتهم
الأساسية لكفائيتها في الإشارة عليهم . وإنما سقنا هذا الكلام كله ليعرف المسلم

(١) رواه الترمذی عن العلاء بن عبد الرحمن وقال : حسن صحيح :، وهو عند مسلم
والنسائي ومالك وأبو داود .

(٢) رواه البخاری ومسلم والترمذی والنسائي كلهم في كتاب « الإيمان » عن عبد الله
ابن عمرو .

المنافقين فيمنعهم ولاءه، وكيف يعطى المسلم ولاءه لهم والله يصفهم بقوله : ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

ونحننا عن مجرد الركون إلى الظالمين فقال : ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

(٧)

الآن وقد علمنا أن المسلم لا يكون مسلماً ما لم يحرر ولاءه لله والرسول والمؤمنين، وأنه لا يجوز للمسلم أن يعطى ولاءه لأى آصرة مهما كان نوعها إلا آصرة الإسلام، وأنه لا يجوز أن يعطى ولاءه للكافرين والمنافقين .

بقى أن نعرف : ما هو هذا الولاء ؟ وما مظاهره النظرية والعملية ؟

أما الولى فى اللغة فيطلق على المحب والصديق والنصير والحليف والتابع وأشياء أخرى على حسب الاستعمال، ولا يبعد الولاء بالاصطلاح القرآنى عن هذه المعانى، غير أننا نؤثر استخراج مظاهر الولاء ومعانيه من خلال النصوص القرآنية والحديثية فهى أعمق فى الدلالة على ذوات الأشياء ومواصفاتها، وهذه بعض نصوص الكتاب والسنة التى تحدد مظاهر هذا الولاء المحرم الذى يصير به المؤمنون منافقين والذى يخرج به المسلم عن صفة الإسلام .

(أ) من أول مظاهر الولاء :

١- النصرة .

٢- عدم طاعة الله فى الكافرين .

٣- ربط المصير بالمصير .

نأخذ هذا من قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

ويدخل فى هذا النوع من الولاء أعمال كثير من السياسيين الذين يدافعون عن الكافرين والملحدين، سواء أكانوا أفراداً أو جماعات أو أحزاباً . ويدخل فى ذلك أعمال كمل من انتسب لحزب ضال يقوم على غير آصرة الإسلام .

(ب) ومن مظاهر الولاء إعطاء الكافرين أسرار المؤمنين، نأخذ هذا من سبب نزول الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [المتحنة: ١] . قال ابن كثير : كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة - أى سورة المنافقين التى صدرها هذه الآية - قصة حاطب ابن أبى بلتعة ^(١) ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر النبى ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال : « اللهم عمّ عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه، فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها .

فإخبار الكافرين بأسرار المؤمنين لدفع خطط المؤمنين، أو لتوقى الكافرين من المؤمنين ولاء يخرج من الإيمان : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٦] .

(جـ) ومن مظاهر الولاء « المحبة والمودة » :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، « المرء مع من أحب » ^(٢) .

(١) حاطب رجل صالح زلت به القدم، وتاب توبة نصوحاً، وكان ممن شهد بدرًا فغفا عنه رسول الله ﷺ .

(٢) متفق عليه من حديث شعبة عن قتادة عن أنس، قال العسقلاني : الحديث مشهور أو متواتر لكثرة طرقه، وقال بعض العلماء : هذا الحديث مشروط بشرط أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم .

وقال ابن مسعود : « لو صَلَّى عبد الله بين الحجر والمقام سبعين عاماً لم يحشره الله إلا مع مَنْ أَحَب » ، فكونك تجدد إنساناً عواطفه مع الكافرين والمنافقين يميل إليهم ويحبهم، ويتمنى انتصارهم، فذلك ولاء من أعظم الولاء، فَمَنْ مال بقلبه إلى قوم يعملون المعاصي ورضى أعمالهم كان منهم وعليه مثل وزرهم وإن كان بعيداً عنهم، وفي الحديث : « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها - وقال مرة : « أنكرها » - كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » (١) .

(د) ومن مظاهر الولاء المجالسة للكافرين والمنافقين اختياراً، وسماع كلامهم القبيح مع الاستمرار في الجلسة دون الرد أو الغضب أو الخروج قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠] .

هكذا : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ ، والأحاديث عن الرسول ﷺ تفيد أن مجرد تكثير السواد كائناً ما كان يجعل الإنسان مع القوم، فَمَنْ كَثُرَ سواد الكافرين فهو منهم، وَمَنْ كَثُرَ سواد المنافقين فهو منهم، وفي الحديث : « مَنْ كَثُرَ سواد قوم فهو منهم » (٢) .

ويدخل في ذلك مظاهر كثيرة منها : أن ينتسب الإنسان إلى ناد للكافرين، أو الملحدين، أو الإباحيين، أو الشهوانيين، أو يشارك الإنسان في مظاهرة لأمثال هؤلاء، أو يحضر ناديم أو منتداهم، أو مراكز دعوتهم، أو يحضر احتفالاتهم، أو يسمع لخطبهم إلا إذا كان مكلفاً .

(١) رواه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « في الأمر والنهي » تحت رقم (٤٣٤٥) عن محمد بن العلاء بسنده إلى العرس بن عميرة الكندي، والعرس بن عميرة الكندي - بضم أوله وسكون الراء بعدها مهملة - قال في التقريب : « قيل صحابي »، ورمز السيوطي لصحته .

(٢) رواه أبو يعلى وعلي بن معبد عن عبد الله بن مسعود في كتاب « الطاعة » وله تنمة، وكذا الديلمي وابن المبارك عن أبي ذر موقوفاً .

ويدخل فى ذلك : الانتساب إلى حزب ضال كافر، وتأييد مرشحيه وانتخابهم، فذلك أعظم أنواع الولاء فى عصرنا، ولا شك ولا ريب أن من يفعل ذلك قد خرج من دائرة الإيمان إلى دائرة النفاق، ومن الجماعة إلى الفرقة، وقد قال عليه السلام : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

(هـ) ومن مظاهر الولاء : الطاعة، فمن أطعته فقد توليته، ومن كلام إبراهيم لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥] .

وولاية الشيطان طاعته والاستجابة له : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

وقد حرم الله عز وجل علينا طاعة أصناف الكافرين والمنافقين حتى لا نكون منهم، وجعل طاعتهم ردة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦] .

وقد فصل القرآن من أصناف من لا تجوز لنا طاعته تفصيلاً كثيراً حتى لا نهلك :

﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

[الأنعام: ١١٦]

﴿ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٨] .

﴿ فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تَطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ ^(١) مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ ^(٢) * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عَتُلٌ ^(٣) بَعْدَ

(١) همَّاز: عيَّاب، أو مغتاب للناس .

(٢) مشاء بنميم: بالسعاية والإفساد بين الناس .

(٣) عتل: فاحش لئيم، أو غليظ جاف .

ذَلِكَ زَنِيمٌ ^(١) * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ^(٢) الْأَوَّلِينَ ﴿ [القلم: ٨-١٥].

﴿ وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] .. أى وكان أمره تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره .

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢] ، وكل من لم يمسك بكتاب الله فهو مسرف مفسد كما

سنرى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٩-١٥٠]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

(و) ومن مظاهر الولاء : التشبيه، قال عليه السلام : « مَنْ تشبَّهَ بَقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » ^(٣) .

فمن تشبَّه برسول الله ﷺ وصُحبه فقد والاهم وهو منهم، ومن تشبَّه بالكافرين فهو منهم، كأولئك الذين يقلدون شوارب ستالين . أو شوارب الممثلين، أو يقلدون الخنافس . أو يضعون شارة الشيوعيين ، أو صليب النصارى . وكل ما هو خاص بالكافرين وشعار عليهم من عادات وتقاليد إذا تشبَّه به الإنسان كان ذلك نوعاً من الولاء لأهله، وهو بالتالى نفاق . ولا يدخل فى ذلك الأشياء المشتركة

(١) زنيم: دعى مُلصق بقومه .

(٢) أساطير: أباطيل .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والطبرانى فى « الكبير » عن أبى عمر رفعه، قال العراقى : سنده

صحيح .

بين الناس، فكل الناس يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن الكلام على ما هو شعار خاص بالكافرين، إذا تشبَّه بهم الإنسان فهو نفاق وصار به منهم .
وللولاة مظاهر أخرى يجدها الإنسان إذا تتبع آيات الله الواردة في الموضوع واقتصرنا نحن على أمهات مظاهره .

ولعل أعظم مظهر عملي للولاة المحرم الذي يخرج به صاحبه من الإسلام في عصرنا: هو الولاة لحزب غير حزب الله مهما كان نوع الحزب والأسس التي قام عليها، ما دام لا تتمثل فيه صفات حزب الله وأخلاقه وأهدافه . وذلك أنَّ نظام الحزبية الحاضرة يقوم على إعطاء الولاة الكامل في فروعه كلها للحزب ولقياداته، دون تردد مهما كان نوع هذه القيادات وطبيعة أفرادها ومبادئها، وهناك وهم سائد عند طبقات الناس الذين أعطوا ولاءهم لحزب سياسى أو زعيم، هذا الوهم هو أنهم يكتفون أن تكون شعارات هذا الحزب لا تعارض الإسلام، ولو سلّمنا جدلاً بأنَّ هناك حزباً غير إسلامى لا تتعارض شعاراته مع الإسلام - وهذا غير صحيح واقعياً - فهل هذا كاف ؟ إنَّ العمل السياسى الإسلامى الصحيح هو الذى لا يعارض الإسلام وبنفس الوقت يتبنى أهدافه وطريقه، مثل هذا يمكن أن يُعطى الولاة، أما الاكتفاء بالأول فإنه نوع من التضليل الذى يرافقه عادة هدم للإسلام .

(٨)

رأينا فيما مرَّ أنَّ المؤمن لا يجوز أن يعطى ولاءه للكافرين والمنافقين، ورأينا مظاهر من الولاة لا يجوز أن تعطى لهؤلاء وهؤلاء . والسؤال الآن : هل يكفى المسلم ألا يعطى ولاءه لكافر أو منافق ؟ فيكون سلبياً فقط، أو لا بد أن يعطى ولاءه الإيجابى ؟

والجواب : أنَّ الله كما حرَّم علينا أن نعطى ولاءنا للكافرين والمنافقين، قد فرض علينا أن نعطى ولاءنا لله والرسول والمؤمنين : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

فالمؤمنون المسلمون فيما بينهم يشكّلون بشكل عفوى حزب الله الذى يعطى أفرادهم جميعاً ولاءهم لبعضهم بعضاً، وبدون إعطاء هذا الولاء لا يستحقون رحمة الله، قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

هذا الحزب الربانى العظيم، يحل مشاكله وما يعترضه بالشورى بين أفرادهم الذين تحققوا بأخلاقه : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٠]

(٩)

ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة فأدركوا حقيقة ذاتهم، وعرفوا ما هى صفات حزب الله، ثم تعاونوا فيما بينهم على التحقق بها علماً وعملاً وحالاً، ثم والى بعضهم بعضاً على أساسها، وكان من لم يكن كذلك لم يوالوه بل حاربوه وأبعدوه . لو فعل المسلمون ذلك لم يستطع أن يخدعهم أحد، ولغلبوا كل أخصامهم فى بلادهم، ولم تستطع حكومة فاجرة أن تحكمهم، ولا استطاع ظالم أن يتسلط عليهم، وكان أمراؤهم منهم، ولم يحكموا إلا بشرعية ربهم . ولكنهم جهلوا إسلامهم، وجهلوا أخلاقهم وفقدوها فتشتتوا، وسهل بعد ذلك أن يتسلط عليهم عدوهم .

ولا يصلح أمر المسلمين اليوم إلا إذا أعيد تثقيفهم إسلامياً، وربُّوا على

الأخلاق الأساسية للإسلام ووالى بعضهم بعضاً . عندئذ يقوم حزب الله الذى لا يُغلب : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(١٠)

قلنا : إنَّ الله حَرَّمَ على المسلم أن يعطل ولاءه، بل لا بد أن يعطيه لله ورسوله والمؤمنين، والولاء لله الآن مظهره عبادته، والولاء لكتابه والولاء لرسوله ﷺ مظهره الولاء لسُنَّته ودعوته، والولاء للمؤمنين مظهره كل ما مرَّ معنا من مظاهر الولاء . فالشئ الذى لا يجوز أن نعطيه للكافرين والمنافقين يجب أن نعطيه للمؤمنين وخاصة العلماء العاملين، والصالحون من عباد الله، والدعاة إلى الله لأنهم خواص المؤمنين، إنَّ علينا أن :

١- ننصر المؤمنين ولا نخذلهم : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله » (١) .

٢- ونربط مصيرنا بمصيرهم .

٣- ولا نطيع الكافرين فيهم .

٤- ولا نتورع عن إعطاء أسرار الكافرين ومخططاتهم إليهم .

٥- ونحبهم ونودهم ونؤيدهم أينما كانوا أو حيثما كانوا .

٦- ونجالسهم ونجعلهم خاصتنا ونكثر سوادهم إلا لضرورة وحكمة .

٧- ونطيع قياداتهم السياسية والعلمية . وخاصة خليفة المسلمين إن كان، إذ جعل الله عزَّ وجلَّ طاعته بالمعروف فريضة .

٨- ونتشبه بهم، والتشبه بهم يعنى الاقتداء برسول الله ﷺ إذ هو قدوتهم فتشبه بهم بلباسهم وطعامهم وشرابهم وزينهم وهيئتهم . ومن العجيب أن نرى مؤمناً يستحى أن يعفى لحيته هرباً من انتقادات الكافرين والمنافقين، فى الوقت

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن أبى هريرة فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم »، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

الذى يدعى فيه أنه يريد إنقاذ الإسلام والمسلمين، وليس كلامنا فيمن لا يسمح له وضع أو وقت أو مكان بإظهار أمثال هذا فيتركه مضطراً (ونقصد بالاضطرار معناه الشرعى المبيح لترك بعض الواجبات) .

* * *

إنه ما لم نعط المؤمنين ولاءنا نأثم . وإعطائنا الولاء لغيرهم ضلال، وليس عندنا فى الإسلام حياد مقبول عند الله : فمن لم يكن مع المسلمين فليس منهم، ولكن لا يعتبرونه ضدهم حتى يُقاتل أو يظهر العدا، قال تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

ولكن إذا لم نعتبرهم ضدنا فكذلك لا نعتبرهم منا، وليس هذا بنافعهم شيئاً عند الله يوم القيامة ما لم يسلموا فيكونوا منا .

* * *

هذه هى الصفة الأساسية الأولى للمسلم التى بدونها لا يكون مسلماً، بدأنا بها لأنها أساس الأساس، ولنتنقل الآن إلى الصفة الثانية : صفة تحقيق محبة الله والمحبة لله .

* * *

الفقرة الثانية - فى الصفة الثانية

المحبة

إنَّ محبة العبد لله أثر فطرى عن الشعور بنعمة الله على العبد، ولذلك قال عليه السلام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى لحب الله إياى، وأحبوا آل بيتى لحبى » (١) .

ومحبة الله للعبد إنما تكون إذا سار العبد فى الطريق الذى شرعه الله للإنسان، وترك ما سواه .

وعندما ندرس كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، نجد أنَّ الله والرسول ﷺ قد بيَّنَّا مَنْ الذى يحبه الله، وَمَنْ الذى لا يحبه، ولم يصل الإنسان إلى محبة الله له إلا إذا انخلع عن كل صفة تُبَغِّضُه إلى الله، ثم تحقق بالصفات التى تُحَبِّبُه إلى الله، ولذلك فإننا فى هذه الفقرة سنستعرض الآيات والسُّنَن التى وصفت ناساً لا يحبهم الله، ونأمل أن نعطى صورة كاملة بهذا لمن أحب أن يسير فى طريق محبة الله جَلَّ جلاله، وعلى هذا فسنكتب فى هذه الفقرة ثلاثة أبحاث :

١- مَنْ يبغضه الله .

٢- مَنْ يحبه الله .

٣- حب الإنسان لله .

والسبب فى هذا الترتيب أنَّ التخلية عادة مُقدِّمة على التحلية، ألا ترى

(١) رواه الترمذى فى « المناقب »، والحاكم فى « فضائل أهل البيت » عن ابن عباس، ورمز السيوطى لصحته .

أنك لا تستطيع ملء الكأس إلا بعد تفريغها، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قدَّم في آية المائدة محبته لعبيده المذكورين على محبتهم له جلَّ جلاله فقال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، ومن ثَمَّ بدأنا بالصفات التي يبغض الله أهلها لتجنبها، وثنيينا بالصفات التي يحب الله أهلها لتحقيقهم بها، وعندئذ سنجد محبة الله في قلوبنا بشكل عفوى بإذن الله . نقدم نتيجة لذلك الأول على الثانى والثانى على الثالث .

* * *

(أ) مَنْ يَبْغِضُهُمُ اللَّهُ

سنمر على معانى هذه الفقرة مرأً سريعاً على اعتبار أن الفقرة الثانية - وهى الجانب الإيجابى من الموضوع - سنفصلُ فى فقراتها كثيراً، وكل ما سنفعله هنا أننا سنختار النصوص الجامعة التى ذكرت ناساً لا يحبهم الله عزَّ وجلَّ لصفات فيهم، ثم نُعقِبُ بشيء من التعليق البسيط . . والله يتولى أمرنا جميعاً .

١- روى البخارى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم، ومبتغ فى الإسلام سُنَّةَ الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه » .

الإلحاد : الزيف، والزيف : منه الكبير، ومنه الصغير، والزيف فى غير الحرم شديد، ولكنه فى الحرم أعظم حُرمة، فلا يطمع إنسان فى محبة الله وقد زاغ عن أمر الله بالكفر أو بالنفاق أو بالضلال أو بالفسوق وهو فى حرم الله . وسُنَّةُ الجاهلية يدخل فيها كل ما خالف سُننَ الإسلام، كالدعوة إلى العصبية القومية، أو الجنسية، أو الوطنية، أو الشرك أو النياحة أو التماثيل أو . . . فالإنسان الذى يريد أن يقوَّى عادات الجاهلية أو يُحسنَّها أو يحييها مهما كان نوعها فذلك بغيض إلى الله .

« ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب ^(١) الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة » ^(٢) .

فَمَنْ أراد قتل امرئ لم يدخل فى هؤلاء الثلاثة، أو مَنْ أراد قتل امرئ لا يستحق القتل - ولا يعرف استحقاق إنسان للقتل إلا بفتوى العلماء العاملين،

(١) الثيب : يُطلق على الذكر والأنثى بقيد الاقتران والدخول .

(٢) رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود، وأبو داود والترمذى والنسائى .

الفقهاء الأتقياء الورعين، فمن أراد قتل امرئ بلا شيء مما ذكر فذلك بغيض إلى الله .

٢- روى الترمذى عن جابر عن رسول الله ﷺ : « وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالتَّشَدِّقُونَ وَالتَّفْيِهَقُونَ » . قالوا : يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والتشددون، فما التففيهقون ؟ قال : « المتكبرون » .

ورسول الله ﷺ لا يبغض إلا من يبغضه الله عز وجل .

والثرثرة والتشدد لا يُصاب بهما الإنسان إلا إذا ابتعد عن أدب الحديث الذى علمنا الله إياه - يقول عز وجل : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤] .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المجادلة: ٩] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿ [التوبة: ٦٥-٦٦] .

فإذا ما تركنا ما نهى الله عنه وكنا فيما أمر الله بلا لغو ولا تكلف نرجو أن نتخلص من الثرثرة والتشدد .

وأما الكبير فقد عرفه رسول الله ﷺ فى الحديث، روى مسلم والترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » . فقال رجل : إِنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » (١) .

فإذا رأى الإنسان الحق ولم يتبعه يكون متكبراً، وإذا تبين له الحجة ولم يُسلم فيها يكون متكبراً، ويكون بالتالى بغيضاً إلى الله .

(١) الغمط : الاستهانة والاستحقار .

وَمَنْ احْتَقَرَ النَّاسَ وَازْدَرَاهُمْ كَمَا يَفْعَلُ الْحَمَقِيُّ الْمَغْرُورُونَ إِذْ يَحْتَقِرُونَ
طبقات من الناس هي عند الله في المحل الأعلى : « رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرِينَ
مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأَبْرَهُ . . » (١) فذلك متكبر وهو بغيض إلى
الله . إِنَّ أَدَبَ الْإِسْلَامِ أَلَّا تَزْدَرِيَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا لَصِفَةٍ يَبْغِضُهَا اللَّهُ، أَمَا أَنْ
تَزْدَرِيَ خَلْقَ اللَّهِ لِلْبَاسِ أَوْ لِمَظْهَرٍ أَوْ لِعَدَمِ عِلْمِ بَأْمُورِ الدُّنْيَا، أَوْ لِعَدَمِ وَجَاهَةٍ
ومكانة، فتلك هي الطامة التي لا يكون معها قُرب من الله .

٣- ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ، فأعظم أنواع
الظلم الشرك لأنه ظلم للذات الإلهية، وعدم الاستجابة للرسول والدعاة إلى الله،
وحرَبهم ومناصبتهم العداء ظلم، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ
لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ * وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وطاعة الشيطان في الكبيرة والصغيرة ظلم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ
الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ (٢) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ومن الظلم - بل من أعظمه - التكذيب بآيات الله والإعراض عنها، قال
تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٧] ،
وآيات الله تشمل الكتاب والمعجزات والكون والانتقام الإلهي .

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة: والبخاري عن ابن مسعود بالفاظ متقاربة .

(٢) بمصرخكم: بمغيثكم من العذاب .

ومن الظلم : الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن الظلم : الكذب على الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ [الأنعام: ٢١].

ويدخل فى الكذب على الله : تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦].

ومن الكذب على الله : تفسير كتابه بغير معناه .

ومن الكذب على الله : ادعاء دعوى مع الله ليست صحيحة .

ومن الكذب على الله : الكذب على رسوله ﷺ .

ومن الكذب على الله : إدخال شئ فى دين الله وليس منه .

ومن الظلم : كتمان الحق عند وجود الحاجة إليه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ومن الظلم : تجاوز الحدود التى حدّها الله لنا ، فقد حدّ الله لنا فى أمور العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق حدوداً لا يجوز لنا أن نتجاوزها ، فمن تجاوزها فقد ظلم : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن الظلم : اتباع الهوى وترك شريعة الله : ﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن الظلم : أن يُذكر الإنسان بآيات الله ثم لا يتذكر : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴿ [الكهف: ٥٧] ،
فهذه كلها أنواع من الظلم لا يحب الله أهلها، ولا طريق إلى محبة الله إلا بعد
الخلاص منها .

ومن الظلم العريض : همز المسلم ولمزه والسخرية منه، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ
نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ^(١) وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ
بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿
[الحجرات: ١١]

والتجسس على المسلم وغيبته من الظلم : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ
بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢] .

٤ - ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] .

الكفر عقيدة ينبع عنها سلوك آثم، والله عزَّ وجلَّ لا يحب الكفر والكافرين،
والإثم والآثمين، وقد ذكرنا في غير هذا الكتاب في مبحث « نواقض الشهاداتتين »
ما يتردى به الإنسان إلى الكفر، ولذلك لا نعيده، غير أن هناك جانباً مهماً جداً
وُصِفَ أهله بالكفر نريد أن نشير إليه هنا خوفاً من الوقوع فيه، وبالتالي أن نقع في
كراهية الله لنا . هذا الجانب هو الفرقة والاختلاف بين المسلمين . .

قال عليه السلام : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب
بعض » ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا

(١) لا تلمزوا أنفسكم : لا يعيب بعضكم بعضاً .

(٢) رواه البخارى عن جرير بن عبد الله فى كتاب « العلم » باب « الإنصات للعلماء » .

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٦] ويلاحظ كيف عبّر القرآن والسنة عن الفرقة والاختلاف بلفظ « الكفر » .

أما والحالة هذه فإننا نحب هنا أن نذكر أسباب الفرقة التي تجعل أهلها ممقوتين عند الله .

عندما نستعرض القرآن نجد أن الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة هي :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وإذن فهناك سبيل الله، وهناك سُبُل الشيطان، ومتى ترك الناس سبيل الله واتبعوا سُبُل الشيطان تفرّقوا واختلفوا كما هو واقع أمتنا اليوم، تركت الحق الذي يجمعها ثم لم تلتق على سبيل واحد من سُبُل الباطل، لأنّ الناس إذا لم يجمعهم الحق فلا بد أن يُفرّقهم الباطل، والحل هو الرجوع إلى صراط الله عزّ وجلّ .

(ب) قال تعالى : ﴿ فَتَسْأَلُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ١٤].

هذه الآية تشير إلى نسيان جزء من دين الله يؤدي إلى الفرقة والعداوة، كما هو واقع أمتنا اليوم، وحتى واقع من لا زال مسلماً، إذ نجد أن كل مجموعة من المسلمين قد فهمت الإسلام فهماً ناقصاً . فهذه طائفة قد نسيت جزءاً، وهذه أخرى قد نسيت جزءاً آخر، وهذه أخرى قد نسيت جزءاً مختلفاً، مما أدّى إلى اختلاف من بقي مؤمناً بالإسلام نتيجة لهذا النسيان، فجمعت كل طائفة إلى نسيانها الفرقة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاءً لِّسْتٍ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] . والحل هو أن نعيد فهمنا لدين الله عزّ وجلّ .

(ج) ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

[الشورى: ١٤]

والبغى قد فسره رسول الله ﷺ : « دَبَّ بينكم داء الأم قبلكم : الحسد ، والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول الحالقة التي تخلق الشعر ، وإنما الحالقة التي تخلق الدين » (١) . . . أو كما قال عليه السلام .

أن يحسد كل من المسلمين الآخر على ما آتاه الله عز وجل ، ذلك أصل من أصول الكفر والفرقة ، وقد أقسم رسول الله ﷺ أن الإيمان والحسد لا يجتمعان في قلب أبداً .

إن المسلمين كالحسد - كما شبههم بذلك رسول الله ﷺ - والحسد عادة لا يحسد بعضه بعضاً بل يكمل بعضه بعضاً ، ولا يتمنى جزء منه أن يكون بدلاً عن الجزء الآخر ، والمسلمون ما لم يصلوا إلى هذه الحالة الطيبة من تربية النفس فإنهم لا شك يتفرون .

(د) ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[الحشر: ١٤]

إن من أسباب التفرق والتشتت عدم العقل ، والعقل ، بالنسبة لنا نحن المسلمين - حمل النفس على كتاب الله . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] ، وكلما ازداد المسلمون إقبالا على كتاب الله ، فهما وتطبيقاً وتلاوة ، ازداد عقلهم ، وازدادوا وحدة واتحاد قلوب .

(هـ) ﴿ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

من أسباب فرقة المسلمين واختلاف مواقفهم عدم توحيد قلوبهم على الآخرة وعدم زهدهم في الدنيا ، ولذلك فقد حذر الرسول ﷺ المؤمنين من الوقوع في هذا الداء الذي يؤدي إلى تفرقهم وهلاكهم ، عن رسول الله ﷺ : « لا تفتح

(١) رواه أحمد والترمذي عن الزبير بن العوام ، ورمز السيوطي لصحته .

الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة « (١) .
ولا خلاص لنا من هذا الداء إلا إذا سرنا في طريق الله .

(و) ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] .

فاختلاف الناس أثر عن عدم رحمته إياهم، وقد بين الله عز وجل من يستحق رحمته فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١] ، فمن استجمعوا هذه الصفات استحقوا رحمة الله، واستحقوا بالتالي تأليف القلوب : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣]

فإذا لم يعط المؤمنون ولاءهم لبعضهم بعضا لا يستحقون رحمة الله ولا الاتحاد . وإذا لم يتناصحوها بينهم ولم يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر لا يستحقون رحمة الله ولا الاتحاد : - إنَّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ، ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . . . إلى : ﴿ فَاسْقُون ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١] ، ثم قال : « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » (٢) .

وإذا لم يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة لا يستحقون رحمة الله ولا الاجتماع .

(١) رواه أحمد والبخاري .

(٢) رواه أبو داود والترمذي .

وإذا لم يطيعوا الله ورسوله دون سواهما فى معصيتهما فلا يستحقون
رحمة الله ولا الاجتماع .

إنَّ التفريط فى صفة من هذه الصفات يعنى التفريط فى وحدة المسلمين .

(ز) روى أبو داود والترمذى عن أبى ثعلبة الخشنى : أنه سأل النبى ﷺ
عن هذه الآية : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال : « ائتمروا
بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة
وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم
أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً
يعملون مثل عملكم » ، قيل : يا رسول الله، أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال :
« بل أجر خمسين منكم » .

فهذا الحديث أشار إلى أنَّ الشَّحَّ المطاع، والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة،
والإعجاب بالرأى، لا يقابله إلا أن يعتزل الصالحون، وبالتالي فلا عملاً جماعياً
يمكن أن يكون .

* * *

وهناك نوع آخر من الكفر هو عدم الشكر على النعم، يقول تعالى : ﴿ لئن
شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ [إبراهيم: ٧] .

كل نعمة تقتضى ذكراً وتذكراً وشكراً : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾
[الضحى: ١١] ، والشكر الذى يُخرج صاحبه من الكفر شكران : شكر عام
وشكر خاص، فأما الشكر العام فهو استعمال كل ما آتاك الله فيما أمر وطاعته
فيه، فمن آتاه الله الملك فليحكم فيه بما أنزل الله، ومن آتاه المال فليؤد فيه حقه،
ومن آتاه ذكاءً فليستعمله فى الخير، ومن آتاه قوة فليستعملها فى الجهاد . . .
وهكذا، وأما الشكر الخاص فبأن تحمد الله بلسانك وقلبك على كل ما آتاك .

* * *

وقد ذكرنا كما قلنا فى باب « نواقض الشهاداتين » من كتابنا عن « الإسلام »
 بما يوصلنا إلى الكفر، فمن سلك تلك الطرق أو سار فيما ذكرناه هنا من طرق
 الغواية فلا يطمع أن يكون من المحبوبين لله، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن غير
 المسلم كافر، فمهما فعل من خيرات فإن الله لا يقبل منه، وهو عند الله من
 المبغدين .

٥- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ :

وصور العدوان التى لا يحب الله أهلها كثيرة منها :

(أ) الاعتداء بالقتال على ناس لم يسمح لنا الله أن نقاتلهم، كأن كانوا
 معاهدين أو لم يبلغوا الدعوة، أو نقاتل غير متقيدين بالآداب التى شرعت لنا فى
 القتال، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وبعض الناس فهم من أمثال هذه الآية أنه لا يجوز لنا أن نقاتل إلا من
 قاتلنا، فقاتلنا دفاعى، وهذا ضلال فى الفهم، فنحن مأمورون أن نقاتل الكافرين
 حتى نخضعهم لدين الله ولو لم يقاتلونا، وهذا هو الجهاد .

(ب) ومن الاعتداء : التجاوز بالمشروع إلى غير حده، وقد ذكر رسول الله
 ﷺ قوماً يعتدون بالدعاء والطهور، قال الله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
 وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن الأمثلة على هذا النوع من الاعتداء : أن يغسل يده فى الوضوء أربع
 مرات والمشروع ثلاث، وكأن يدعو الإنسان الله أن يُسهّل له ما حرم، وبشكل
 موجز : كل شئ شرع لنا على وجه معين إذا تجاوزناه إلى غير ذلك الوجه، فذلك
 اعتداء .

ومن الاعتداء : تحريم ما أحل الله عز وجل، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿ [المائدة: ٨٧] .

وفارقٌ كبير بين تحريم ما أحلَّ الله، والرضا من طيبات الدنيا بالقليل، فالأول
كفر وضلال، والثاني زهد وكمال .

٦- ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] .

كلمة الإسراف تساوى فى الاصطلاح القرآنى كلمة «الإفساد»، قال تعالى :
﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾
[الشعراء: ١٥١-١٥٢] . . . وسيأتى هذا المعنى بعد .

وتأتى كلمة « الإسراف » بمعنى التبذير - والله أعلم - أنها هى المقصودة
فى الآية هنا، قال تعالى : ﴿ وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمِسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ
كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧] .

ويدخل فى التبذير أن ينفق الإنسان كل شىء عنده . ويجلس يتكفف
الناس .

ويدخل فى التبذير والإسراف أن يشتري الإنسان من الطعام والشراب
واللباس ما يحرم كالخمر وخواتيم الذهب للرجال .

ويدخل فى التبذير والإسراف مجاوزة حد مثله فى الأكل والشرب
واللباس .

وبدخل فى التبذير والإسراف أن ينفق المال فى طريق حرام، كأن يساعد به
ظالماً، أو حزباً كافراً .

ويدخل فى التبذير والإسراف أن ينفق على قرناء السوء ثمناً للهوهم وأدوات فسوقهم، وهذا كله داخل فى عموم لفظ الإسراف والتبذير . .

روى أبو داود عن جابر : كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل البيضة من ذهب فقال : يا رسول الله، أصبتُ هذا من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها، فأعرض عنه، ثم قال ذلك من قبل يمينه فأعرض عنه، ثم من يساره فأعرض عنه، ثم من خلفه فأخذها ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته - أو لعقرته - وقال : « يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيقول : هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس . خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

الاختيال والفخر لا يحب الله أصحابهما، والخلاص من الاختيال أن يمشى الإنسان مشية رسول الله ﷺ « كأنما ينحط من صَبَب » ^(١) ، فهذه المشية تجمع ما بين النشاط والقوة والتواضع .

والخلاص من الفخر إنما يكون بالتواضع، يقول عليه السلام : « تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » ^(٢) . . . ولا تواضع إلا بنسيان أسباب الترفع من جاه ونسب ومال، ولا تواضع إلا بزهد فى الدنيا إذ أن

(١) رواه الترمذى عن على بن أبى طالب وقال : حسن صحيح، وهو من مفرداته، ومعنى : « كأنما ينحط من صَبَب » أى فى موضع منحدر .
(٢) رواه أبود داود فى كتاب « الأدب » باب « التواضع » .

التفاخر من الدنيا : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد : ٢٠].

ومما ورد فى الفخر والخيلاء :

روى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخراء بأنفه، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقى، أو فاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب » .

وللبخارى والنسائى عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خُسِفَ به فهو يجلد فى الأرض إلى يوم القيامة » (١) .

ولمالك والشيخين - وهذا لفظ مسلم - عن أبى هريرة وقد رأى رجلاً يجر إزاره وجعل يضرب الأرض برجله وهو أمير البحرين فقال له : قال النبى ﷺ : « إنَّ الله لا ينظر يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ إزاره بطراً » .

قال : وكان أبو هريرة يُستخلف على المدينة، فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيشق السوق ويقول : طَرَّقُوا لِلْأَمِيرِ . . حتى ينظر الناس إليه .

ولا تُباح الخيلاء ومشيتها إلا فى شأن الحرب . فقد روى عنه عليه السلام قوله - وقد اختال أحد الصحابة فى معركة : « إنَّ هذه مشية يبغضها الله فى غير هذا الوطن » (٢) . . . أو كما قال عليه السلام .

٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ :

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) أى يغوص فى الأرض حين يُخسف به، والجلجلة: حركة مع صوت .

(٢) رواه ابن كثير فى السيرة ج ٣ ص ٣١ .

الْخَائِنِينَ ﴿ [الأنفال: ٥٨] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨] ، ﴿ أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ اتَّمَنَّاكَ وَلَا تَخْنِ مِنْ خَانَكَ ﴾ ^(١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]

والخيانة لها معنيان : معنى خاص وهو أن تخون ما ائتمنتك عليه الآخرون . ومعنى عام وهو أن تخون الأمانة التي من أجلها خلقك الله عز وجل .

فمن أمثلة الخيانة بالمعنى الخاص : أن يائمتك إنسان على عرضه فتخونه فيه ، أو على ماله فتخونه فيه ، أو على السلام فتغدر فيه ، أو على سرفتشيه ، أو على عمل فتستغله لصالحك ، أو على وظيفة عامة فتفترط فيها ، أو تحابي من لا يستحق على حساب من يستحق ، وفي ذلك يقول عليه السلام : « مَنْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عَصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لَهُ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ » . . . أو كما قال عليه السلام .

وروى أبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : « إِذَا حَدَّثَ رَجُلٌ رَجُلًا بِحَدِيثٍ ثُمَّ التَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ - أَى إِفْشَاؤُهُ خِيَانَةٌ - الْجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ : سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ ، وَفَرْجٌ حَرَامٍ ، وَاقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ » ^(٢) .

ومن الخيانة : السرقة من أموال الأمة والدولة ، واستعمال ما يخصهما استعمالاً شخصياً ولو إبرة أو ورقة .

أما الأمانة بمعناها العام فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

(١) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وأخرجه الدارمي والدارقطني والحاكم .

(٢) رواه الحاكم في «الأحكام» عن ابن عباس ، ورمز السيوطي لصحته .

فالأمانة هنا هي القيام بما كُلفَ به الإنسان، وما كُلفَ به الإنسان هو عبادة الله، ويدخل في العبادة طاعة الله في كل أمر، فأى مخالفة لله عزَّ وجلَّ خيانة، ولا يتخلص الإنسان من صفة الخيانة حتى يتخلص من معنييها الخاص والعام، عندئذ يتخلص من مقت الله جلَّ جلاله .

٩- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]:

وأعظم أنواع الفساد والكفر : الصد عن سبيل الله، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ، ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢] .. لأنَّ كل فساد في الدنيا منشؤه عن بُعد الإنسان عن الله، وغفلته عن صراطه وانحرافه عن ذلك الصراط، إذ إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل الصلاح والإصلاح في كتابه . قال جلَّ جلاله : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] .. فمَن سار في الطريق الآخر - طريق الكفر والصد عن سبيل الله - كان لا شك من المفسدين .

وهناك نوع من المفسدين هم مثل من سبق في بواطنهم، ولكنهم يتظاهرون بخلاف هذا في ظواهرهم، وهم المنافقون . قال تعالى عنهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢] .

وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ أمر هؤلاء بياناً شاملاً في أول سورة البقرة حتى لا يلتبس أمرهم على الناس فقال : ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ *

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ^(١) * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿البقرة: ٨-١٦﴾

والسبب الرئيسي في إفساد هؤلاء، هو اتباع أهوائهم بدون هدى من الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

لكل إنسان هوى يختلف عن هوى الآخر نوع اختلاف، فلو أعطى كل إنسان على هواه لخرب الوجود، بما فيه، فمثلا حب السيطرة كامن في كل نفس، فلو أعطى لكل إنسان ما ينفذ به هذا الجانب من الهوى ماذا سيحدث ؟ وهذا جزء بسيط من الهوى، فكيف بكل أنواع الأهواء إذا انطلقت من عقالها .

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ كِتَابَهُ لِيَقْيِدَ أَهْوَاءَ الْبَشَرِ فِي الْقِيُودِ الْعَادِلَةِ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ السَّيْرِ فِي غَيْرِ صِرَاطِهِ فُسَادًا وَإِفْسَادًا لِأَنَّهُ اتَّبَعَ الْهَوَى الْأَرْعَنَ الْخَتَلُ : ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وعلى هذا فإننا نعتبر كل طوائف الكافرين مفسدين : اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين والشيوعيين والملحدين، وكذلك كل طوائف المنافقين الذين وردت صفاتهم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وقد مر معنا دليل ما قلناه . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ^(٢) غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا

(١) يعمهُون : يعمون عن الرشاد أو يتحيرون .

(٢) مغلولة : مقبوضة عن العطاء بخلاً .

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن الإفساد : محاربة المسلمين وتعكير أمنهم بقصد السلب والنهب أو القتل، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ ^(١) أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ [المائدة: ٣٣]

ومن الإفساد : عدم تطبيق أمر الله في أى قضية من القضايا : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴿٢٢٠﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ومن الإفساد الفظيع : إفساد ذات البين بين المسلمين بالوشاية والسعاية والنميمة، وقد قالوا في تعريف النميمة : هى نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، وفى الحديث الذى رواه الشيخان : « لا يدخل الجنة قتات » : أى نمائم .

فمَن أراد أن يتخلص من صفة الإفساد التى يمقت الله أهلها فعليه أن يظهر ذاته من كل ما مرَّ، ولأهمية ما فى النميمة من شر ننقل هذه الفقرة :

قال أبو حامد الغزالي رحمة الله : النميمة إنما تُطلق فى الغالب على مَنْ ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله : فلان يقول فيك كذا . وليست النميمة مخصوصة بذلك، بل حدُّها كشف ما يُكره كشفه، سواء أكرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو ثالث، وسواء أكان الكشف بالقول، أو الكتابة، أو الرمز،

(١) أى تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى .

أو الإيمان أو نحوها، وسواء أكان من الأقوال والأعمال، وسواء أكان عيباً أو غيره، فحقيقة النسيمة إفشاء السر وهتك السر عما يكره كشفه، وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية . وإذا رآه يخفى حال نفسه فذكره فهو نسيمة . قال : وكل من حمِلَتْ إليه نسيمة وقيل له : قال فلان كذا . . لزمه ستة أمور :

الأول : أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر .

الثاني : أن ينهيه عن ذلك وينصحه ويُبَحِّح فعله .

الثالث : أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغض عند الله تعالى، والبغض في الله تعالى واجب .

الرابع : أن لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ [الحجرات: ١٢].

الخامس : أن لا يحملك ما حُكِيَ لك على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى نسيمة . وقد جاء أن رجلاً ذكر لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رجلاً بشيء، فقال عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ [الحجرات: ٦] ، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١١] ، وإن شئت عفونا عنك . قال : العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً .

ورفع انسان رقعة إلى صاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم، كان مالا كثيراً، فكتب على ظهرها : النسيمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله .

١ - « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ ^(١) الْخَصْمُ » ^(٢) .

هناك نوعان من الناس عندهم ولع بمتابعة الخصومة مع الآخرين، أو إشعالها إن لم تكن موجودة، والاستمرار فيها حتى الغلبة بالحق وبالباطل .

والنوع الآخر من الناس عندهم ولع بالنقاش والجدال لتسفيه رأى الآخرين وغلبهم بالحق وبالباطل، وعادة تتلازم هاتان الصفتان في بعض الناس، فمن كانتا لديه - أو واحدة منهما - كان أبغض الخلق إلى الله .

إنَّ المؤمن قد يخاصم ويبقى هيئاً لئناً، وإذا خاصم فلا يخاصم إلا بحق، وإذا وجد الحق عند خصمه وقف عنده، ولا تدفعه الخصومة إلى عدااء المسلمين المؤمنين، بل يحتفظ بمودته لإخوانه المؤمنين مع قيام سبب الخصام .

والمؤمن لا يجادل، بل يدلى بحجته ويقول رأيه، ولا يقول إلا بعلم وحق، ولا يدفعه الجدال إلى رفض حجة الآخرين إذا كانت حقاً، ثم هو إذا رأى استمرار الآخرين في منطقهم الضال بعد أن أقام عليهم الحجة، ووجد أن كبرهم يمنعهم من قبول الحق الذي بينه، سكوت ولم يستمر في الجدال، ثم هو لا يتصدى للجدال في شيء لا يعلمه، بل يحيله إلى من يعلمه، وهو في النقاش فيما له علاقة بالقرآن أكثر حذراً، فلا يتكلم إلا بالعلم الذي لا ينتطح فيه عنزان، وما عدا هذا لا يفعله المؤمن المسلم لأنه يجعله بغيضاً إلى الله عز وجل، وهو علامة من علامات الضلال .

روى الترمذى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ : « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مَبْطُلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رِضْ ^(٣) الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَهُ وَهُوَ مُحَقٌّ بُنِيَ لَهُ فِي وَسْطِهَا، وَمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلَاهَا » .

(١) الألد: الشديد الخصومة. والخصم: المجادل.

(٢) رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن عائشة عن رسول الله ﷺ .

(٣) رِضْ الجنة: ما حولها خارجاً عنها، تشبيهاً بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت

القلاع.

وروى الترمذى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » .

وللطبرانى فى الكبير عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : « إنَّ عيسى عليه السلام قال : إنما الأمور ثلاثة : أمر تبين لك رُشدُه فاتبعه، وأمر تبين لك غيُّه، فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فردُّه إلى عالمه » .

ولأبى داود وابن حبان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « المراء (١) فى القرآن كفر » .

ومن وصايا ابن عباس : « لا تُمار أخاك فإنَّ المراء لا تفهم حكمته ولا تؤمن غائلته ولا تعدّه وعداً فتخلفه » (٢) .

١١- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٣) :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] .

فسياق الآية يدل على أنَّ الفرح بالدنيا لا يحب الله أهله، يؤيد هذا قول الله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ * لَكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٤] .

وواضح من سياق الآيات أنَّ الفرح المذموم فى الدنيا يعقبه بطل وخيلاء وفخر مع بخل .

(١) المراء: الجدل .

(٢) ذكره رزين .

(٣) الفرحين: هم الفرحون بالدنيا .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١-٣٢] ، وتفريق الدين الاختلاف فيه حسب الهوى واتباع كل طائفة إماماً أضلها بهواه مع الفرح بما هي عليه رغم كونه باطلاً، وفي قراءة : « فارقوا دينهم » .

فيكون المعنى : لا تكونوا من الذين تركوا دينهم ثم انقسموا بعد ذلك إلى أحزاب، كل حزب فرح بما هو عليه من الهوى . فهذا نوع آخر من الفرح لا يحب الله أهله .

وهناك فرح واحد جائز ومحبوب عند الله هو فرح المؤمنين بما أنزل عليهم من الهدى، وبما هُذوا إليه من الخير، وبما أنعم الله عليهم في ذلك، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨] .

وهذا النوع من الفرح جائز وطيب لأنه فرح بما هو حق ودائم ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] . فإذا فرح أهل الدنيا بما يجمعونه فإن نعمة الهداية أعظم، لذلك كان الفرح بها أجدر .

وبهذا نكون قد انتهينا من استعراض صفات من لا يحبهم الله، لننتخلص منها بإذن الله ونبدأ سيرنا في طريق المحبة، فقد قالوا: التخلية قبل التحلية، أى تخل أولاً عن صفات النقص، لتتحلى بعد بصفات الكمال، ولا شك أننا اختصرنا واقتصرنا على أمهات من المعانى على اعتبار أن ما سيأتى يوضح طريق المحبة الذى ينفى نقيضه، وكوننا سنفصل فى ذلك، فكأننا أطلنا فى هذا . والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويهدينا سواء السبيل، ويرزقنا ويقينا عذاب النار .

* * *

(ب) مَنْ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ « يُحِبُّهُمْ »

١- ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ :

لقد ذكر اللع عز وجل حبه لأهل هذه الصفة « الإحسان » في أكثر من مكان في كتابه، وبعد أكثر من معنى، فمثلاً : هي مذكورة في آية البقرة بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومذكورة في آل عمران بعد قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ومذكورة في آل عمران كذلك بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

وقد فسر أبو أيوب الأنصاري « إلقاء النفس إلى التهلكة » بالركون إلى الدنيا وإصلاحها وترك الجهاد . وقد فسر رسول الله ﷺ « الإحسان » عندما سأل جبريل عنه بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

مما تقدم نعلم أن الإحسان ذو جانبين :

١- عمل الحسن أو الأحسن .

٢- الشعور أثناء العمل بأن الله يرانا أو كأننا نرى الله .

ولتوضيح هذين الجانبين نقول :

إن معنى العبادة في الإسلام واسع جداً . فالصلاة عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والسعى على العيال عبادة، والجهاد عبادة، ورحمة الأولاد عبادة، وتأديبهم عبادة، وإكرام المؤمن عبادة، وملاعبة الزوجة وجماعها عبادة، وكل مباح تعمله تنوى به وجه الله عبادة، فإذا نمت بقصد الاستعانة على تقوى الله بنشاط، أو أكلت بنية شكر الله والتقوى على طاعته فإن ذلك عبادة، وعلى هذا فعندما قال لنا عليه السلام : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(١)، فكأنه أراد منه أن تبقى في حالة دائمة من هذا الشعور اليقظ إذا ما أردنا أن نتحقق بالإحسان .

وإن الحسن في الإسلام يقابله السيئ والقبيح، فقد حكم الله على أعمال وأخلاق بأنها سيئة، وحكم على أعمال وأخلاق بأنها حسنة، ولم يترك شيئاً إلا وبين حسنه أو قبحه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]

والحسن نفسه قسمان : حسن وأحسن . . فمن اعتدى على من المسلمين يجوز أن أرد عليه بمثل ما اعتدى على، ولكن العفو والصبر أحسن، ولذلك نجد أن آية آل عمران ذكرت المحسنين بعد الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

فالمحسن من أخذ من كل شيء أحسنه، أو بقى في دائرة الحسن، ولم يتجاوزها إلى القبيح، وكان في هذا كله شاعراً بأنه يرى الله أو أن الله يراه، وهذا

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

لا يُحَصِّلُهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، وَإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ بِالذِّكْرِ، وَالطَّاعَةِ، وَفِي كُلِّ مَا سَنَذَكُرُهُ فِي هَذَا الْبَحْثِ ثَمَنَيْنِ لِهَٰذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ .

غير أنَّ هناك أموراً قد تنص على طلب الإحسان فيها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ^(١) وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ^(٢) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد مرَّ معنا أنَّ الإحسان في عبادة الله : أن نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا . وبقي أن نشير إلى الإحسان فيما بقي من هذه المذكورات، ونبدأ «بالإحسان إلى الوالدين» .

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا^(٣) عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ^(٤) فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[لقمان: ١٤-١٥]

(١) الجار الجنب: البعيد سكناً أو نسباً.

(٢) الصاحب بالجنب: الرفيق في أمر حسن.

(٣) وهناً: ضعفاً.

(٤) فصّاله: فطامه من الرضاع.

يُلاحظ أنَّ النصين جعلاً للإحسان إلى الوالدين قرين عبادة الله، وقرين شكره .

وقد روى الترمذى عن ابن عمرو بن العاص عن رسوله الله ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد » .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « رَغَمَ أَنْفَهُ، رَغَمَ أَنْفَهُ، رَغَمَ أَنْفَهُ » قيل : مَنْ ؟ قال : « مَنْ أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة » .

من هذه النصوص يتبين لنا أنَّ عبادة الله بلا برِّ الوالدين غير مقبولة، وبدون هذا البرِّ فلا تقوى ولا إيمان ولا إسلام، على اعتبار أنَّ الوالدين هما مصدر الإنعام الظاهر والمباشر على الإنسان، فما لم يشكرهما لا يشكر الله الذى لم يره ولم يشاهده، ثم الوالدان لهما عليك دَيْنٌ، فقد كانا خادمين لك وأنت صغير، وكنت سيدهما وأنت صغير، وأنفقا عليك وأنت صغير، كانا لا ينامان إلا بعد إذنك، ولا يستريحان إلا بإذنك، وتحملا كل إزعاجاتك فى صغرك، وعليك أن تفى هذا الدَيْنَ كله، فمهما أزعجاك فى الكبر فعليك أن تتحمل راضياً، وعليك إذا كانا فقيرين أن تنفق عليهما راضياً، وأن تعترف لهما بالسيادة راضياً، فتطيعهما فى غير معصية الله، ولا تُفَضِّلَ عليهما أحداً، لأنهما لا يُفَضَّلان عليك أحداً . والأم تحملت فيك أكثر من الأب، حملتك، وأرضعتك، ورعتك، فحقها عليك أكثر من حق الأب . .

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أهلك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : « أهلك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : « أهلك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : « ثم أبوك » (١) .

وفى رواية : « أهلك ثم أهلك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك » .

(١) رواه الشيخان .

ونحن اليوم فى جيل يعق أباه وأمه، ويبر صديقه وزوجته، وهذا من انتكاس القلوب والمفاهيم، فالمسلم سيد زوجته : ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] ، وأمه سيدته، فهى سيدة زوجته كذلك، فعندما يجعلها تابعة لزوجته فى كل شىء يكون قد قلبَ الأمر، وصديقك ليس له من الحقوق عليك إلا بقدر ما لك عليه، فى الغالب، فنسيانك لحق أبيك من أجله ضلال ورعونة .

إنَّ العاقل يستطيع أن يُرضى أبويه بالقليل، بإشعارهما أنه يحبهما أكثر من كل شىء آخر، من الزوجة والولد، واستشارتهما فى أمر البيت قبل الزوجة والولد، والبدء بهما فى الطعام والشراب والكسوة قبل أى أحد، والدخول إلى بيتهما أولاً إذا كنتَ قادماً من سفر، وبالكلام اللين والصمت حين غضبهما، والرفق بهما وتنفيذ ما يريدان بقدر الاستطاعة . . . وهكذا .

وهذه آثار فى البر بهما نذكرها راجين أن يفتح الله بها قلباً :

جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد فقال: «أحى والداك» ؟ قال : نعم . قال : «ففيهما فجاهد» (١) .

وفى رواية للنسائى : «جاء رجل فقال : جئتُ أبايك على الهجرة وتركتُ أبوى يبيكان، قال : «فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» .

«إن جاهمة قال : يا رسول الله، أردتُ أن أغزو وقد جئتُ أستشيرك، فقال : «هل لك من أم» ؟ قال : نعم . قال : «إلزمها فإنَّ الجنةَ عندَ رجليها» (٢) .

وللشيخين وأبى داود عن أسماء بنت أبى بكر : «قَدِمْتُ عَلَى أُمِّى وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّى وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأُصَلِّ أُمِّى ؟ قَالَ : «نَعَمْ صَلِّى أُمُّكَ» .

(١) للسته إلا مالكا .

(٢) للنسائى .

ولأبى داود عن أبى أسيد الساعدى أن رجلاً قال : « يا رسول الله، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما » .

﴿ وَيَذِي الْقُرْبَى ﴾ [النساء: ٣٦]:

الإحسان إلى ذوى القربى : صلتهم، والله عز وجل جعل قطع الأرحام عديل الإفساد فى الأرض فقال : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢].

وصلة الرحم مفتاح الوصول إلى رضوان الله، إذ من أهم أسباب انقطاع العبد عن الله قطعه لأرحامه، فمن رأى نفسه فى حالة غير مرضية مع الله فليفتش عن صلة الرحم، فإنه سيلج بها على الله .

روى الترمذى وأبو داود عن عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرحم وشققتُ لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته » .

« إنَّ الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله : من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته » (١) .

« الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعته الله » (٢) .

« لا يدخل الجنة قاطع رحم » (٣) .

وللترمذى وأبى داود : « ما من ذنب أجدر من أن يُعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يُدخّر له فى الآخرة : من البغى وقطيعة الرحم » .

(٢) رواه الشيخان .

(١) رواه الشيخان .

(٣) رواه الشيخان وأبو داود .

ولأحمد عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلُّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ قَاطِعٌ رَحِمَ » .

والصلة تكون بالهبة، والهدية، والزيارة والسلام والصدقة والرسالة فى كل الظروف :

روى البخارى وأبو داود والترمذى : « ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل مَنْ إِذَا قَطَعَتْ رَحِمَهُ وَصَلَهَا » .

وروى مسلم عن أبى هريرة : « أَنْ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لى قرابة، أصلهم ويقطعوننى ، أحسن إليهم ويُسيئون إليَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ ، قال : « لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفهم المل (١) ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .

وإذا كان الإحسان إلى كل الخلق مطلوباً، ويؤجر الإنسان عليه، فإنَّ إحسانه إلى أقاربه وأرحامه تُضاعف فيه الحسنات :

« الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة رحم » (٢) .

﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ [النساء: ٣٦]:

روى البخارى والترمذى وأبو داود عن رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً .

وللترمذى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « مَنْ قَبِضَ يَتِيمًا مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَمِلَ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ » .

وللطبرانى فى « الأوسط » عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : « ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم، فيقرب قصعتهم الشيطان » .

(١) المل : الرماد الحار، والمعنى أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار فى بطونهم .

(٢) رواه النسائى .

ولأحمد عن أبي هريرة : أنَّ رجلاً شكّا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال :
 « أَمْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمَسْكِينَ » . وصور الإحسان لليتامي والمساكين كثيرة .
 ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾
 [النساء: ٣٦]

الجار ذى القُربى يحتمل الجار القريب نسباً، ويحتمل الجار القريب داراً .
 والجار الجُنْب يحتمل الجار البعيد داراً أو نسباً .
 والصاحب بالجنب مَنْ جمعتك وإياه حرفة، أو صناعة، أو زمالة أو رفقة
 فى مدرسة، أو طريق، أو معهد، وهو نوع جوار .
 والجار الكافر له حق الجوار، والجار المسلم له حق الجوار والإسلام، والجار
 المسلم القريب له حق الجوار والإسلام والقربة .

لأحمد والبراز عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله، إِنَّ فلانة تُذكر
 من كثرة صلاتها وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال : « هى فى
 النار » قال : يا رسول الله، إِنَّ فلانة تُذكر من قلة صيامها وصلاتها، أنها تتصدق
 بالأثوار من الأقط ولا تؤذى بلسانها جيرانها . قال : « هى فى الجنة » .

وللطبرانى فى « الكبير » عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ : « ثلاثة
 من الفواقر ^(١) : إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء إن
 رأى خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه، وامرأة إن حضرت آذتك، وإن غبت عنها
 خانتك » .

وللشيخين وأبى داود والترمذى عن عائشة عن رسول الله ﷺ : « ما زال
 جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وللترمذى أنَّ ابن عمرو بن العاص ذُبِحَتْ له شاة فى أهله فلما جاء قال :

(١) الفواقر: أى الدواهي، واحدها فاقرة، كأنها تحطم فقار الظهر، كما يقال قاصمة
 الظهر .

أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه» .

وللشيخين عن رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» . قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» .

وللطبراني في «الكبير» وللبراز كذلك عن أنس عن رسول الله ﷺ: «ما آمن بي مَنْ بات شعبان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم» .

وأدني درجات الإحسان إلى الجار ألا يرى منك أى أذى .
﴿وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]:

لأبي داود عن أبي كريمة عن رسول الله ﷺ: «ليلة الضيف حق على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دين، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك» .

وفى رواية: «أبما رجل أضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً فإن نصره حق على كل مسلم، حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله» .

وللسته إلا النسائي: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته» . قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» .

ولأبي داود والترمذي عن ابن عمر: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم قال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ قال: «أعف عنه كل يوم سبعين مرة» .

وللشيخين وأبي داود والترمذي: «مَنْ لا يملككم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون، واكسوه مما تكتسون، ومَنْ لا يلايكم فبيعه ولا تعذبوا خلق الله» .

وللبخاري والترمذي وأبي داود: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به، وقد ولى حره ودخانه فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً^(١) فليضع منه فى يده أكلة أو أكلتين» .

(١) المشفوه: القليل . وأصله الماء الذى كثرت عليه الشفاه حتى قلَّ . وقيل: أراد: فإن كان مكثوراً عليه: أى كثرت أكلته .

وختمت آية الإحسان بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] إشارة إلى أن من لا يُحسن إلى من مَرَّ فذلك أثر من آثار الخيلاء والفخر عنده، وهما صفتان لا يحب الله أصحابهما، وقد مرَّ في ذلك شيء .

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]:

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « والكلمة الطيبة صدقة » ، « اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفي صحيح البخارى : « إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقَى لَهَا بِالْأَلْفِ يَرْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقَى لَهَا بِالْأَلْفِ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » ، « كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمراً بمعروف ونهياً عن منكر أو ذكراً لله تعالى » (١) .

وللترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » .

وللترمذى عن رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش في شيء إلا شأنه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه » .

وله عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : « مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ » .

ولمسلم وأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ زَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطَى عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعَنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطَى عَلَى مَا سِوَاهُ » .

ولأحمد والطبرانى فى « الكبير » عن رسول الله ﷺ : « عَلِّمُوا ، وَيَسِّرُوا ،

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب « الفتن » . باب « كف اللسان فى الفتنة » عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ .

ولا تُعَسِّرُوا، وإذا غضب أحدكم فليسكت، وإذا غضب أحدكم فليسكت، وإذا غضب أحدكم فليسكت .

ولأحمد عن النعمان بن مقرن : « سَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ . فَقَالَ ﷺ : « أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ : بَلْ أَنْتَ ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ ، وَإِذَا قُلْتَ لَهُ : عَلَيْكَ السَّلَامُ : قَالَ : لَا بَلْ أَنْتَ ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ » .

هذه جوانب من الإحسان ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ نَصًّا ، وَوَقَفْنَا عِنْدَهَا لِأَهَمِّيَّتِهَا ، وَلَكِنَّ الْإِحْسَانَ أَشْمَلَ مِنْ هَذَا فَالرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ ، وَلِيُحَدِّثَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلِيُرِجَ ذَبِيحَتَهُ » (١) .

فَإِذَا مَا أُرِدْتَ الْإِحْسَانَ فَحَقِّقْ فِي نَفْسِكَ شَيْئَيْنِ :
(١) فعل الحسن .

(٢) مراقبة الله في الفعل بتحصيل النية والإخلاص لله فيها مع استشعار وجود الله وصفاته .

٢- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] :

هذا النص وارد في نهاية الآية (٢٢٢) من سورة البقرة بعد قوله تعالى .
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

وفي سورة التوبة : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن .

ولنبداً بذكر ما له علاقة بالشرط الأول من نص سورة البقرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

روى الترمذى عن رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده، لو لم تذنبا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » . وذلك لأن الله لا يغفر للمشرك، فإذا كان المسلمون لا يخطئون ولا يستغفرون فكيف يظهر اسم الله التواب الغفور .

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى فى الحديث القدسى : يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى لغفرتُ لك ما كان منك وما أبالى، يا ابن آدم، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

من هذه النصوص نعلم أن الإنسان لا بد أن يخطيء، ولا معصوم إلا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وإنما يطالبنا الله بالتوبة على المعصية مهما تكررت المعصية، فقد روى الشيخان عن رسول الله ﷺ : « أذنّب عبد ذنباً فقال : اللهم اغفر لى ذنبى، فقال تعالى : أذنّب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنّب فقال : رب اغفر لى ذنبى، فقال تعالى : أذنّب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك » .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ ... ﴾

[آل عمران: ١٣٥-١٣٦]

ومهما عظم الجرم فإنَّ في التوبة منه سبيلاً حتى ولو كان شركاً أو كفراً :
﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾
[النساء: ١٢٨]

والتوبة إنما تكون بترك الذنب والندم عليه والعزم على عدم العودة إليه، وإعطاء الحقوق لأصحابها إن كان الذنب في العدوان على الناس، أو الاستغفار لأصحاب الحقوق إن تعذر أداؤها .

والله عزَّ وجلَّ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره إن شاء إلا الشرك فقد قال فيه :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]
أما ما عدا ذلك فالله إن شاء غفر، والله أعظم من أن يفتات عليه بشيء :

روى أبو داود عن رسول الله ﷺ : « كان في بنى إسرائيل رجلان متواخيان، أحدهما مذهب والآخر في العبادة مجتهد، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول : أقصر . فوجده يوماً على ذنب فقال : أقصر فقال : خلني وربى، أبعثك على رقيباً ؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك - أو قال لا : يدخلك الجنة - فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال تعالى للمجتهد : أكنتَ على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

وقال أبو هريرة : تكلم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان، وأنَّ الله تعالى قال : مَنْ ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان، فإنِّي غفرتُ له . وأحببتُ عملك » .

وللشيخين عن رسول الله ﷺ : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلَّ على راهب فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله، فكمل به مائة، ثم

سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلَّ على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة ! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد . فقبضته ملائكة الرحمة » .

وإن الله إذا أراد غفران ذنب إنسان أرضى خصمه يوم القيامة عنه .

وكما رأينا . . فإن شرط التوبة العزم على عدم العود، فإن عاد بعد ما عزم على عدم العود فالتوبة محل، أما إذا كان يتوب بلسانه مع نية العود إلى الذنب، فليس ذلك توبة، قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]

وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحب من عبده أن يتوب إليه . وفي الحديث الذي رواه الشيخان والترمذي عن رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ^(١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتدت عليه الجوع والعطش قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت . فوضع رأسه علي ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » .

* * *

(١) الدوية: الصحراء التي لا نبات فيها .

ومهما أصاب المؤمن من ذنب فلا يجوز أن يقنط من رحمة الله تحقيقاً لأمر الله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ القانطين من رحمته بالضلال والكفر فقال : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] ، ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وإنما استحقوا هذا الوصف لأنهم جاهلون بصفات الله وأسمائه، فمن لم يعرف أن الله رحيم كما هو شديد العقاب، وأنه تواب غفور كما هو منتقم . فإنه شديد الجهل بالله عزَّ وجلَّ .

ولكن كما أن المؤمن لا يقنط من رحمة الله فهو كذلك دائم الخوف من الله، دائم الشعور بذنبه وتقصيره، دائم الخوف من الزل، قال تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ومما رواه الشيخان عن عبد الله يصف حال المؤمن قال : « إِنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا فذبه عنه » .

وذلك لأن الذنوب كثيرة، منها ظاهر ومنها باطن، ومنها ما يفعله الإنسان فى حالة غفلة ومنها ما يفعله عمداً وبقصد، وقد يكون العبد على ذنوب وهو لا يدري، ولذلك يبقى على هذه الحالة من الخوف والرجاء . .

فمثلاً يقول عليه السلام : « إِنَّ العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يُلْقَى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم سبعين خريفاً » (١) .

والحسد ذنب، والكبر ذنب، والشرك الخفى ذنب، وأن لا تحب للآخرين ما تحبه لنفسك ذنب، ألا تناصح المسلمين ذنب . . . ومن الذى يقوم بأمر الله

(١) رواه البخارى فى « الرقاق »، ومسلم فى « الزهد »، والترمذى ومالك وأحمد عن أبى هريرة .

كله ظاهراً وباطناً ؟ ولهذا كله فقد سَنَّ لنا سُنَّتَيْنِ دائمتين : محاسبة النفس، والاستغفار .

وقبل أن نشرع في ذكر هاتين السُنَّتَيْنِ نحب أن نشير إلى أن كلمة « تَوَّابٌ » مبالغة لاسم الفاعل : تائب . مما نفهم منه أن الإنسان الذي يحبه الله هو الذي أصبحت ملكة التوبة عنده راسخة بحيث يكرر التوبة دائماً بعد الذنب، وليس إلا المعصوم ينجو من ذنب، ولا معصوم إلا رسل الله .

* * *

سُنَّتَانِ : قال تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] ، وقال : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١-٢] .

فمحاسبة النفس النظر فيما عملت من شر، أو فيما قصرت من خير، أو فيما تعدُّ لما بعد . وما من إنسان إلا ويحتاج لاستغفار لتقصيره في واحدة من هذه، وكل على حسب مقامه حتى إن رسول الله ﷺ ليقول : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » .

وفى رواية : « توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربي مائة مرة في اليوم »^(١) .

بل يذكر ابن عمر أنه كان يُعَدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . لذلك ندبنا رسول الله ﷺ إلى ملازمة الاستغفار بشكل دائم، ووعدنا عن الله أننا إذا فعلنا، تحققت لنا معان . قال عليه السلام : « مَنْ لَزِمَ الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب »^(٢) .

(١) لمسلم وأبي داود .

(٢) رواه أبو داود وأحمد، والحديث صحيح .

وإنما كان كذلك، لأن الضيق والهَم مصائب، والمصائب كلها من المعاصي : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] ، والمعاصي يحوها الاستغفار بإذن الله ، والمعاصي - كما ذكرنا - ظاهرة وباطنة . وخفية وعلنية، وعمامة وخاصة، والمحاسبة تشمل هذا كله، والاستغفار يشمل ما علمناه منها، وما لم نعلم، ما شعرنا به وما لم نشعر .

ولقد ذكر أهل السلوك إلى الله، وأهل التربية من ثقات علماء المسلمين أن الذى يلازم المحاسبة والاستغفار فإنهما يوصلانه إلى المراقبة التى مر ذكرها فى البحث السابق . « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(١) ، وأفضل الاستغفار ما كان فى الأسحار قبل الفجر، قال تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] .

وقال عليه السلام : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : مَنْ يدعونى فأستجيب له ؟ مَنْ يسألنى فأعطيه ؟ مَنْ يستغفرنى فأغفر له » ؟ ^(٢) .

وعلى هذا فمن أراد أن يسير فى طريق التوَّابين فعليه ملازمة الاستغفار . فإن لم يلازم، فعليه بالاستغفار مائة مرة فى اليوم، فإن لم يفعل فليطبق هذه السنن :

١- روى البخارى عن رسول الله ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنى وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِى فَاغْفِرْ لى فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَسَّى فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) للسته إلا النسائي .

٢- روى مسلم عن ثوبان : « كان النبي ﷺ إذا سَلَّمَ يستغفر الله ثلاثاً ويقول : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ، قيل للأوزاعي كيف الاستغفار ؟ قال : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ .

٣- وأخرج الترمذی عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلَسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ » .

* * *

ولننتقل إلى الصفة الثانية التي أشارت إليها آية سورة البقرة وهي قوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، وآية سورة التوبة : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ومن سياق الآية الأولى، والنصوص الموضحة للثانية، نفهم أن الطهارة في مجموع النصين تشير إلى ثلاثة جوانب :

١- الطهارة بمعنى التنزه عن وطء الزوجة في الفرج وهي حائض .

٢- الطهارة بمعنى التنزه عن إتيان المرأة في دُبُرِها .

٣- الطهارة من الحَدَثِ والحَبَثِ .

وذلك أن الآية الأولى وردت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

[البقرة: ٢٢٢]

وقد ورد حول الآية الثانية أن النبي ﷺ قال لأهل قُباء : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ

الثناء عليكم في الطهور فما ذاك ؟ قالوا : نجمع في الاستنجاء بين الأحجار والماء (١) .

فلا بد لمريد محبة الله من أن يحقق صفة الطهارة، ولا طهارة إلا بالتنزه عن هذه الثلاثة، وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل فيها إنما يكون عادة في كتب الفقه، وإنما نوصي الأخ بهذه المناسبة بشيء هو المحافظة الدائمة على الوضوء إذ « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » (٢) .

٣- قال عليه السلام : « إِنَّ الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا - أراه قال : أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود » (٣) .

في هذا الحديث لمريد محبة الله ما يحرص عليه، فمن تحقق بصفة يحبها الله قارب أن يصل إلى محبة الله، إن لم يكن مانع :
(أ) « إِنَّ الله طيب يحب الطيب » .

ومما ورد في الطيب : قال عليه السلام : « ثلاثة لا تُرد : الوسادة والدهن والطيب » (٤) .

« سُئِلَتْ عائشة : أكان النبي ﷺ يتطيب ؟ قالت : نعم بذكارة (٥) الطيب : المسك والعنبر » (٦) .

(١) رواه أحمد عن عويم بن ساعدة الأنصاري وخرجه ابن خزيمة في صحيحه .

(٢) قطعة من حديث رواه ابن ماجه في كتاب « الطهارة » باب « المحافظة على الوضوء » من حديث ثوبان رضي الله عنه . قال في الزوائد : رجال إسناده ثقات أثبات إلا أن فيه انقطاعاً بين سالم و ثوبان، ولكن أخرجه الدارمي وابن حبان في صحيحه من طريق ثوبان متصلًا، وأخرجه أحمد والحاكم والبيهقي ولفظ الحديث : « استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن »،

(٣) رواه الترمذي عن سعد والنسائي عن سعيد بن المسيب مرسلًا .

(٤) للترمذي . (٥) ما يصلح للرجال، وهي جمع ذكر .

(٦) للنسائي .

وقال عليه السلام : « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء، ما ظهر لونه وخفى ريحه » (١) .

وروى مسلم عن نافع : « كان ابن عمر يستجمر بالألوة (٢) غير مطراة، وبكافور يطرحه مع الألوة ويقول : هكذا يستجمر رسول الله ﷺ » .
والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ : « حُبِّ إلى الطيب والنساء وجُعِلَ قرة عينى الصلاة » .

ولأصحاب السنن عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ : « كل عين زانية، وإن المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا . . . » يعنى زانية .
ولأحمد : « إنَّ النبى ﷺ كان يعجبه الفاغية » (٣) .

(ب) « نظيف يحب النظافة » :

«إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رجالكم ، وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس ، فإنَّ الله لا يحب الفُحش ولا التفحش» (٤) .

ولمالك عن عطاء بن يسار قال : كان النبى ﷺ فى المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه ﷺ بيده كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته، ففعل ثم رجع، فقال ﷺ : « أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان ؟ »

وللسنة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « الفطرة خمس : الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط » .

(١) للترمذى والنسائي .

(٢) الألوة : العود الذى يتبخربه .

(٣) الفاغية : زهر الحناء .

(٤) رواه أحمد وأحمد والحاكم فى « المستدرک » والبيهقى فى « الشعب » وأبو داود عن سهل ابن الحنظلية ورمز السيوطى لصحته .

ولمسلم وأصحاب السنن عن أنس : « وُقِّتَ لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين » أى يوماً .

وقد مرَّ قوله عليه السلام : « فنظفوا أفئيتكم ولا تتشبهوا باليهود » ^(١) .

ولأبي داود والترمذى عن سلمان عن رسول الله ﷺ قال : « بركة الطعام الوضوء قبله وبعده » أى غسل الأيدي .

وللسنة إلا مالكا عن ابن عباس : « أن النبي ﷺ شرب لبناً فدعا بماء فمضمض وقال : إنَّ له دسماً » .

ولمسلم عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » فقال رجل : إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال : « إنَّ الله جميل يحب الجمال : الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ولمسلم عن أبي مالك الأشعرى عن رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » .
(ج) « كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود » ^(٢) .

للشيخين عن جابر : « ما سئل النبي ﷺ شيئاً قط فقال : لا » .

ولأبي داود عن رسول الله ﷺ : « إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشبح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا » .

وفارق كبير بين النظافة والعبودية للثوب الجميل والمظهر الأنيق .

إنَّ المسلم لا يستعبده شيء، يقول عليه السلام : « تعس عبدُ الدرهم، تعس عبدُ الحمصة ^(٣) . . . » ^(٤) .

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن سعيد بن المسيب والنسائى عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى عن سعيد بن المسيب والنسائى عنه أيضاً مرسلًا.

(٣) الحمصة: كساء أسود له أعلام.

(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب « الجهاد » باب « الحراسة »، ورواه ابن ماجه.

ويقول : « إِنَّ الْبِذَاذَةَ ^(١) مِنَ الْإِيمَانِ . . إِنَّ الْبِذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(٢) .

وإذن . . فَإِنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَطَيَّبَ وَأَنْ يَقْبَلَ الطَّيِّبَ ، وَلَيْسَ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَتَطَيَّبَ بِمَا ظَهَرَ رِيحُهُ إِذَا أَرَادَتْ الْخُرُوجَ مِنْ بَيْتِهَا .

وَمِنْ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ نَظِيفاً ، وَالنَّظَافَةُ وَالطَّهَارَةُ قَدْ يَجْتَمِعَانِ ، وَقَدْ يُحْكَمُ بِالطَّهَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا تَكُونُ نَظَافَةً ، وَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ نَظِيفاً غَيْرَ طَاهِرٍ شَرْعاً ، وَالْمُسْلِمُ الْكَامِلُ فِي هَذَا الشَّأْنِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ النَّظَافَةِ وَالطَّهَارَةِ دَائِماً .

وَمِنْ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِ الْكِرَمُ ، وَالكَرِيمُ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ مُتَصَفِّاً بِالْبَخْلِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ هَذَا الْمُسْلِمُ دَاعِيَةً إِلَى اللَّهِ ؟ إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ لَا يَصْلَحُ مَعَهَا الْبَخْلُ أَبَداً .

٤- ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

الآية الأولى ذكرت أن طريق محبة الله هو اتباع رسول الله ﷺ ، والآية الثانية ذكرت أنه لا يتأسى برسول الله ﷺ إلا مَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وذكر الله كثيراً ، فكأنَّ الآية الثانية دلَّتْنا على الطريقِ إِنْ سَلَكَناها تَأْسِيناً برسول الله ﷺ ، كما بَيَّنَّتْ لَنَا أَنَّ الغَايَةَ هِيَ التَّأْسِي . وَلَيْسَتْ شَيْئاً آخَرَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ السَّنَةِ إِلَّا الزَّيْغُ ، إِذِ الانْحِرَافُ عَنْهَا وَلَوْ إِلَى خَيْرٍ مَزْعُومٍ فَإِنَّهُ يُوْدِي إِلَى تَضَخِيمِ جَانِبٍ مِنَ الدِّينِ عَلَى حِسَابِ جَانِبٍ فَيَتَهَدَّمُ الْبِنَاءُ ، وَإِذْنِ مَا تَذَكَّرَهُ الْآيَتَانِ :

(١) البِذَاذَةُ : التَّوَضُّعُ فِي اللَّبَاسِ وَتَرْكُ التَّبَجُّجِ بِهِ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث صالح بن صالح ، ورواه أبو داود ورمز

السيوطي لصحته .

١- أن اتباع رسول الله ﷺ هو طريق محبة الله، والاتباع يكون بالطاعة والتأسي .

٢- وأن التأسي لا يكون بدون رجاء الله واليوم الآخر، وبدون ذكر كثير لله .
فهنا غاية وطريق . الطريق رجاء الله واليوم الآخر والذكر الكثير، والغاية التأسي، وسنتحدث فيما يلي عن هذا كله :

١- رجاء الله واليوم الآخر :

(أ) ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ . . .

(ب) ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ .

٢- الذكر الكثير : ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

٣- الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسي به واتباعه .

* * *

١- ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(أ) رجاء الله :

اعلم أنه وإن أثبتنا أسباباً حسية في هذا الكون كنتيجة من نتائج المشاهدة كرؤيتنا أن النار تحرق، والطعام يشبع، وأنه وإن أثبتنا أسباباً غيبية لبعض الحوادث الكونية لإخبار الشارع بذلك، كاثباتنا التوفى للملك، فإننا نعتقد أن ذلك كله سواء أكان سبباً حسياً أو غيبياً إنما يكون بقدرة الله عز وجل ابتداءً وانتهاءً .
فلا شيء إلا به جلّ جلاله : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٢] ، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] ، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ *

أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿ [الواقعة: ٥٨-٥٩] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾
[فاطر: ٤١] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ، ﴿ اللَّهُ
يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] .

وبكلمة واحدة : « لا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

فالمسلم إذن يثبت الأسباب كلها حسيّة كانت أو غيبية بإثبات الله لها :
﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ [فاطر: ٩] ،
﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] .

ويستعمل الأسباب الحسيّة كلها : « تداووا عباد الله واخزوا الشيطان ،
فإن الله لم يخلق داءً إلا وخلق له دواءً » (٢) ، ولكن قلبه أبداً معلق بالله عقيدة
وشعوراً : « اللهم أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك » (٣) .

فالله وحده هو الفاعل، وعلى هذا فالمؤمن يشارك الكافر في الأخذ
بالأسباب، ويفارقه في الاعتماد على الله وحده، وبدون هذا فلا إيمان : ﴿ وَعَلَى
اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] ، واعتماده على الله هو الأساس ،
واعتماده على الأسباب وإن كان واقعاً عارض : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] ، وهذا أمر
أمر به المسلم كما أمر بالصلاة والزكاة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾
[الفرقان: ٥٨] ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١] ، ﴿ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

(١) رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري ورواه الطبراني والترمذي وقال الترمذي :

حسن صحيح .

(٢) رواه أصحاب السنن في كتاب « الطب » عن أسامة بن شريك التغلبي .

(٣) قطعة من حديث رواه الطبراني في « الكبير » والترمذي في « الجنايز » وابن ماجه

في « الطب » بالفاظ متقاربة .

وبفهمنا لهذه الحقيقة نفهم سر تلك المواقف العظيمة، والطمأنينة التي لا حد لها، التي يقف بها المسلم أمام الأحداث واثقاً أن الله معه : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] ، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

[آل عمران: ١٧٣-١٧٤]

وفى الحديث المتفق عليه عن جابر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتم القائلة فى واد كثيرة العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا وإذا عنده أعرابى فقال: «إن هذا اخترط على سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتاً قال: مَنْ يَمْنَعُكَ مَنِ؟ قلت: الله - ثلاثاً - يمنعك منى؟ قال: الله. فسقط السيف من يده». ولم يعاقبه وجلس.

وفى رواية أبى بكر الإسماعيلى فى صحيحه فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مَنِ؟ قال: «الله». فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مَنِ؟ فقال: كن خير آخذ. فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟ قال: لا، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه. فقال: جئكم من عند خير الناس.

وفى حديث الهجرة المتفق عليه عن أبى بكر قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»

أخذ بالأسباب واعتماد مطلق على الله : « قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ » ^(١) ، تلك سُنَّةُ المسلمين واضحة في هذه الكلمة النبوية : ربط للناقة - وذلك أخذ بالأسباب ، وبعد ذلك اعتماد لا حد له على الله ، وكم أغنى الله عن المسلمين مع قلة الأسباب ، وكم لم تغن عن الكافرين أسبابهم شيئاً على كثرتها : ﴿ إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

[آل عمران : ١٦٠]

وكما أن المسلم في أمر الدنيا يأخذ بالأسباب ، ويعتمد على الله وحده متوكلاً عليه ، راجياً إياه ، غير معلق قلبه بهذه الأسباب ، عالماً أنها بدون الله لا تعنى عنه شيئاً : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ [التوبة : ٢٥-٢٦]

فكذلك المسلم في أمر الآخرة ، يقوم بكل ما افترضه الله عليه ، ويعمل جاهداً من أجل إرضاء الله : إقامة لحدوده ، وطاعة لأوامره ، واجتناباً لنواهيه ، ومع هذا كله فإنه يبقى معتمداً على الله وحده في إدخاله جنته ، وإبعاده عن ناره .
 روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قاربوا وسدّوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » . ولذلك كان دعاء يوسف عليه السلام : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وكلما ازداد الإنسان معرفة بالله ، ازداد رجاءه في أمر دنياه وآخرته .
 روى الترمذى عن أنس قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : « يابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك

(١) رواه البيهقي وأبو نعيم وابن أبي الدنيا عن أنس ، ورواه الطبراني عن أبي هريرة .

ولا أبالي، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرتُ لك، يابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» (١) .

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي وأنا معه حيث يذكرني - والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهول » .

« إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها . وأخر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » (٢) .

ولأهمية هذه الناحية في قضية الإيمان - رجاء الله بالتوكل عليه وحسن الظن به - نجد السيد الرسول ﷺ قد أكثر من تعليمنا صيغاً في الذكر والدعاء نجدها في كتب الأذكار لها علاقة بهذا الموضوع .

والتوكل طريق إلى المحبة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[آل عمران : ١٥٩]

(ب) رجاء اليوم الآخر : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾

[الأحزاب : ٢١]

إن قضية اليوم الآخر هي أهم قضية في الوجود على الإطلاق بعد قضية الألوهية، وهي ملازمة للإيمان بالله لا تنفصل عنها . فمن عرف الله وآمن به، ينبغى أن يؤمن باليوم الآخر الذي سيُثاب فيه المحسن على إحسانه، ويُجازى فيه المسيء على إساءته، والذي بُعث الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم من أجل التبشير به والإنذار منه : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

(١) حديث حسن .

(٢) متفق عليه .

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿ [النساء: ١٦٥] ، به نتبين نتيجة الامتحان الذى امتحن به الإنسان : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [المالك: ٢]

ولذلك كانت هذه القضية بالنسبة للمسلم محور عمله كله ومحور فكره كله، وذلك أن الناس قسمان : كافر يريد دنيا وليس له هدف آخر، ومسلم يريد آخرة وليس له هدف آخر. يقول الله تعالى :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٢-٣].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨].

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

فالآيات القرآنية إذن جازمة أن الكافرين هم الذين جعلوا الدنيا هدفهم ومرادهم واستحبوها على الآخرة .

أما المؤمنون، فإن هدفهم الآخرة ولها يسعون : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] ، ﴿ مَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ^(١) نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴿ [الشورى: ٢٠] ، ﴿ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧] ، فالآخرة هي الهدف ، والدنيا طريق لهذا الهدف ، وعلى قدر ما يزداد علم الإنسان يتضح لديه أن الدنيا لا تساوى شيئاً بالنسبة للآخرة : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى: ١٦-١٩] ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [القصص: ٨٠].

وليس معنى كون الآخرة هي الهدف أن المسلم محرم عليه أن ينال شيئاً من الدنيا، إنَّ الله علَّمنا أن ندعو : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] ، بل المقصود أن الدنيا ليست هي الهدف ، وإنما ينبغي أن يمر بها المسلم وهو عالم أنه على الطريق إلى هدف آخر ، وأن كل ما يراه على هذا الطريق حقير بالنسبة لما سيراه بعد ، فلذلك يكون موقفه من كل ما يرى الزهد فيه ، لأن استيلاء عظمة الآخرة على قلبه يجعل كل شيء بالنسبة له فانياً شبيهاً بالعدم .

وما لم يصل المسلم إلى هذه الحالة يكون بعيداً عن نور الإسلام : « سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَعْنَى الشَّرْحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : « إنَّ النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح » . قيل : يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال : « نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » ^(٢) .

هذا مفترق طريق ، إما طالب دنيا ، وإما طالب آخرة ، ولا لقاء بين هذا وهذا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا فَتَعَالَيْنَ

(١) حرث الآخرة: ثوابها الموعود، أو العمل لها.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي جعفر وفي سنده انقطاع.

أَمْتَعُكُنَّ وَأَسْرَحُكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

والله عَزَّ وَجَلَّ فرض على البشر جميعاً أن يكونوا طُلابَ آخرة :
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ ﴿ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] ، فاختار الكافرون الدنيا على الآخرة ، واختار
المسلمون الآخرة على الدنيا ، فَمَنْ عَدَلَ عُدِلَ بِهِ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ
اللَّهُ فَمِثُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

ولعل رجلاً من ذراري المسلمين اليوم - وهو يرى فقدان المسلمين للدنيا ،
وغلبة الكافرين عليها - يطالبنا أن نغرق مع طُلاب الدنيا في طلبها ، بحُجَّة
استعادة مجد المسلمين ، فإله الله في ذلك لا تنسينا دنيانا آخرتنا ، ولو كنا
مسلمين حقاً فمِثُوتنا الله الدنيا مع الآخرة : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥] ، أما إذا أوتينا
الدنيا ، وخسرنا الآخرة فبئس الناس نحن ، ذلك هو الخسران المبين ، ولن تكون
الآخرة لنا حتى نُظْهَر أنفسنا من أدران هواها ، وحتى نسلك في الأرض بسيرة
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

إِنَّ طالب الجاه والرئاسة والزعامة والعلو لنفسه ليس من أهل الآخرة ، وإنَّ
المفسدين في الأرض السائرين بها على غير منهج الأنبياء ليسوا من أهل الآخرة ،
وطُلاب الآخرة براء من هؤلاء وهؤلاء .

إِنَّ الله لا يحب عبداً إذا لم يمتلىء قلبه بالزهد في الدنيا : « ازهد في الدنيا
يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » (١) .

(١) رواه النووي في الأربعين النووية وقال : حديث حسن . وابن ماجه وجماعة آخرون عن
سهل بن سعد الساعدي .

ومن سنن الإسلام التي سنّت كي يبقى المسلم متذكراً بالآخرة راجياً لها ما في الآثار التالية :

روى النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » يعني الموت .

وروى مالك وابن ماجه : « أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلُقاً » . قال : أى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس » .

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات فإنه يحص الذنوب ويزهد في الدنيا » .

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « فزوروا القبور فإنها تذكّر الموت » .

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد الدنيا وتذكر الآخرة » .

وفي الحديث : « الكيس^(١) من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »^(٢) .

فمن ذكر الموت وذكر ما بعده، وأكثر من هذا الذكر مع الإيمان والمحاسبة وإصلاح العمل رُجى له أن يخلص لله تعالى . قال تعالى :

﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ^(٣) ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥-٤٧] .

فتأمل كلمة : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦] تجد

(١) الكيسُ: العاقل .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذى وقال : هذا حديث حسن عن شداد بن أوس .

(٣) أخلصناهم بخالصة: خصصناهم بخصلة لا شوب فيها .

الطريق إلى الله، وإلى خلوص نفسك وخلاصها واضحاً هو أن تتذكر الدار الآخرة.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨].

وفى الحديث : « أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَدَحٍ فِيهِ لَبَنٌ وَعَسَلٌ فَقَالَ : « شَرِبْتَيْنِ فِي شَرِبَةٍ ، وَأَدْمِينِ فِي قَدَحٍ ، لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ، أَمَا إِنِّي لَا أَزْعَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ فَضُولِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَتَوَاضَعُ لِلَّهِ فَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ الْمَوْتَ أَحْبَبَهُ اللَّهُ » (١) .

وعلى هذا فلا بد من أوقات للتأمل، نتذكر فيها موتنا ثم السؤال في القبر، ثم حياة البرزخ، ثم البعث، ثم الحشر، ثم الموقف والحساب والميزان والورود على النار، ثم الجنة والنار، وكلما زدنا هذه الأوقات والتأملات كنا أقرب إلى الله، ولا بد أن يرافق هذا كله محاسبة لأنفسنا على يومنا وأمسنا وغدنا، واستغفار على ما فرطنا وقصرنا، وتجديد عزم وهمة مع الله .

ولكى تصبح هذه القضايا مَلَكَةً عند المسلم، فليخصص في بداية أمره وقتاً لمثل هذه التأملات، وكل إنسان أدري بنفسه ووقته، والغفلة عن المسير هي الشر المستطير : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] . . وهذا كله من أجل إحياء رجاء اليوم الآخر في أنفسنا إذ هو المقصود هنا .

* * *

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها، وفيه نعيم بن مودع العنبري وثقه ابن حبان، وقال النسائي: ليس بثقة، وضعفه غير واحد، وبقي رجاله ثقات .

٢- ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] ، ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : « سبق المفردون » . قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

قال النووي فى بيان الذكر الكثير : « قال الإمام أبو الحسن الواحدى : قال ابن عباس : المراد : يذكرون الله فى أدبار الصلوات ، وغدواً وعشيّاً وفى المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا أو راح منزله ذكر الله تعالى » .

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

وقال عطاء : مَنْ صَلَّى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قول الله تعالى : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] .. هذا نقل الواحدى .

وقد جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلباً أو صلى ركعتين جميعاً ، كُتِبَ فى الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (١) .

وسئل الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات فقال : « إذا واطب على الأذكار الماثورة المثبتة صباحاً ومساءً فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً وهى مبيّنة فى كتاب «عمل اليوم والليلة» كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والله أعلم » (انتهى كلام النووى) .

(١) هذا الحديث مشهور رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم .

وَمَنْ تَتَّبَعَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَدَ عَمَلِيًّا مَا يَلِي :

أَنَّ الذِّكْرَ يَتِمُّثَلُ بِثَلَاثَةِ نَوَاحٍ :

١- ناحية عامة وهى استحضار نيّة العمل لوجه الله فى كل ما يفعله المسلم . . وذلك ذكر .

٢- ناحية أساسية هى الصلاة فروضها وسُنَنُها وبدونها لا يكون الإنسان ذاكرًا، وبإكمالها يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

٣- ناحية متممة وهى الأذكار الماثورة باختلاف الأحوال والحالات والأوقات والمناسبات .

أما الناحية الأولى فقد مرّت معنا أثناء بحث الإحسان .

وأما الناحية الثانية فنقول فيها :

الصلاة ذكر كلها لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤].

وقال تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩].

وبمقدار ما يحسن الإنسان فيها يكون ذاكرًا، وبمقدار ما يُسَىء أو يُقْصِر يكون غافلًا :

قال تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وَمَنْ تأمل الصلاة وجد أن دعاء الافتتاح فيها ذكر، وفى القيام ذكر، وقراءة قرآن ذكر، وفى الركوع ذكر، وفى القيام منه ذكر . وفى السجود ذكر، وفى القعدتين ذكر، وأورادها الراتبة بعدها ذكر .

فإذا ما أدى الإنسان الصلوات كلها، فرائضها وسننها، وما سُنَّ له فيها وبعدها وقبلها، فإنَّ ذلك وحده يجعله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وقد

مرَّ فيما نقلناه عن النووى ما يشير إلى ذلك ، فإذا ما أقام فريضة الصبح ونافلتها بين الفجر والشمس ، وأقام سنة الضحى بين الشمس والزوال ، وأقام سنة الظهر القبلية ، وفريضة الظهر وسنتها البعدية بين الزوال والعصر ، وأقام العصر فى وقتها ، والمغرب وسنتها كذلك ، والعشاء وسنته ، ثم القيام والتهجد والوتر كان لا شك من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

قال عليه السلام : « مَنْ قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومن قام بمئة آية كُتِبَ من القانتين ، ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين » (١) .

* * *

فإذا ما أقام الناحية الثالثة وهى ذكر أوراد ما خُصَّص لبعض هذه الأوقات ، وذكر ما سُنَّ للمناسبات التى يتلبس بها ، فقد أوفى واستوفى .

ومن أراد استيعاب هذه الجوانب كلها ، فإنَّ كتاب « الأذكار » للنووى قد أتى بما أجاد به وأحسن وأوعى ، فليكن الكتاب الذى لا يفارقه المسلم فى حلّه وترحاله ، غير أنَّ الأستاذ البنا جمع رسالة هى « المأثورات » جمع فيها الطيّب المبارك السهل التطبيق وقد أحاطت بالأمهات .

ونحب بعد ما تقدم أن نلفت النظر إلى بعض المعانى :

١ - سُنَّ للمسلم بشكل دائم أن يلازم الذكر فى كل حال بشكل مطلق : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » (٢) ، « كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحواله » (٣) ، « جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ » . قيل : يا رسول الله ، كيف نجدد إيماننا؟ قال : « أَكثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ » (٤) .

(١) رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، وقوله : « من المقنطرين » : أى ممن كُتِبَ له قنطار من الأجر .

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن بسر ، وقال الترمذى : حديث حسن .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة .

(٤) رواه أحمد والحاكم والنسائى والطبرانى بسند حسن عن أبى بن كعب .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [آل عمران : ١٩٠-١٩١].

٢ - الأذكار كلها نافعة، ولكن الناس أحياناً يقعون في إفراط وتفریط بالنسبة لهذه القضية . فإنَّ بعض الناس يستغرق في الأذكار وهى نافلة على حساب الفروض لدرجة أنه يترك أحياناً فرض عين من أجل نافلة، والمسألة تحتاج إلى فقه عميق يعرف به المسلم ماذا عليه، فيقوم بالفرض مقدماً إياه على غيره . فمثلاً : إنَّ تعليم الناس الإسلام فرض كفاية، وهو مقدّم على النافلة، فعندما يكون المسلم باستطاعته أن يعلم ويوجد من يتعلم منه، فإنه في هذه الحالة لا ينبغي أن يترك عملية التعليم من أجل أن يتفرغ لذكر مندوب، وعلى هذا يقاس، مع ملاحظة أنَّ الذكر يستطيعه الإنسان وهو يقوم بكثير من الواجبات .

وبعض الناس يُضَيِّع وقته في غير طائل، ولا يذكر الله إلا قليلاً، بحُجَّة أنَّ هذا نفل وليس مفروضاً، صحيح أنَّ الذكر نفل وليس فريضة، ولكن بالذكر تحيا فروض لا تقوم بدونه إلا قِيَاماً مريضاً، فبالذكر يحيا القلب، وتحيا العقيدة، وتنمو معانى الإيمان، ويطمئن القلب باليقين، وكلها لو حقَّق الإنسان فرائض :

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كممثل الحى والميت » (١) ،
﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨].

« ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يُصَلُّوا على النبى ﷺ إلاَّ كان عليهم حسرة يوم القيامة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفَّرَ لهم » (٢) .
« ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلاَّ كان عليهم ترة » (٣) ،

(١) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » باب « فضل ذكر الله عزَّ وجلَّ » . رواه مسلم بمعناه .

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح، وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

(٣) الترة : النقص، وقيل : التبعة .

وما من رجل يمشی طريقاً فلم يذكر الله تعالى إلا كان عليه ترة، وما من رجل أوى إلى فراشه فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة» (١) .

٣- قد لا يتاح لإنسان في بعض الظروف أن يقوم بالأوراد الواردة، أو بما التزمه منها، أو يكسل عن القيام ببعض الرواتب . وفي مثل هذه الأحوال إما أن يقضى، وإما أن يطبق صيغة جامعة ورد فيها شيء خاص يغني عن التطويل . . فمثلاً :

عن جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : « ما زالت اليوم على الحال التي فارقتك عليها » ؟ قالت : نعم، فقال النبي ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته » (٢) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ * يَخْرُجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ١٧- ١٩] أدرك ما فاته في يومه ذلك، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » (٣) .

٤- قد يتعذر على بعض المسلمين حفظ الصيغ الكثيرة الماثورة، فنرى في هذه الحالة تسهياً واختصاراً أن يطبق السنن التالية :

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود .

(أ) الاستغفار مائة مرة، وقد مر معنا بحثه ودليله .

(ب) أن يقول مائة مرة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . . فقد ورد في الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - فِي يَوْمٍ مِائَةِ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَمْسَى، وَلَمْ يَأْت أَحَدٌ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ » .

(ج) أن يلزم بعد ذلك صيغة مما ورد فيه الذكر المطلق كالصلاة على الرسول ﷺ ، أو « لا إله إلا الله »، أو الاستغفار أو « سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم » ، أو « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، أو « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر » . وقد وردت آثار فى كل هذا تندب بإطلاق إلى الذكر بهذه الصيغ، وبعض الآثار تذكر عدداً، وفى ذلك كله خير .

والمهم أن يكون الإنسان فى حالة ذكر دائم، فى قعوده وممشاه ومنامه وعمله .

٥- وللصلاة على الرسول ﷺ أثر خاص نحب أن نتحدث عنه مع ما له نفس الخاصية من الأعمال :

إِنَّ عَصَرْنَا مَلَىءَ بِظُلُمَاتِ الشَّهْوَةِ وَالشُّبْهَةِ وَالْغَفْلَةِ .

والله عز وجل بفضله يخرج من شاء من الظلمات كلها إلى النور، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

[الزمر: ٢٢]

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] .

وعلى هذا فإننا نفهم أنَّ الإنسان الذى تصيبه صلاة الله وملائكته يخرج إلى النور، وبقدر ما يصيبه من هذه الصلاة يصيبه من النور ويتخلص من الظلمة. وقد بين الله عزَّ وجلَّ لنا أموراً إذا فعلناها أو تحققنا بها صلَّى علينا الله وملائكته أو ملائكته وحدهم، وباستعراضنا لهذه الأمور نكون قد استعرضنا الطريق الذى نسلكه لتخلص من ظلمة الشبهة أو الشهوة أو الغفلة .

(أ) قال عليه السلام : « مَنْ صَلَّى عَلَى صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ » (١) .

روى النسائي عن أبى طلحة أنَّ النبى ﷺ جاء ذات يوم والبشرى فى وجهه فقلنا : إِنَّا لَنَرَى الْبُشْرَى فِي وَجْهِكَ ، قال : « إِنَّهُ أَتَانِ الْمَلَكُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : أَمَا يَرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّيُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا صَلَّيْتُ عَشْرًا ، وَلَا سَلَّمَ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا » .

وللطبرانى فى « الكبير » بإسناد حسن عن محمد بن يحيى بن حبان عن أبيه عن جده أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ، أجعل ثلث صلاتى عليك ؟ قال : « نعم ، إن شئت » ، قال : الثلاثين ؟ قال : « نعم » ، قال : فصلاتى كلها ؟ قال : « إذن يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » .

من هذه الآثار يتبين لنا أن ملازمة الصلاة على الرسول ﷺ سنة . وأنها الطريق إلى الخلاص فى الدنيا والآخرة . فإذا أحس المسلم بظلمة شهوة أو شبهة أو غفلة ، فليبدأ بالصلاة على الرسول ﷺ لتزول ، تحقيقاً لوعد الله ، وإذا أراد المسلم أن يبقى فى النور الدائم فعليه أن يكثّر من الصلاة على رسول الله ﷺ .

وقد وردت للصلاة على النبى ﷺ فى السنة أكثر من صيغة ، والأمر فيه سعة ، فمن قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلِّمْ » لم يبعد عن الإحاطة فى

(١) رواه النسائي وأحمد وابن حبان والحاكم ، ومعنى القسم الأول من الحديث - ويكاد يكون لفظه - رواه مسلم .

الموضوع كله، وتتأكد المطالبة بالصلاة على رسول الله ﷺ إذا ذكر . فللترمذى عن عليّ بإسناد حسن : « البخيل الذى مَن ذكرتُ عنده فلم يُصلِّ علىَّ » .

(ب) للسته إلا النسائي عن رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تُصلى عليه ما دام فى مصلاة : اللهم صلّ عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

(ج) للترمذى عن أبى أمامة : « ذكّر للنبي ﷺ رجلان : عالم وعابد . فقال : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم . إنّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض - حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر - يُصلُّون على معلّم الناس الخير » .

(د) للطبرانى فى « الأوسط » و « الكبير » عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ السورة التى يُذكر فيها آل عمران يوم الجمعة ، صلّى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس » .

(هـ) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٧] ، فمن فهم هذه الآية وتحقق بها ، نال من بركات الله ما لم ينله غيره : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]

٦ - إنَّ أعلى أنواع الذكر وأرقاها، وأكثرها أجراً وأفضلها : قراءة القرآن، ولكننا لم نتعرض لها هنا لأنها ستأتى، والشئ الذى نحب أن نؤكد أنه هو ما يلى :

إذا خُيِّرنا بين القرآن والذكر، فإننا نختار القرآن، وإذا خُيِّرنا بين الذكر والغفلة، فإننا نختار الذكر، وإذا اجتمع لنا الذكر والقرآن فذلك جيد، لأنَّ القرآن يأمرنا بالذكر . وإذا خصصنا وقتاً للقرآن ووقتاً للذكر فذلك طيب، وهناك أحوال الوضع العادى فيها هو الذكر أثناء السير، وبعد الصلوات، وما ورد عنده أذكار مخصوصة .

ولنحذر الشيطان أن يتلاعب بنا، فإنَّ الشيطان يأتى أحدنا وهو فى عمل خير فيُذكِّره بعمل خير آخر ليصرفه عن الأول، ثم يشغله عن الثانى، فمن كان ذا لب أكمل الأول ثم فعل الثانى .

٣- الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسى باتباعه :

رأينا أن طريق المحبة اتباع رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، ورأينا أن الاتباع لا يتم إلا لمن تحقق بصفتين : رجاء الله واليوم الآخر، والذكر الكثير : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] . . وشرحنا فيما مرَّ ما له علاقة بتلك الصفتين، والآن نريد أن نذكر ما له علاقة بالاقتداء والاتباع والتأسى فنقول :

١- إنَّ الصفات الأساسية للرسول ﷺ وكل رسول كما يذكرها علماء التوحيد أربع هى : الصدق، والأمانة، والفطنة، والتبليغ .

والمقصود بالصدق : واضح، هو ألا يكذب أبداً، لأن مبنى الرسالة الصدق، وبدونه يُتهم الرسول فلا يصدق فى شئ .

والمقصود بالأمانة هنا : القيام بحق التكليف قياماً كاملاً، وهذا معناها فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنِ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنِ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢] ، ومظهر التكليف طاعة الأمر، واجتناب النهي . فالرسول إذن صورة طبق الأصل عن دعوته، فإنه لا يخالف لله أمراً، ولا يعصى الله فى نهى، وإذا كان الإسلام هو دين الله، فالرسول إذن هو الصورة العملية للإسلام .

والمقصود بالفطنة : العقل الراجح، والذكاء الخارق، والحجة التى لا تُدحض، فإن مهمة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، إقامة الحجة على مَنْ أُرسل إليهم، ولن يقيم الحجة إنسان عادى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّاءَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] ، وفى رسالة للبشر عامة، كرسالة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وشاملة لكل شئون الحياة، فإنها تحتاج إلى عقل لا مثيل له، إذ على صاحبها أن يقيم الحجة على كل إنسان، كبر هذا الإنسان أو صغر، فيلسوفاً كان أو عادياً، ولا يخاطب صاحب العقل الكبير بما يخاطب به الغبى .

والمقصود بالتبليغ : أن يبلغ كل ما أمرَ بتبليغه، أى يُبلِّغ مضمون رسالته للآخرين مهما كان هذا المضمون، خالف هوى الناس أو وافق، سخط الناس أم رضوا، أكرموه أم آذوه : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

فإذا ما استجاب له مَنْ بلغهم، تكون مهمته تربيتهم، وتعليمهم الكتاب، وشرح هذا الكتاب لهم : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢] ، ﴿ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١]

وإذن مهمته مع مَنْ استجاب له تطهيرهم من أهواء الأنفس وشهواتها وأخلاقها السيئة، وتعليمهم الكتاب والسنة التى هى الشارحة للكتاب .

وعليه أن يقوم مع من استجاب له بعملية الصراع ضد الجاهلية على أمر الله، حتى تكون كلمة الله هي العليا : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ ﴾ (١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ﴿ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وهذا كله داخل في التبليغ .

ولا يقوم إنسان بحق الاقتداء إلا إذا أخذ هذا كله :

فكان صادقاً، وكان أميناً، وكان فطناً، وكان مُبَلِّغاً عن الله ورسوله ﷺ، ومن التأسي بصفة الأمانة أن يتأسى برسول الله ﷺ بإقامة الفرائض، والواجبات، والسُنن بقسميها، سنن الهدى، وسُنن العبادة، وأن يتأسى برسول الله ﷺ بترك المحرمات والمكروهات التحريمية والتنزيهية، ويحدث أحياناً أن نجد إنساناً حريصاً على اتباع سُنَّة مُفْرَطاً في فريضة أو واجب، ونجد أحياناً إنساناً يُفَضِّلُ إقامة سُنَّة على فريضة، إنَّ مثل هذا يحتاج إلى إعادة نظر، وليست إعادة النظر أن يترك السُنَّة و يقيم الفريضة، بل أن يقيمهما معاً، مع الحرص على الفريضة أكثر .

والمشكلة التي نعانيها، أننا نفرط أحياناً بصفة أساسية كاملة، إذ قد نجد إنساناً مسلماً لا يلتزم الصدق الدائم مزاحاً وجداً في كل الظروف، وهذا تفريط خطير .

أو قد نجد مسلماً لا يلتزم بالأمانة كاملة فيفرط بفروض، أو يقع بمحرمات، أو يتساهل بواجبات ومكروهات، أو ينسى سُنناً كثيرة، وهذا تفريط خطير .

أو قد نجد مسلماً قَصَرَ في تكوين مَلَكَةِ الفطانة عنده فلا يستطيع أن يقيم الحُجَّةَ بالحق على الناس، فيضعف الخير، وهذا تفريط كثير وكبير .

(١) رَبِّيُونَ: علماء فقهاء أو جموع كثيرة.

أو قد نجد مسلماً لا يفكر بالتبليغ أصلاً، وهذا تقصير عظيم جداً، أو قد نجد مسلماً قد فرط بهذا كله وحتى بالآلات التي يُحصَل بها هذا، كالعلم مثلاً، فأى اتباع واقتداء يكون مع هذا ؟ وأين نحن من طريق المحبة وقتذاك ؟

٢- مَرَّ معنا فى مبحث «الرسول» فى الفصل الأول منه كيف أنَّ الرسول ﷺ هو المثل الأعلى فى كل شىء، وأنَّ الله قد آتاه الكمالات فى كل شىء، وعلى هذا فنحن نعتقد أنَّ رسول الله ﷺ فى كل جانب من جوانب الحياة قد أعطاه الله أعلى المقامات والأحوال وأعدلها . وينتج عن هذا أنَّ هيئة رسول الله ﷺ ولباسه هى الأكمل والأعدل، وكذلك طريقته فى طعامه وشرابه وتنعله وترجله، وكذلك تجملته وتنظفه، وكذلك هديه مع أولاده وبناته وزوجاته وجيرانه وأسرته والناس أجمعين . وبمقتضى هذا فلا يصح لمسلم أن يُفضِّل حالاً من الأحوال على أى حال من أحواله عليه السلام . فمثلاً كان رسول الله ﷺ يحف شاربه، ويعفى لحيته، فمن تصوَّر الكمال فى غير ذلك فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وهكذا فى كل شأن .

إننا لا نبلغ حد التأسى حتى نُقلد رسول الله ﷺ تقليداً تذوب معه شخصيتنا فى شخصية رسول الله ﷺ ذوباناً كاملاً مطلقاً .

عن مجاهد : « كنا مع ابن عمر فى سفر، فمرَّ بمكان فحاد عنه، فسئل لم فعلت ؟ قال : رأيتُ رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلته » (١) .

إنَّ الذى يُفضِّل زى الكافرين على زى رسول الله ﷺ ، أو هيئتهم على هيئته، أو طريقته على طريقته هو كما وصفه رسول الله ﷺ : « قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب » (٢) .

لقد تحدَّثنا فى غير هذا الكتاب عن السُّنة وعلومها، وما ينبغى أن يدرسه المسلم من هذه النصوص، ونزيد هنا فنقول : إننا لا نبلغ العلم حق العلم، حتى

(١) رواه أحمد والبخاري .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

لا نجاوز ما قرأناه حتى نعمل به، وينبغي أن نكون شجعاناً، فما علينا في سبيل إحياء سُنَّة رسول الله ﷺ لو جابهنا الدنيا ؟ وإيانا وفلسفة الشيطان التي يريد بها أعداء الله أن يمسخوا شخصياتنا بالتقاليد، حتى نصبح وكأننا قطعة من مجتمع الكافرين، في زيننا وهيئتنا وطرق معاشنا وآدابنا وأخلاقنا .

٣- إنَّ كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية عليه أن يكون نسخة طبق الأصل عن رسول الله ﷺ ، بياناً، وجهاداً وحكمة، وحنكة، ودراية، وعبادة، وزهداً، وإقداماً، وثباتاً، وكرماً، ورجولة، ولطفاً، ورحمة، وحزماً، و . . . وإذا ما استطاع كل فرد من أفراد الأمة أن يرتفع هذا الارتفاع، فإننا نؤكد أنه وقتذاك يحس بطعم إنسانيته تميزاً وارتقاءً .

٤- وبعد . . . إنَّ الهدف الأعلى هو محبة الله، والطريق إليها هو الاتباع لرسوله، والذكر ورجاء اليوم الآخر وسيلتنا الاتباع وأداتاه .

وكم مستعمل أداة في غير طريق، وكم سالك طريقاً يضعف . وكم ناسٍ هدفاً أمر بالوصول إليه، ولذلك لم يحقق مقام المحبة من الناس إلا قليل، ولذلك كان : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] .

نسأل الله أن يجعل رضوانه غايتنا، وأن يجعل رسوله قدوتنا في كل شأن من شئوننا .

* * *

٥- قال تعالى في الحديث القدسي : « وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتبازلين فيَّ » (١) .

(أ) « إِنَّ مَنْ عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله، تخبرنا مَنْ هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إِنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلی نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس . وقرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] (٢) .

(ب) عن أنس عن رسول الله ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله، ومَنْ يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار » (٣) .

(ج) وللترمذي عن معاذ عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

(د) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي، لا ظل إلا ظلي » (٤) .

(هـ) عن أبي ذر قال : يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم، قال : « أنت يا أبا ذر مع مَنْ أحببت » ، قال : فإنني أحب الله ورسوله، قال : « فإنك مع مَنْ أحببت » فأعادها أبو ذر فأعادها ﷺ (٥) .

(١) رواه مالك .

(٢) رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ .

(٣) رواه الشيخان والترمذي والنسائي . وله في رواية بدل الثانية : « أن يحب في الله ويبغض في الله » .

(٤) لمالك ومسلم .

(٥) رواه الدارمي وأبو داود عن أبي ذر مرفوعاً .

(و) « عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - رجال ليسو بأنبياء ولا شهداء، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين، يغطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عزَّ وجلَّ ». قيل : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : « جماع من نوازع القبائل - أى أخلاط من أغراب القبائل - يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أكل التمر أطايبه » (١) .

(ز) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها؟ (٢) قال : لا، غير أنى أحبته فى الله، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه » (٣) .

(ح) وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ بإسناد ضعيف : « مَنْ أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » (٤) .

(ط) عن المقدام عن رسول الله ﷺ : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه » (٥) .

* * *

ملاحظات

١ - ندرك مما مرَّ أن من طُرق الوصول إلى محبة الله :

(أ) الحب فى الله . (ب) والتزاور فى الله . (ج) والبذل فى الله، وهى

كما ترى طرق سهلة، نتائجها كثيرة وكبيرة عند الله .

(١) الحديث مؤلف من شطرين، الشطر الأول : « عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين » رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » عن أبى بكر رضى الله عنه، وبقية الحديث عند النسائى فى السنن عن أبى هريرة ورجاله ثقات كما قال الحافظ العراقى مع اختلاف فى بعض الألفاظ بسيط .

(٢) رواه مسلم .

(٣) تحفظها وتراعبها .

(٤) رواه أبو داود والترمذى .

(٥) رواه أبو داود .

٢- هذه المحبة فى الله، لا تتحقق إلا إذا كانت خالية من الغرض، إيجابية فى الخير، فإذا أحببت أخاك لجمال أو مال أو متعة فليست هذه محبة فى الله، وإذا أدت هذه المحبة للتعاون على معصية أو لوصول إليها، فليست محبة فى الله. أما إذا كان الحب مجرد كون المحبوب مسلماً صالحاً وأدّى بالمتحابين إلى النهوض ببعضهم إلى الله، والتواصى بالحق والصبر، والتعاون على الخير والذكر والدعوة والعلم، فتلك محبة فى الله.

قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِّيَ زَوْجاً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٥-٣٢] ثم بين الهدف من تعاونه مع أخيه فقال: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [طه: ٣٣-٣٥]، فالتسبيح الكثير، والذكر الكثير، هو الهدف من التأخى فى الله.

وقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، فأخوة لا تحقق هذه المقاصد لا يكون أصحابها من الناجحين.

وقد مر معنا قوله عليه السلام فى وصف المتحابين فى الله: «يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أكل التمر أطايبه».

فهم يحققون فى اجتماعهم سنن الاجتماع على الخير:

«إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا، قال: «آله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إنى لم

أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهى بكم الملائكة» (١) .

وعن أنس بن مالك قال : « كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعالى نؤمن برينا ساعة . فقال ذلك ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ! فقال النبي ﷺ : « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة » (٢) .

« إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ، تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنتهم إلى السماء الدنيا . فيسألهم ربهم وهو أعلم : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك . فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . فيقول : فماذا يسألون ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربى ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً . وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : يتعوذون من النار . قال : فيقول : فهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . قال : فيقول : فأشهدكم أنني غفرتُ لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » .

(١) رواه مسلم في كتاب « الذكر » باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » والنسائي في كتاب « أدب القاضي » باب « كيف يستحلف الحاكم » كلاهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال معاوية رضي الله عنه : « إن رسول الله ﷺ خرج علي حلقه من أصحابه .. » .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك به مرفوعاً .

وفى رواية : « وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى جليسهم » (١) .

* * *

٣- والأخوة فى الله لا تستمر إلا إذا كانت على تقوى وأدب : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] ، والخليل الصديق .
﴿ وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣] ، « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه » (٢) ،
« ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم » (٣) ،
« تبسمك فى وجه أخيك صدقة » (٤) .

* * *

٤- والأخوة فى الله لا تستمر إلا إذا حفظت لأخيك سره، وحفظته فى غيبته، وأديت حقه . .

روى أبو داود عن جابر عن رسول الله ﷺ : « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة : سفك دم حرام، أو فرج حرام، وانقطاع مال بغير حق » .
وللترمذى وأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إذا حدث رجل رجلاً بحدث ثم التفت فهو أمانة » .

وروى أبو داود عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ : « مَنْ حَمَى مَوْمِنًا مِنْ مَنَافِقِ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى جِسْرٍ مِنْ جُسُورِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ » .

(١) متفق عليه عن أبى هريرة .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « السير » عن ابن عباس، وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ورمز السيوطى لصحته .

(٣) رواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٤) رواه الترمذى عن أبى ذر وله تنمة .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم . . المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره - حسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم » (١) .

وروى أنس عن رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » (٢) .

وللسته إلا مالكا - وهذا لفظ النسائي - عن رسول الله ﷺ : « للمؤمن على المؤمن ست خصال : يعودُهُ إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويُسلم عليه إذا لقيه، ويُسَمِّته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد » .

* * *

٥- وإنَّ من طبيعة المؤمن حرصه على كسب الإخوان في الله، واستمراره في هذه الأخوة :

روى أحمد والطبراني في « الكبير » عن رسول الله ﷺ قوله : « المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

وروى الترمذي عن جابر عن رسول الله ﷺ : « إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » .

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذي عن أنس .

وفى حديث آخر : « الموطعون أكنافاً ^(١) الذين يألفون ويؤلفون » ^(٢) .

هذه الطبيعة اللينة السهلة اللطيفة، تجعل المؤمن مع إخوانه فى وضع لا تنفصم فيه أخوتهم .

* * *

٦- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

روى الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : « كنتُ جالساً فى نفر من أصحاب النبى ﷺ نتذاكر نقول : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فنزل : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ ^(٣) مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ١-٣]، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقرأها علينا « وبعد هذه الآيات الآية التى صدرنا بها هذا البحث وهى جواب تساؤلهم .

فالآية تذكر طريقاً من طرق الوصول إلى محبة الله . هذا الطريق يقوم على :

(أ) القتال .

(ب) وعلى كونه فى سبيل الله .

(ج) وعلى رص الصفوف .

ولنشر إلى كل جانب من هذه الجوانب إشارة :

(١) هذا مثل، وحقيقته من التوطئة وهى التمهيد والتذليل . وفراش وطىء : لا يؤذى جنب النائم . والأكناف : الجوانب . أراد الذين جوانبهم وطية، يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى .
(٢) رواه الطبرانى فى « مكارم الأخلاق » من حديث جابر بن عبد الله بسند ضعيف .
(٣) أى : عظم .

● (أ) القتال :

إنَّ القتال يحتاج إلى آلة وتدريب عليها، كما يحتاج إلى جسم تدرب عليه، كما يحتاج إلى معرفة بفن القتال، ومَن استكمل هذا ولم تكن له جرأة أو شجاعة فليس من أهل القتال، ومَن فرط بوحدة من هذه لم يصلح أن يكون مقاتلاً بالمعنى الصحيح، والمسلم نُدب إلى هذا كله، بل أوجب عليه هذا كله، في حدود استطاعته .

فعليه أن يعد دائماً عُدَّة القتال، وعليه أن يكون ماهراً في استعمالها، وعليه أن يراعى جسمه ويجعله في وضع يساعده على القتال، وعليه أن يتعرف على فن القتال بأنواعه، وعليه أن يكون جريئاً شجاعاً لا يخاف إلا الله .

ونقصد بـ « عُدَّة القتال » السلاح الفردي، وقد كان قديماً السيف والسهم، وهو حديثاً المسدس والبنديقية والقنبلة، وكلما كان السلاح أطيّب، كان ذلك أجود، ولعل أعظم ما أساء إلى المسلمين في العصور المتأخرة، نزع السلاح الفردي منهم، مما جعلهم كالأغنام سواء في ذلك أمام حكوماتهم الظالمة، أو المستعمرة، أو أمام العدو الخارجي، وهذا ما سهّل على اليهود الاستقرار في فلسطين، وعلى الدول الكافرة البقاء مستعمرة لشعوب المسلمين .

إنَّ تملك السلاح الفردي واجب إسلامي على الفرد، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولكن بشرط الاستطاعة، ولا يعني هذا أننا نعفى الدولة مما يجب عليها، بل هذا سنذكره في محله، ولكن كلامنا هذا كله مقتصر على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الفرد .

* * *

ونقصد بأنَّ عليه أن يكون ماهراً في استعمالها، ومعرفة استعمالها، وإصابة الهدف بها، والنصوص التي حضّت المسلم على إحسان إصابة الهدف كثيرة . . نذكر منها :

روى مسلم عن فقيم اللخمي : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير ويشق عليك؟ فقال : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه، قلت : وما ذاك؟ قال سمعته يقول : « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنِّي » . . أو : « قد عصي » .

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : خرج النبي ﷺ على نفر من « أسلم » ينتضلون بالسوق فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » .
ولأصحاب السنن عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُدْخِلَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ : صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي عَمَلِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَالْمَدَّ بِهِ، فَاَرْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ تَرْمُوا مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ لَهْوٍ بَاطِلٌ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِوَ مَحْمُودٌ إِلَّا ثَلَاثَةٌ : تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمَلَاعِبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمِيهِ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ، فَإِنَّهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا » . . أو قال : « كفرها » .

وروى مسلم والترمذي وأبو داود عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] : « أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ . . أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ » . ولا شك أن هذا يكلف مبالاً ولكن رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » (١) .

* * *

ونقصد بمراعاة جسمه وجعله قادراً على القتال :

أن يواصل العناية بجسمه وتدريبه بحيث يبقى على لياقة كاملة تساعد على القتال . وفي الحديث الصحيح : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ » (٢) .

(١) رواه الترمذي والنسائي .

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة، وابن ماجه .

ولذلك نجد الآثار عن الصحابة تأمرنا برعاية الأبناء : « علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ومروهم أن يثبوا على الخيل وثباً » (١) .

ولا شك أنّ هناك رياضات سهلة يستطيعها كل إنسان . ورياضات صعبة قد لا يستطيعها الكثير، والمهم أن يختار الإنسان لنفسه طريقاً يجعل جسمه فيه دائماً بوضع يُمكنه من القتال . ولعل هذه القائمة من الرياضات ضرورية :

١- المشى الطويل . ٢- الركض الطويل .

٢- ركوب دراجة طويل . ٤- تعلم ركوب دراجة نارية وسيارة .

٥- ركوب الخيل إن أمكن . ٦- تسلق الجبال .

٧- السباحة .

٨- الملاكمة والمصارعة بأنواعها والقتال القريب .

٩- طرق التنقل في الحرب - الزحف بأنواعه - القفز .

* * *

ونقصد بالتعرف على فن القتال، أن يكون ملماً بالقتال الفردي إلماماً تاماً، فيعرف كيف يقاتل في شارع، أو غابة، أو في سهل، أو أمام دبابة، أو مدفع، أو مجموعة، أو طريقة حرب العصابات، وكلنا يعرف أنّ وضعنا مع اليهود وغيرهم من أعداء الله يقتضى الفرد منا خبرة بفن القتال والدفاع كبيرة وعالية .

* * *

ونقصد بالجرأة والشجاعة أن يملك الإنسان الشجاعة التي تجعله يثبت في المعركة حتى النهاية، ويدخلها بكامل تصميم، ويستعمل كل إمكانياته فيها بكل حزم، مع المحافظة على ثبات أعصابه وقدرته على العمل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ

(١) رواه البيهقي في « الشعب » عن ابن عمر رضى الله عنهما بلفظ: « علّموا أبناءكم السباحة والرماية، والمرأة المغزل »، قال السخاوى: سنده ضعيف ولكن له شواهد.

الأدبار^(١) * وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا^(٢) لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

هذه أشياء أساسية فى القتال . .

● (ب) كونه فى سبيل الله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: ٤] ولا يكون فى سبيل الله إلا إذا قصد به وجهه، والتزم فيه طريقه .

فالقتال من أجل الدنيا ليس فى سبيل الله، والقتال من أجل الحياة ليس فى سبيل الله، والقتال من أجل العلو فى الأرض ليس فى سبيل الله، والقتال من أجل الجنس والمجد ليس فى سبيل الله والقتال اعتداءً على المسلمين ليس فى سبيل الله، والقتال مع نقض العهد ليس فى سبيل الله، وقاتل من لا يجوز قتاله ليس فى سبيل الله، وقتل من حرم قتله ليس فى سبيل الله .

فلا بد إذن من اجتماع شرطين حتى يكون القتال فى سبيل الله :

١- أن يقصد به وجه الله .

٢- أن يكون بما شرع وعلى ما شرع، وكما شرع، ولما شرع .

لقد أذن الله لى أن أقاتل دون مالى، ودون عرضى، ودون وطنى المسلم، بل فرض على أن أقاتل فى بعض هذه الحالات، فلو قاتلت أكون قد حققت أحد الشرطين، وعلى أن أحقق الثانى بأن أنوى بقتالى وجه الله . فلو لم أفعل، بل كان قصدى شيئاً آخر من فخر أو مجد أو رياء فليس ذلك فى سبيل الله . وإذن لا بد من اجتماع الشرطين، فإذا فقد أحدهما خرج القتال عن كونه فى سبيل الله . وهناك حالة نحب أن نشير إليها وهى : أن إنساناً قد يقاتل قتالاً مشروعاً ناسياً النية، ولكن ليس عنده قصد أو هدف غير جائز، فهذا قريب أن يكون فى سبيل الله . فالمسلم يذبح على اسم الله سُمى أو لم يسم كما هو مذهب الشافعية .

(١) فلا تولوهم الأدبار : أى فلا تنهزموا أمامهم، والدُّبر معناه الخلف - جمعه أدبار .

(٢) متحرّفاً: مظهر الانهزام خدعة ثم يكر .

١- للسته إلا مالكا عن أبي موسى : « سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً . أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : « مَنْ يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

٢- وللنسائي عن أبي أمامة : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له ؟ فقال : « لا شئ له » ، فأعادها ثلاث مرات يقول : « لا شئ له » . ثم قال : « إِنَّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه » .

● (ج) رص الصفوف :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُورٌ ﴾

[الصف : ٤]

إِنَّ نقل حجر من مكان إلى مكان ودحرجته شئ سهل مهما كان الحجر كبيراً، ولكن رفع حجر من بناء يحتاج إلى أضعاف أضعاف ما يحتاجه الأول، هذه نقطة ينبغى أن نفهمها . أن نكون يداً واحدة فى المعركة فى سبيل الله، فلا يخذل بعضنا بعضاً، ولا يتخلى بعضنا عن بعض، ولا نختلف ولا نتنازع : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

لأبى داود عن سمرة قال : « أما بعد . . فَإِنَّ النبي ﷺ سَمَّى خيلنا : خيل الله إذا فزعنا، وكان يأمرنا إذا فزعنا : بالجماعة، والصبر والسكينة إذا قاتلنا » .

● ولا جماعة إلا بثبات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْ حَرَفًا لِّقَاتِلٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٥-١٦] .

● ولا ثبات إلا بجماعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تَفْلَحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ^(١)
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
بَطْرًا ^(٢) وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿
[الأنفال: ٤٥-٤٦].

● لا جماعة إلا بقيادة وطاعة وانضباط :

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

وعلاوة صدق الله : الموت فى سبيله أو انتظار هذا الموت .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن اجتمع له ما فى هذه الفقرات كلها فهو على طريق المحبة سائر . . والله
يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

٧- « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » :

هذا طريق للمحبة ولعله أجمعها، ولذلك فقد أكثر الله من ذكره وخبره،
وتبيان قيمته والحض عليه والترغيب فيه، كما بين - جلّ جلاله - ماهيته والطرق
التي تؤدى إليه، واعتبرته الأمة أعظم اعتبار، وقدّرت أهله أعظم تقدير . غير أنّ
ناساً جهلوا حقيقته، وقصّروا فى التحقيق به، فهان فى أعين قوم وصلوا بذلك إلى
حد الكفر لجهلهم بما يعنيه هذا المقام، وزاد الطين بلّة أن غمض هذا المقام غموضاً
كبيراً عند العامة والخاصة، مما يجعلنا نضطر للإطالة فيه .

(١) تذهب ريحكم: تتلاشى قوتكم.

(٢) بطراً: طغياناً.

ولئن أطلنا فيه فلا غرابة، لأننا كما سنرى يتوقف خير الدنيا والآخرة عليه .
وسنكتب فيه فقرات :

١- الفقرة الأولى : مكانة التقوى فى دين الله .

٢- الفقرة الثانية : ماهية التقوى وحقيقتها .

٣- الفقرة الثالثة : طرق الوصول إلى التقوى .

ولنبداً بالفقرة الأولى :

١- مكانة التقوى وأهميتها فى دين الله

يقول الله جلّ جلاله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]، فهى إذن وصية الله لكل أمة بعث لها رسول . . .

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٠٦].

﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤].

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦١].

﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ^(١) الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧].

(١) أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب، والأيكة : غيضة تنبت ناعم الشجر، والمراد غيضة كانت تنبت بقرب مدين .

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

[الصافات: ١٢٣-١٢٤].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وإذن هدف عام بُعث من أجله الرسل، وكانت من أجله التشريعات والأوامر والوصايا هو التقوى التى إن وُجدت فى قلب بشر لم يحتج بعدها إلى رقيب أو حسيب، فتقواه حاجز له عن كل شر، دفعة له لكل خير، ولذلك نجد أن أوامر الرسل كلهم منصبة عليها وعلى طاعتهم، إذ لا تُعرف التقوى بدونها .

فنوح عليه السلام يقول : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ [الشعراء: ١٠٨]،
وهود : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ [الشعراء: ١٢٦]، وصالح : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُون﴾ [الشعراء: ١٤٤]، وشعيب : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ [الشعراء: ١٧٩]، وعيسى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ [آل عمران: ٥٠].
ومحمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٢ - وقد جعل الله مقياس القرب والبعد عنه هذه التقوى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجعل خير زاد يتزوده الإنسان فى هذه الدنيا هو التقوى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وجعل خير لباس يُزِين الإنسان فى هذه الدنيا هذه التقوى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وجعل أولياءه المتقين : ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] ، ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

ولا يقبل عملاً إلا من المتقين : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] ،
والقرآن لا يهتدى بهديه إلا المتقون : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٨] ،
﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] ، ﴿ ذَٰلِكَ
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] ، وإنما يسلم الإنسان من كيد
الشيطان إذا كان تقياً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وكل تأسيس على غير تقوى ينهار بصاحبه فى نار جهنم : ﴿ أَفَمَنَ أُسِّسَ
بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ
فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

والرخاء الاقتصادى معلق على هذا الأصل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

ونصرة الله وتأييده ومحبته إنما يعطيها للمتقين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦] ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧].

والرزق الحسن والخروج من كل ضيق موعود بهما المتقون : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

والفرقان الذى يعرف به الإنسان الحق فلا يلتبس عليه، والباطل فلا يخدع به، وُعد به من يتقى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وإصلاح العمل يعطاه كذلك هؤلاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ومع هذا يتيسر كل أمر : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

وأخيراً فإنه بالتقوى ينال وجه الله : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

٣ - وننتقل إلى عالم الآخرة لنرى أن الجنة التى عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين :

﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥]، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤]، ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ [النبا: ٣١-٣٢]، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١].

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *

وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿ [الليل: ١٤-١٨] ، ﴿ الْأَخْلَاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿ [الزخرف: ٦٧].

٤ - ويقول الذين لا يعلمون إنا نرى المتقين من المسلمين مستضعفين
مستذلين، وغيرهم أقوى وأغنى وأعز في هذه المرحلة من التاريخ، ونقول للذين
لا يعلمون :

— إذ نرى المتقين اليوم مستضعفين فإنما ذلك لأنهم اليوم في مرحلة الامتحان
التي جرت سُنَّة الله عليها : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿ [محمد: ٣١] ، ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ
يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢-٣].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٢] ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَئَةٍ ﴿ [التوبة: ١٦] (١).

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى
نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿ [البقرة: ٢١٤].

وإذ نرى غير المتقين اليوم أغنى وأقوى وأعز فإنما هي سُنَّة الله بالباطل يمهده
حتى إذا ظن أنه سبق لم يفلقته : ﴿ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ [البقرة: ١٥] ،
ويكون هذا الإمداد كثيراً متزايداً : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ
قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

(١) وليجة: بطانة وأصحاب سر.

فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ^(١) * فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥] . انظر أى مدى يعطيك مفهوم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، بل أكثر من هذا كان يمكن أن يعطى رب العزة للكافرين لو شاء : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥] .

إذن لولا ما علم الله من ضعف البشر لأعطى الكافرين طيبات هذه الحياة كلها، إذ أن الدنيا وطيباتها تافهة حقيرة أمام ما أعد الله للمؤمنين من نعيم وللکافرين من جحيم .

ولكن النتيجة أن مرحلة الامتحان للمؤمنين ستمر، ومرحلة الإمداد للکافرين ستنتهى إذا شاء الله، وستكون العاقبة للمؤمنين وسيكونون هم المنتصرون بإذن الله، والوارثين، والتاريخ شاهد : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، و ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ^(٢) أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦] ، ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥-٦] ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) مبلسون : آيسون من الرحمة أو مكتئبون .

(٢) الذكر : اللوح المحفوظ .

[الروم: ٤٧]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

فمهما رأينا من عز وقوة وغلبة للكافرين على المتقين فإنما هي مرحلة : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

٥ - ويقول الذين لا يعلمون : لقد وجدنا كثيراً من المسلمين دخلوا معارك وخُذِلوا فيها، ومصلحين إسلاميين لم تكن لهم الجولة الأخيرة، ونقول : إن لم يكن للمؤمنين إلا الجنة فذلك أعظم انتصار، ونقول كذلك : إن الله لا يغيّر سنّته فسُنن الله لا تتغير : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] . فقد يكون أحياناً سبب تأخر النصر أو عدمه عدم استكمال شروط النصر وأسبابه، وهى من التقوى، أو عدم تحقق العاملين بأوصاف المتقين .

فمن شروط النصر الاتحاد : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]، ومن شروطه الاعتماد على الله وحده : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، ومن شروطه الالتفاف حول القائد وطاعته فى الخير : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ومن شروطه أن يُراد بالعمل وجه الله وحده ونُصرة دينه ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ومن شروطه أن تحقق الجماعة المؤمنة حال انتصارها الأهداف العامة للإسلام : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ * الَّذِينَ إِنْ

مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٠-٤١﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

ومن الشروط أن يكون أفراد المؤمنين متكئين، وكل واحد منهم متصف بصفات شخصية معينة، كما رأينا في آيات المائدة: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] الآيات .

هذه شروط من الشروط، فعدم استكمالها في جماعة إسلامية هو الذي يجعل سُنَّةَ الله لا تظهر في نُصرة المؤمنين على الكافرين: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ومن ثَمَّ تظهر أهمية هذا البحث وعلاقته بفقهِ الحركة والتنفيذ زيادة على أهميته التربوية .

* * *

٢- الفقرة الثانية : ماهية التقوى وحقيقتها

١- لقد رأينا في كتابنا عن « الإسلام » شمول الإسلام، وكيف أن كل حادث من حوادث الحياة لله فيه حكم .

هذا الإسلام يطالب به البشرية كلها، أفرادها وجماعاتها . ولا شك أن هناك أحكاماً من الإسلام يطالب بتنفيذها أفراد دون أفراد، كإقامة القصاص والحدود . فبِمَ يطالب كل فرد من هذا الإسلام الواسع ؟

إنَّ ما يطالب به كل مسلم من الإسلام أن يكون تقياً، فالتقوى إذن هي مطلب لله من الإنسان، فإذا ما كان المسلمون أتقياء جميعاً، هنالك يقوم الإسلام كله، ولا يختل الإسلام إلا إذا اختلت التقوى عند الأفراد، وسنرى أن تقوى كل فرد على حسب مسؤوليته . فالإخلال بجزء من التقوى التي يطالب بها فرد من الأفراد إخلال بالإسلام عامة، ونكتفى بهذه الإشارة هنا لأننا سنوضح هذا المعنى فيما بعد .

٢- هذه التقوى ملكة ينبع عنها سلوك . يقول عليه السلام : « التقوى ههنا » ^(١) - وأشار إلى صدره، ولا تكون هذه الملكة إلا بتحقيق معان معينة . وتزداد هذه الملكة بوسائل معينة، فللتقوى طريق تُحصّل به، ولها آثار سلوكية تنبع عنها، وهى بحد ذاتها ملكة، وتترابط الملكة والطريق والآثار ترابطاً محكماً .. « إِنَّ فِي الْجَسَدِ لَمْضِغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » ^(٢) ، فالطريق إلى التقوى يصلح القلب، وصلاح القلب تصلح به الأعمال، وكلما صلحت الأعمال ازداد القلب صلاحاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١]

ولهذا فإن موضوع التقوى متشابك الأصول والفروع، ومختلط السمات والمعالم للترابط الكامل ما بين أحوالها عامة .
ولكننا سنلجأ إلى طريقة واضحة تتكشف بها فى النهاية التقوى بإذن الله، هذه الطريقة هى :

(أ) استقصاء ما عرّف الله المتقين من صفات مع شرح هذه التعاريف .

(ب) استقصاء ما ذكره الله من طرق تتحقق بها التقوى .

وقد يكون ما هو من الطريق مذكور من جملة الصفات المذكورة فى التعاريف، والتعاريف يرتبط بعضها ببعض، ولكن التوسع فى الموضوع، وذكر الجميع كل فى محله يوصلنا إلى صورة واضحة للتقوى بشكل عام، على أن الطريق سنذكرها فى الفقرة الثالثة، أما فى هذه الفقرة فنكتفى بذكر تعاريف المتقين وشرحها .

(١) قطعة من حديث رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله النعمان بن بشير .

٣- لقد عرّف الله عزّ وجلّ المتقين وبين صفاتهم في مواطن من كتابه : في مواطنين من البقرة، وفي مواطنين من آل عمران، وفي مواطن من الأنبياء، وفي مواطن من الذاريات، وهناك تعريفات أخرى داخلية ضمن تعريف من التعريفات السابقة .

وهذه هي على الترتيب نذكرها، ثم نُقْفِي بشرحها على الترتيب وباختصار :

(أ) ﴿ أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥].

(ب) ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ (١) أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ (٢) وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(ج) ﴿ قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

[آل عمران: ١٥-١٧]

(١) البر: هو جميع الطاعات وأعمال الخير.
(٢) في الرقاب: في تحريرها من الرق أو الأسر.

(د) ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

[آل عمران: ١٣٣-١٣٦]

(هـ) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

(و) ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهم إِنَّهم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هم يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِم حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

فهذه تعاريف ستة عرفت المتقين في القرآن، ولعل دراستها توضح لنا بعض مضامين التقوى إن شاء الله .

(أ) شرح التعريف الأول :

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هم يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهم وَأُولَٰئِكَ هم الْمفلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٢-٥].

هنا أربع صفات :

- ١- الإيمان بالغيب .
- ٢- الصلاة .
- ٣- الإنفاق .
- ٤- إتباع القرآن .

أما آية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٤] ... فهي مفصلة لبعض مضامين الإيمان بالغيب، والصفات الثلاث الأولى داخلية تحت معنى الإيمان بمعناه الاصطلاحي الواسع، فللإيمان معان أحدها هذا، فقد عرّف الرسول عليه الصلاة والسلام الإيمان تعريفات كثيرة :

(أ) في حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » ^(١) ، فهذا تعريف الإيمان بالغيب .

(ب) وفي حديث أبي فراس الذي رواه البيهقي قال : « ... فقال : يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال : « الإخلاص » ، فهذا تعريف للإيمان بلازم من لوازمه .

(ج) وفي حديث أبي رزين العقيلي قال : « يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحبُّ إليك مما سواهما » ^(٢) ، فهذا كذلك تعريف للإيمان بلازم من لوازمه .

(د) وفي حديث أبي رزين العقيلي قال : « يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال : « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنْعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » ^(٣) ، وهذا كذلك تعريف للإيمان ببعض لوازمه .

(هـ) ومثله حديث أبي هريرة : « الإيمان بضع وسبعون شُعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان » ^(٤) .

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بلفظ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون ... » .

(٣) رواه أبو داود والبيهقي عن أبي أمامة، والترمذي وأحمد عن معاذ بن جبل، ورمز السيوطي لصحته .

(٤) أخرجه الستة .

(و) وهناك آثار وآيات عرّفت الإيمان بما يشمل الإيمان بالغيب والصلاة

والإنفاق :

١- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢-٤] .

٢ - وفى حديث ابن عباس عن وفد ربيعة : « قال - أى رسول الله ﷺ - : « هل تدرون ما الإيمان بالله وحده » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس » ^(١) .

٣- وفى حديث ابن ماجه : « الإيمان عقد بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » .

والأركان ذُكرت فى حديث ابن عمر : « بُنِيَ الإسلام على خمس وهى الشهاداتتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج » ^(٢) .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا المعنى للإيمان فى هذه النصوص الثلاثة يكون الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق تساوى الإيمان بهذا المعنى ، وعلى هذا تكون التقوى فى التعريف القرآنى : « إيمان واتباع كتاب » .

والسؤال الآن : ما الصلة بين الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق حتى كان المجموع هو الإيمان ؟

نقول أن علاقة الصلاة بالإيمان بالغيب أنها المظهر العملى له ، فالصلاة بها يستشعر الإنسان صفات الله ، ويتذكر القرآن والرسل والملائكة واليوم الآخر ، فالصلاة مُدْكَرَةٌ بهذه المعانى كلها . .

(١) رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » باب « أداء الخمس من الإيمان » ، ورواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٢) متفق عليه عن ابن عمر مرفوعاً .

وأما علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب . . فذلك كما قال رسول الله ﷺ :
« والصدقة برهان » ، فالإنسان الذى يُنفق ماله مع حبه له وحرصه عليه لا لشيء
ويدون مقابل سوى ابتغاء وجه الله ، فذلك دليل على إيمان بالله واليوم الآخر
بشكل عملى ودقيق .

وإذا عرفنا أن التقوى فى هذا التعريف الذى ندرسه : « إيمان وإتباع كتاب »
فأيهما أولاً . الإيمان أو إتباع الكتاب ؟ يوضح هذه القضية هذه الآثار :

١- عن ابن عمر قال : « لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتى الإيمان
قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى
أن يقف عنده منها . ولقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ
ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما أمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف
عنده . . ينثره نثر الدقل » (١) .

٢- وعن جندب كما رواه الغزالي فى « الإحياء » مختصراً مع اختلاف
كما ذكر العراقى :

« كنا أصحاب رسول الله أوتينا الإيمان قبل القرآن ، وسيأتى بعدكم قوم
يؤتون القرآن قبل الإيمان ، يُقيمون حروفه ويُضيعون حدوده وحقوقه ، يقولون :
قرأنا فمن أقرأ منا ؟ وعلمنا فمن أعلم منا ؟ فذلك حظهم » .
وفى لفظ آخر : « أولئك شرار هذه الأمة . . . » .
وإذن فالإيمان أولاً . .

ولئن قلنا بأن الإيمان أولاً ثم القرآن ، فلا بد أن تؤكد أن أحدهما لا يُغنى
عن الآخر ، فالتقى هو من جمع بينهما : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، وواضح أن المقصود بالتقوى هنا في هاتين الآيتين أحد جزئيهما وهو إتباع الكتاب بدليل قوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] التي توضحها الآية : ﴿ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

ونذكر لزيادة توضيح اتصال الإيمان بالقرآن والترتيب بينهما هذه المعانى الثلاثة :

١- لا يكون الإيمان إيماناً إلا بالنزول على حكم الله والإسلام له، وحكم الله يُعرف من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩]. والشاهد عند قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩]

٢- إنه على قدر ما يكون الإيمان يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعليهما تدور أبحاث القرآن الكريم . قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »^(١)، فكلمة « أضعف الإيمان » تدل على أن شدتنا على المنكر أو ضعفنا أمامه أثر من آثار قوة الإيمان أو ضعفه، وقال عليه السلام : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابُ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يَقُولُونَ »

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري .

ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ^(١). فلا إيمان إذن ما لم يكن موقف معين من المنكر وأهله، ولا إنكار ما لم يكن إيمان.

٣- إن القرآن لا ينتفع به إلا قلب مؤمن، فانتفاع القلب بالقرآن وفقهه له لا بد أن يكون مسبقاً بالإيمان قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ^(٢) أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ^(٣)﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ومن هذه الآيات يتضح اتضاحاً كاملاً أن القرآن وتطبيقه وفهمه والتذكر به يرتبط ارتباطاً كاملاً بالإيمان، ومن هنا ندرك جهل من يتصور أن إنساناً لا تظهر عليه آثار الإيمان العملية يمكن أن يطبق القرآن أو يخضع لحكمه أو يخلص له.

والآن وقد وصلنا إلى النتيجة التي تقول: إن التعريف الأول للمتقين فيه: أن التقوى إيمان يدخل فيه التصديق بالغيوب والصلاة والإنفاق ثم اتباع كتاب، وأن الإنسان لا يكون من المتقين إلا بجمع هذين الجانبين.

(١) رواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً.

(٢) أكنة: أغطية كثيرة.

(٣) وقراً: صمماً وثقلاً في السمع.

ولما كان الشطر الأول من الموضوع هو أساس التقوى، والشطر الثاني هو البناء فيه، فإنه يتضح أنه لا بناء إلا بأساس ولا أساس إلا ببناء، وإلا كان ناقصاً. ولما كان هذا الأساس قد كتبنا عنه فصلاً كاملاً فى كتابنا عن «الإسلام»، فإننا لا نرى حاجة للإعادة فيه .

ولذا فسننقل مباشرة إلى الشطر الثانى من تعريف المتقين وهو كونهم يهتدون بهدى القرآن . فإلى الشط الثانى : ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لِرَبِّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] وهو ما جعلناه تحت عنوان : « إتباع كتاب » .

كنا تحدثنا فى كتابنا عن الثقافة الإسلامية الأساسية للمسلم المعاصر عما لهذا القرآن من مكانة وهداية، وما يجب على الناس جميعاً من التزام، لذلك فسيكون بحثنا هنا مقصوداً على ما يطالب به كل فرد منه ليحقق ملكة التقوى فى ذاته فنقول :

قد عرفنا أن كل قضية من قضايا الوجود لله فيها حكم يُعرف من كتابه أو سنة نبيه، أو يستنبطه المجتهدون منهما، والمرجع هو الكتاب، فماذا يطالب به كل فرد من المسلمين ليكون القرآن هُداً، فيكون تقياً ؟

وفى الحقيقة أن كل مسلم مطالب جزماً وبالتساوى مع بقية المسلمين بالالتزم بكتاب الله، غير أن المسلمين يتفاوتون فى كثرة ما يطالبون به من أحكام على قدر مسئوليتهم، وعلى قدر استطاعتهم، والقاعدة : « كلُّ على قدر مسئوليته وفى حدود استطاعته » .

ولتوضيح المسألة نقول : عندما يبلغ إنسان يصبح مكلفاً باتباع كتاب الله، أما قبل ذلك فلا يكون مكلفاً، ولكن ما يطالب به بعد التكليف يختلف باختلاف كونه ذكراً أو أنثى، غنياً، أو فقيراً، له أرحام أو ليس له أرحام .

فالأنثى مثلاً تطالب بالستر أكثر من الرجل، وغيرها مسئول عن نفقتها، بينما هو أصبح مسئولاً عن نفقته، والغنى مثلاً يطالب بالزكاة والحج، أما الفقير

فلا . وإذا كان له أرحام تجب عليه صلتهم، أما إذا كان منقطعاً لا قرابة له فليس عليه هذا، وإذا ما كان له جوار فإن وضعه يختلف عما إذا كان منفرداً، ففي حالة وجود الجوار يطالب بحقوقهم، وإذا ما كان جواره ذميين أو مسلمين فإن الوضع كذلك يختلف، والتكليف يختلف، وإذا ما كان له عمل فإن وضعه يختلف عن العاقل عن العمل، والتكليف يختلف .

فإذا ما تزوج طُوبَ بتكاليف أكثر . أن يكون زواجه وزفاه على مقتضى كتاب الله، وأن يعطى زوجه حقوقها، والزوجة حقوق زوجها، فإذا ما أصبح له أولاد كُلِّفَ بأوامر أكثر، وطُوبَ أن يربى أولاده وبناته على أدب القرآن، فإذا ما كان موظفاً في وظيفة من وظائف الدولة طُوبَ بتكاليف تنسجم مع مسؤوليته، وعلى قدر ارتفاع الوظيفة ونوعها يطالب بتكاليف تختلف كثرة أو قلة، فإذا ما كان رئيساً لدولة فإنه عندئذ يُكَلَّفُ بإقامة القرآن كله في جوانبه كلها على نفسه وعلى أفراد أمته وعلى دولته منهاجاً وسلوكاً . وبقيام كل فرد بما عليه من كتاب الله يكون القرآن مطبقاً كله، أما إذا كانت كل وزارة وكل وزير، وكل وظيفة وكل موظف، وكل مؤسسة ومستخدميها، لا يقيمون كتاب الله منهاجاً وتطبيقاً، وإذا كان المسلم يقوم ببعض ويتخلى عن بعض، يُطبَّق بعض جوانب القرآن ويتخلى عن بعضه، ففي هذه الحالة لا يكون المسلم تقياً ولا المجتمع تقياً ولا الدولة تقية، ولا يكون الإسلام قائماً .

ويمكن أن نصور الموضوع بشكل آخر . .

إنَّ الإنسان يعيش في دوائر : دائرة الأسرة، دائرة الجوار، دائرة النقابة، دائرة الدولة، دائرة الأمة الإسلامية ودولتها الكبيرة، دائرة الإنسانية، والقرآن الكريم منهاج كامل للحياة البشرية في كل دوائرها، فهو منهاج الأمة الإسلامية : في نظامها وتنظيمها، وصلاتها بغيرها في الخارج، وبغير المسلمين في الداخل، وكيف ينبغي أن تسير هذه الأمة ومجموع أقطارها، وما هي المناهج التي ينبغي أن تسير عليها كل شُعبة من شُعبها . وهو منهاج لكل قُطر في علاقته ببقية الأقطار، وما ينبغي أن يكون عليه شعبه ووزرائه وحكَّامه، وهو منهاج لكل نقابة

فى سىرها وسلوكها وحدودها . وماذا لها وماذا عليها، وهو منهاج لعلاقات الجوار والسلوك بين الناس، وهو منهاج للأسرة حُدِّدَ فيه واجبات كل، وحقوق كل وكذلك للفرد، وهذا منهاج الكامل المتكامل لا يقوم إلا :
١- بمعرفته .

٢- بالاستسلام والخضوع لأحكامه .

٣- بالرجال الذين ينفذونه عملياً على أى مستوى كانوا، وفى أى دائرة عاشوا، وقد يكون للفرد مسئولية فى أكثر من دائرة، فعليه إقامة حكم الله فى الكل، فإذا ما عرف المسلمون منهاج واستسلموا له، وقام كل بواجبه فيه على أعلى مستوى، عندئذ يقوم كتاب الله كله، ويكون كُلُّ فرد قد حصل التقوى .
فلا إسلام إلا برجال، ولا إسلام بلا استسلام لله عزَّ وجلَّ، ولا استسلام إلا بمعرفة .

والانحراف عن كتاب الله يبدأ بالجهل أو الفسوق، أو بالردَّة، والمآل فى كُلِّ نبذ كتاب الله، وعندئذ يكون منهاج الطاغوت هو المُحكَّم فى كل شىء، وترسم الحياة على أساسه، فإذا استطاع المسلم أن يطبَّق الإسلام فى دائرة ما، يجد نفسه عاجزاً عن تطبيق كتاب الله فى الدائرة الثانية، وعندئذ تجده بشكل عملى غير تقى .
ومن هنا كان لا بد من جهاد حتى تكون كلمة الله هى العليا، لىوجد الإنسان الوضع الذى يساعده على التقوى بتطبيق شطرها الذى نتكلم عنه (الذى هو إتباع الكتاب) .

وبهذا اتضح معنى القاعدة ما يطالب به الناس من كتاب الله : « كل على قدر مسئوليته وفى حدود استطاعته » ، فإذا ما قام كل فرد من المسلمين على اختلاف مسئوليتهم بهذا يقوم كتاب الله عزَّ وجلَّ ويقوم الإسلام، ويكون المجتمع تقياً .

وهذا لا يكون ما لم تكن كلمة الله هى العليا، والمسلمون هم الأعلون، والإسلام هو المُحكَّم، والسُّلطة بيد المسلمين، عندئذ يمكن أن يُقام كتاب الله .

أما إذا كانت السُّلطة بيد غير المسلمين، والمُحكَّم هو الطاغوت، فعندئذ لا تُقام حدود الله، ولا تحكَّم شريعة الله، ويكون المسلم فى هذه الحالة مسلماً عبادة وعقيدة بعيداً عن الإسلام فى كثير من الأمور . ولا يعنى هذا أنه إذا ما حدث أن أصبحت السُّلطة بيد غير المسلمين أن يُعفى المسلم من اتباع كتاب الله، لا بل الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، ويقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] . . .، ولكن عليه فى هذه الحالة أن يبذل وسعه لتكون السُّلطة للمسلمين . لأنه إذا كان المسلمون يتفاوتون فى مقدار ما يطالب به كل فرد منهم من كتاب الله، كل على قدر مسئوليته، وفى حدود استطاعته، فإن بجانب هذا قاعدة ثانية وهى :

«المسلمون مسئولون بالتضامن عن إقامة كتاب الله كله فيما بينهم وعلى غيرهم» . يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»^(١)، ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ ... إلى قوله ﴿ فَاسْقُون ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]،

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود كما فى تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٣٥ مع اختلاف فى بعض الألفاظ يسير.

ثم قال : « كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنَّه على الحق أطراً ولتقصرنَّه على الحق قصراً أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » .

وقال عليه السلام : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » ^(١) ، وقال عليه السلام : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » ^(٢) .

وهذا أبلغ مثل على تضامن المسلمين ومسئوليتهم في إقامة كتاب الله ، والآثار في ذلك مشهورة معروفة :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ^(٣) ، « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » ^(٤) .

فأى مؤمن رأى الانحراف عن كتاب الله فعليه تقويمه وتعديله ، يستعدى الأمير على العامة ، والعامة على الأمير ، حتى يستقيم الأمر .

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدرى مرفوعاً .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدرى .

(٤) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » عن

عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

أخرج ابن عساكر وأبو ذر الهروى فى « الجامع » عن النعمان بن بشير :
 « أنَّ عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والأنصار : أرايتم لو
 ترخَّصتُ فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين ؟ فسكتوا، فقال ذلك مرتين وثلاثاً،
 فقال بشر بن سعد : لو فعلتَ ذلك قوَّمتُك تقويم القدح، فقال عمر : أنتم إذن ..
 أنتم إذن » (١) .

وعن ابن المبارك عن موسى بن أبى عيسى قال : أتى عمر بن الخطاب
 رضى الله عنه مشربة بنى حارثة فوجد محمد بن مسلمة فقال عمر : كيف ترانى
 يا محمد ؟ قال : أراك والله كما أحب وكما يحب من يحب لك الخير، أراك
 قوياً على جمع الأموال، عفيفاً عنه، عدلاً فى قسمه، ولو ملتَ عدلناك كما
 يعدل السهم فى الثقاب، فقال عمر رضى الله عنه : هاه . قال : لو ملت عدلناك
 كما يعدل السهم فى الثقاب . فقال : الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا ملتُ
 عدلونى » (٢) .

وأخرج ابن أبى عاصم والبعغوى عن خالد بن حكيم بن حزام قال : كان
 أبو عبيدة أميراً بالشام، فتناول بعض أهل الأرض فقام إليه خالد فكلَّمه فقالوا :
 أغضبتَ الأمير، فقال : أما إني لم أرد أن أغضبه ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ
 يقول : « إنَّ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس فى الدنيا » .

ومن مظاهر هذا التضامن فى المسئولية من أجل إقامة كتاب الله :

(أ) التضامن فى الأسرة : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾
 [طه: ١٣٢]، ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِياً ﴾
 [مريم: ٥٥]، ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ
 الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنِ

(١) رواه فى الكنز.

(٢) رواه فى منتخب كنز العمال.

وَفَصَّالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْغِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٣-١٩﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥].

(ب) ومن مظاهر التضامن في العشيرة : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

(ج) ومن مظاهر التضامن تجاه الدولة : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ^(١).

(د) ومن مظاهر التضامن العام : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ﴾ [التوبة: ٧١].

(هـ) ومن مظاهر التضامن في الدولة : « إِنَّ اللَّهَ لِيَزْعَ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزْعُ بِالْقُرْآنِ » (١) .

وبهذه المسؤولية المشتركة فيما بين المسلمين من أجل إقامة كتاب الله، وقيامهم بها، فضّلهم الله على غيرهم : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأظننا بعد هذا عرفنا متى نحقق الشرط الثاني المذكور في التعريف الأول للمتقين :

١- أن نؤمن بالقرآن جزماً وأننا ملزمون به .

٢- أن نطبّق من القرآن بقدر مسؤوليتنا وحسب استطاعتنا .

٣- أن نعمل على حمل الآخرين على تطبيقه .

وأى إخلال بواحدة من هذه الثلاثة خروج عن التقوى يستحق به عذاب الله .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ولا يكونون مصلحين أبداً إلا بشيئين : ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فالمصلحون من أقاموا الصلاة، ومسكوا أنفسهم والناس بكتاب الله، وبدون هذا يستحق أهل القرى الهلاك .

(١) قول لعثمان بن عفان .

(ب) التعريف الثانى :

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ﴾ :

١- ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾

٢- ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾

٣- ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾

٤- ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾

٥- ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هذا التعريف داخل ضمناً فى التعريف الأول، فما لم يدخل فى شطره الأول دخل فى شطره الثانى . إلا أنه أبرز صفات أساسية ضرورية لا تكون التقوى إلا بها، وقسم كبير مما هو داخل فى التعريف مرّ معنا بمناسبات سابقة . كالمقطع الأول، إذ مرّ معنا فى الفصل الأول من كتاب « الإسلام » تحت عنوان « نظرة تحليلية للشهادتين » ، كالمقطع الثالث إذ مرّ معنا فى نفس الكتاب عند الكلام عن الركن الثانى والثالث « الصلاة والزكاة » ، وبقي فى التعريف ثلاث مقاطع هى الثانى والرابع والخامس . نبدأ بذكر معانيها على الترتيب :

١- ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

روى الترمذى عن فاطمة بنت قيس قالت : « سئل - أو سألت - رسول الله ﷺ عن الزكاة فقال : « إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ » ، ثم تلا : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ . . . ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية .

ومع أن فى بعض رواة الحديث ضعفاً فإنَّ ظاهر الآية تؤيده، إذ أن الآية ذكرت الزكاة مع النص المتقدم، مما يدل على أن هذا النوع من الإنفاق منفصل عن

الزكاة، ولعل هذا التفريق لأنَّ الزكاة واجبة وجببها الإمام، وهذا متروك لصاحبه .
وقد أشار المقطع إلى صفة المعطى وصفة الآخذ .

فأما المعطى التقى فأن يؤتى هذه الأصناف من المال على محبته لهذا المال،
وأما الآخذون المستحقون فهم مَنْ ذُكِرَتْ صفاتهم، وهذه النصوص تبين لنا
مضمون هذا المقطع :

للسنة عن أنس : « كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل،
وكان أحب أمواله إليه بيرحاء . وكانت مستقبلة المسجد ويدخلها رسول الله ﷺ
ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزل : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] قال أبو طلحة : يا رسول الله، إنَّ الله يقول : ﴿ لَنْ
تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] وإنَّ أحب مالى إلى
بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله .
فقال ﷺ : « بخ بخ . . ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإنى أرى أن
تجعلها فى الأقربين » ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله، فقسّمها أبو طلحة
فى أقاربه وبنى عمه » .

وللشيخين والنسائي عن زينب امرأة ابن مسعود : « أنَّ النبى ﷺ لما قال :
« تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن » ، قالت لابن مسعود : إنك خفيف
ذات اليد، وإنَّ النبى ﷺ أمرنا بالصدقة فأسأله فإن كان يجزىء عنى وإلا صرفتها
إلى غيركم . فقال عبد الله : بل اثنيه أنت . فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار
بباب رسول الله ﷺ حاجتى حاجتها، وكان ﷺ قد ألقى عليه المهابة، فخرج
علينا بلال فقلنا له : ائت رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ امرأتين بالباب تسألانك :
أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره مَنْ
نحن، فسأله بلال فقال له رسول الله ﷺ : « مَنْ هما » ؟ فقال : امرأة من
الأنصار وزينب، فقال له : « أى الزيانب » ؟ قال : امرأة عبد الله، فقال : « لهما
أجران . . أجر القرابة وأجر الصدقة » .

ولمسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » .

ولأحمد عن المقدم بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » .

وللطبراني في « الأوسط » بلين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « والذي بعثني بالحق لا يُعَذَّبُ الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، وألان له في الكلام ، ورحم يُتمه وضعفه ، ولم يتناول على جاره بفضل ما آتاه الله . يا أمة محمد ، والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلة ويصرفها إلى غيرهم ، والذي نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وللسنة إلا الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمررة والتمررتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ، ولا يُفطن به فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

ولمسلم والنسائي عن جابر : « أتى النبي ﷺ قوم عراة مجتأبي النمار والعباء ، متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر بل كلهم من مُضَرَ ، فتمعر^(١) وجه النبي ﷺ لما رأى بهم من الفاقة . فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فنادى وأقام فصللي ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . . . إلى ﴿ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] . والآية التي في الحشر : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] . تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره . . . حتى قال : ولو بشق تمره » . فجاء الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه

(١) تمعر وجهه : تغير وعلمته صُفرة .

مذهبة، فقال ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » .

وللطبراني في « الكبير » عن رسول الله ﷺ : « ملعون مَنْ سَأَلَ النَّاسَ بِوَجْهِ اللَّهِ ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ هَجْراً » .

وللترمذي عن ابن عباس : « جاء سائل فقال له ابن عباس : أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ فقال : نعم .. قال : وتصوم رمضان ؟ قال : نعم . قال : سألت وللسائل حق ، إنه لحق علينا أن نصلك ، فأعطاه ثوباً ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا وكان في حفظ الله ما دام عليه منه خرقه » .

وللستة إلا النسائي عن رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ » . قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه » .

ولأبي داود عن أبي كريمة عن رسول الله ﷺ : « ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فَمَنْ أَصْبَحَ بِفَنَائِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ دَيْنٌ ، إِنْ شَاءَ اقْتَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ » .

وللترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : « أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فُكَاكِهِ مِنَ النَّارِ ، يَجْزِيءُ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنْهُ ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فُكَاكِهِ مِنَ النَّارِ ، يَجْزِيءُ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُمَا عَضْوًا مِنْهُ ، وَأَيُّمَا امْرَأَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقْتَ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فُكَاكِهَا مِنَ النَّارِ ، يَجْزِيءُ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهَا » (١) .

وللستة إلا أبا داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ . وَإِنْ

(١) حسن صحيح .

كانت ثمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوله (١) أو فصيله .

وللشيخين وللترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أنفق أنفق عليك » .

ولأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إياكم والشُّح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشُّح، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » .

وللشيخين والنسائى عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : « . . . وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المال هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » . . . أو كما قال ﷺ .

ولعل هذه النصوص عرّفتنا على حقيقة إتيان المال على حبنا له لأهله إذا أردنا أن نكون من المتقين .

﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧].

العهود نوعان : عهود مع الله عز وجل، وعهود مع خلقه، والعهود التى مع خلقه نوعان : عهود مع المسلمين، وعهود مع غير المسلمين، وهذا استعراض موجز لأهم أنواع العهود التى من التزم بها وأدّى حقها يكون قد تحقق بصفة من صفات المتقين :

(أ) أول عهد يطالب الإنسان بالوفاء به عهده مع الله عز وجل بالإقرار له بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يفى الإنسان بهذا العهد حتى يعتقد - علماً وعملاً - أن الله وحده له حق الأمر والنهى، والتحليل والتحریم، فعنه يتلقى، وله يطيع .

(١) الفلو: المهر الصغير، وقيل: هو العظيم من أولاد ذوات الحوافر.

ومتى أعطى المسلم حق الطاعة المطلقة، أو حق التشريع والتحليل والتحريم لأحد غيره - من هيئة، أو جماعة، أو فرد، أو مجلس - فقد نكث بعهد الله وميثاقه . يقول الله عزَّ وجلَّ عن أهل الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

قال عدى بن حاتم للرسول ﷺ : « إنهم لم يعبدوهم . . فقال ﷺ : « بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلَّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم » (١) .

فالذين يعطون حق التشريع المطلق لحزب أو مجلس نيابى أو ... أو ينتخبون رجلاً ليمثلهم وهو لا يرى أن حق التشريع لله، هؤلاء جميعاً ناكثون فى هذا العهد .

(ب) العهد الثانى هو الالتزام العملى والنظرى بالشريعة الإسلامية، يقول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧] . إنَّ المسلم كما وصفه الله عزَّ وجلَّ : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

فالمسلم إذن موقفه من الوحي السمع والطاعة، وهذا منه عهد وميثاق، فإذا انحرف أو عصى أو قصر فذلك نقض للميثاق . فمن أجل ذلك كانت التوبة، فالتوبة معناها الرجعة . . الرجعة إلى الدخول فى الميثاق والالتزام به بعد الخروج منه .

(ج) ويدخل فى الوفاء بالعهود الوفاء بالالتزامات العقدية التى يجريها الإنسان فى معاملاته اليومية، فى زواجه وبيعه وشرائه وشركته ومزارعته ما دامت عقودها جائزة شرعاً، أما إذا كانت هذه العقود غير جائزة شرعاً، فحرام عليه الوفاء

(١) قال ابن عبد البر فى « الاستيعاب » : قال الترمذى : قدم عدى بن حاتم على النبى ﷺ فى شعبان سنة عشر، وخبره فى قدومه على النبى ﷺ خبر عجيب فى حديث حسن صحيح :

والاستمرار فى تنفيذها، كعقد ربا مثلاً . وفى الحديث : « مَنْ اشترط شرطاً ليس فى كتاب الله فليس له وإن اشترط مائة شرط . شرط الله تعالى أحق وأوثق » (١) .

(د) ويدخل فى الوفاء بالعهد ببيعة الأمير الحق، أى الخليفة الراشد إذا كانت بيعته معتبرة شرعاً، فلا يبايع غيره : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » (٢) ، « مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يَرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ » (٣) .

وإطاع ولا يُعصى هو أو نوابه : « مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِى ، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِى » (٤) .

(هـ) ويدخل بالوفاء بالعهود وفاؤنا بعهودنا مع غير المسلمين سواء أكانوا محاربين . أو ذميين . أو معاهدين : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل : ٩١] .

« وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يُضْرَبُ بِرِهَا وَفَاجِرُهَا لَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي بِعَهْدِ ذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ » (٥) . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦] .

(١) رواه البزار فى مسنده والطبرانى كلاهما بسند إلى ابن عباس رضى الله عنه بلفظ : « كل شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل وإن كان مائة شرط » ورمز السيوطى لصحته . (٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « حكم مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مَجْتَمِعٌ » بسنده إلى عرفة واللفظ له ، وكذا النسائى فى كتاب « التحريم » ، وأبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى قتل الخوارج » بسندهما إلى عرفة رضى الله عنه .

(٤) رواه البخارى فى باب « فضل الجهاد والسير » باب « السمع والطاعة للإمام » . ومسلم فى كتاب « وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية » . والنسائى فى كتاب « البيعة » باب « الترغيب فى طاعة الإمام » . ثلاثهم بسندهم إلى أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه أحمد فى مسنده ، وابن ماجه فى المقدمة .

(٥) قطعة من حديث رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن » ، والنسائى فى كتاب « التحريم » باب « التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية » كلاهما بسنده إلى أبى هريرة .

(و) وهناك وهم موجود عند بعض طبقات الصوفية، منشؤه أن مشايخ الطرق الصوفية يأخذون على مرديهم ما يسمى بالعهد أو البيعة، وتُعطى لهم بشكل مطلق دون معرفة المضمون، فيتصور بعضهم أن هذه البيعة لها نفس أحكام بيعة الخلافة المعروفة في نظام الحكم . من وجوب الطاعة وحُرمة خلع اليد وهكذا . وينتج عن هذا فساد كبير، إذ بهذا التصور يصبح كل شيخ في العالم الإسلامي له حكم خليفة عند أتباعه نظرياً وعملياً . والحقيقة أن هذه البيعة في أصل نشأتها عند الصوفية كان القصد منها البيعة على تقوى الله، وكان أثناءها نظام الخلافة موجوداً على انحرافه، فكان واضحاً عند الصوفى الفارق بين بيعته لأمر المؤمنين، وعهده مع شيخه على تقوى الله، ولكن بمرور الزمن واندراس نظام الحكم الإسلامى، تغير الوضع . فكان لا بد من الإشارة لهذا الموضوع، وقد أفتى فقهاء المسلمين فى هذا الموضوع بما يلى :

« رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر، أى العهدين يلزمه ؟ . يقول : لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » (انتهى عن تنقيح الفتاوى الحامدي) .
وإذن لا يعتبر فقهاء المسلمين من العهود الملزمة بالالتزام بشيخ ومعهده .
نعم . . ما دعانا إليه الشيخ مما هو من الكتاب والسنة فالتزامنا به التزام بالكتاب والسنة .

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الضحَّاك : البأساء : الفقر، والضراء : المرض، وحين البأس : القتال، فالتقى صابر حال فقره، صابر حال مرضه، صابر أثناء القتال، وإنه لمبتلى بهذا :
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾
[البقرة: ١٥٥-١٥٧]

وإنَّ الذى لا يصبر مكانه فى التقوى الأقل، لأنَّ الصبر نصف الإيمان، وهذه أمثلة على صبر السلف الأول :

١- الصبر على الفقر :

(أ) أخرج مسلم عن عتبة بن غزوان رضى الله عنه قال : « لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الحبلة ^(١) حتى قرحت أشداقنا » .

(ب) أخرج الترمذى وصحَّحه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم الشعير » .
(ج) وأخرج مسلم عن عمر : « لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى من الجوع ما يجد من الدقل ^(٢) ما يملأ به بطنه » .

(د) أخرج الترمذى عن أبى طلحة : « شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين » .

(هـ) وأخرج الترمذى عن فضالة بن عبيد قال : « كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخبر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى تقول الأعراب : هؤلاء مجانين . فإذا صلى انصرف إليهم فقال : « لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزادوا فقراً وحاجة » .

(و) وعن على رضى الله عنه : « بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بُردة مرقعة بفرو، فلما رآه ﷺ بكى للذى كان فيه من النعمة » ^(٣) .

(ز) وعن على رضى الله عنه قال : « لقد خرجتُ من بيتى شات وإنى

(١) الحبلة : ثمر السمرة، وقيل : هى ثمرة تشبه اللوبياء .

(٢) الدقل : ردئ التمر .

(٣) أخرجه الترمذى .

لشديد الجوع ألتمس شيئاً، فمررت بيهودى فى مال له يسقى ببكرة فاطلعت عليه من ثلثة الحائط فقال : ما لك يا أعرابى . . هل لك فى دلو بتمرة ؟ قلت : نعم، فافتح الباب حتى أدخل، فدخلت فأعطانى دلوفا فكلما نزعته دلوفاً أعطانى تمرة حتى إذا امتلأت كفى أرسلتُ دلوه وقلت : حسبى، فأكلتها ثم جرعت من الماء ثم جئت المسجد .

٢- الصبر على المرض والبلاء :

(أ) أخرج مالك عن عطاء بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد بعث الله تعالى مَلَكَيْنِ فقال : انظروا ماذا يقول لعواده، فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعنا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته . »

(ب) أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليُتِمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون . »

(ج) وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال : « دخلتُ على النبى ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً قال : « إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » ، قلت : ذلك أن لك أجريين، قال : « أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجر ورقها » (١) .

(١) متفق عليه.

٣- الصبر فى مواطن القتال :

(أ) عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر- رضى الله عنه عن قتال بدر فقال : غبتُ عن أول قتال النبى ﷺ المشركين، لئن أشهدنى الله مع النبى ﷺ قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعنى المسلمين- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعنى المشركين- ثم تقدّم بسيفه فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع ثم تقدّم، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم، ووجدناه وقد مثّل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه، قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ۖ ﴾ ^(١) [الأحزاب: ٢٣].

(ب) عن أبى موسى قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتقبه، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماى وسقطت أظفارى، فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا » ^(٢) .

(ج) عن ابن عمر رضى الله عنه قال : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فى غزوة « مؤتة » زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرُ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ . قال عبد الله : كنتُ فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه فوجدناه فى القتلى، ووجدنا فيما أقبل من جسده بضعا وتسعين ما بين رمية وطعنة. زاد فى رواية : « ليس فيها شىء فى دبره » ^(٣) . وعن قيس بن أبى حازم قال : سمعتُ خالدًا يقول : « لقد انقطع فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية » ^(٤) .

(٢) أخرجه الشيخان .

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .

(٤) أخرجه البخارى .

(٣) أخرجه البخارى .

وبشكل مطلق : الصبر صفة من صفات المتقين .

● يصبرون على الإسلام ويثبتون عليه ولو انحرف الناس . .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
« والذى نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء
الجوار، وقطيعة الأرحام، وحتى يُخَوَّن الأمين، ويُؤْتَمَن الخائن » . قيل : يا رسول
الله، كيف المؤمن يومئذ ؟ قال : « كالنحلة وقعت فلم تفسد، وأكلت ولم
تكسر، ووضعت طيباً، ومثل المؤمن كمثل قطعة الذهب الأحمر دخلت النار
فنفخَ عليها فلم تتغير ووُزِنَتْ فلم تنقص » (١) .

وسأل أبو ثعلبة الخشني رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال :
« بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً
ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه . فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإنَّ
من ورائكم أياماً الصابر فيها كالقابض على الجمر، للعامل فيهنَّ مثل أجر خمسين
رجلاً يعملون بعملكم » (٢) .

● ويصبرون على الأمر الأول مهما افتتن الناس كما أوصى رسول الله ﷺ .

روى الطبراني في « الأوسط » و « الكبير » من حديث أبي واقد الليثي أن
رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه يوماً : « إنها ستكون فتنة » ، فقالوا : كيف لنا
يا رسول الله وكيف نصنع ؟ قال : « ترجعون إلى أمركم الأول » .
فيبقون مظاهر للسنة النبوية على صعوبة الاستمساك طمعاً في ثواب الله
وخوفاً من عقابه . .

(١) رواه البزار والحاكم وصححه .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

وروى الترمذى الحكيم فى « نواذر الأصول » عن رسول الله ﷺ : « يأتى على الناس زمان المتمسك بسُنَّتِي عند اختلاف أمتى كالقابض على الجمر » .
وروى الطبرانى من حديث عتبة بن غزوان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ من ورائكم أيام الصبر، المتمسك فيها يومئذ بمثل ما أنتم عليه له كأجر خمسين منكم » .

● لا يبالون بما يصيبهم من حرمان الدنيا من أجل « لا إله إلا الله » . .

روى البزار من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن قائلها ما بالى قائلوها ما أصابهم فى دنياهم إذا سلم لهم دينهم، فإذا لم يبال قائلوها ما أصابهم فى دينهم بسلامة دنياهم فقالوا : لا إله إلا الله، قيل لهم : كذبتُم » .

وروى أبو نعيم فى « الحلية » من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا العطاء ما دام عطاءً، فإذا صار رشوة عن الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم من ذلك الفقر والحاجة، ألا إن رحا الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : يا رسول الله، كيف نصنع ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام، نُشِرُوا بالمناشير وحُمِلُوا على الخُشْبِ . . موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله » .

● ويصبرون على فقد الأهل والولد . .

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رأيتُ إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عيننا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . . والله يا إبراهيم إِنَّا بِكَ لَحَزُونُونَ » .

وروى البخارى عن أنس قال : « كان ابن لأبى طلحة رضى الله عنه يشتكى ، فخرج أبو طلحة فقبض الصبى ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبى ، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله فأخبره فقال : « أعرستم الليلة » ؟ قال : نعم ، قال : « اللهم بارك لهما » فولدت غلاماً قال لى أبو طلحة : أحمله حتى تأتى به النبى ﷺ ، فأتى به النبى ﷺ وأرسلت معه بتمرات فأخذه النبى فقال : « أمعه شيء » ؟ قالوا : نعم . . تمرات ، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذ من فيه فجعلها فى فمى الصبى وحنكه به وسماه عبد الله .

وفى رواية أخرى عنه : فقال رسول الله ﷺ : « لعل الله أن يبارك لهما فى ليلتهما » . قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : « فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن » .

ولما قُتل حمزة يوم أحد ، جاءت أخته صفية لتنظر إليه ، فلقبها الزبير فقال : « أى أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمر أن ترجعى ، قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أنه مثل بأخى وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله . فجاء الزبير فأخبره فقال : « خل سبيلها » فأنت إليه واستغفرت له ثم أمر به فدفن (١) .

هذه نماذج من صبر المتقين ولا تُنال حقيقة التقوى إلا بالصبر كما صبروا .

وحسب هذا التعريف فإننا لا نكون متقين إلا إذا كنا :

(أ) مؤمنين بالغيب .

(ب) منفقين على رغم محبتنا للمال على من ذكر الله تعالى من ذوى

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب .

(١) انظر الجزء الثالث من سيرة ابن إسحاق ص ١٠٣ .

(ج) مقيمى الصلاة .

(د) مؤتى الزكاة .

(هـ) موفى بعهد الله إذا عاهدنا .

(و) صابرى فى البأساء والضراء وحن البأس .

عندئذ نكون صادقى فى إسلامنا ومتقى .

(ج) التعرىف الثالث :

﴿ قُلْ أُوْٓبِئْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥].

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[آل عمران: ١٦].

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

[آل عمران: ١٧].

وهذا التعرىف داخل فىما قبله إلا أنه كما قلنا فى التعرىف الثانى : يظهر بعض السمات المهمة للمتقى بشكل خاص، وسنحاول أن نوضح هذه السمات التى لم ىرد لها شرح فىما مضى .

ىبدأ التعرىف بذكر قول المؤمنى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقد مر معنا الإىمان فنكتفى به، ثم : ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ١٦]، إذن من صفات المتقى أنهم ىستغفرون الله عما فرط منهم من ذنب، والله عز وجل يحبهم لذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ومهما كان المسلم أكثر تقوى كان أكثر استغفاراً لله، وأكثر إحساساً

بالذنب، وقد مرَّ معنا الحديث الذى يذكر أنه كان يُسمع من رسول الله ﷺ فى الجلسة الواحدة مائة مرة : « رَبِّ اغفر لى وتب علىَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ، وقد حَضَّ الرسول ﷺ المسلمين على التوبة :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « واللّه إننى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وروى مسلم عن الأغربن يسار المزنى قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » . ثم يأتى بعد : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

وإذن من صفات المتقين أنهم يخافون النار، ويطلبون من الله عزَّ وجلَّ الخلاص منها، وقد علمنا القرآن أن نقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وجعل رسول الله ﷺ من الأوراد اليومية للمسلم الاستعاذة من النار وما قبلها من محن اليوم الآخر وعالم البرزخ، ومن تتبع ما ورد فى الأذكار المطلقة، والاستعاذات . رأى الآثار الكثيرة فى هذا الموضوع الذى ينبغى أن يكون الهم الأول للإنسان .

ويأتى بعد ذلك ذكرهم بصفة : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقد مرَّ معنا، وبعد الصبر يأتى الصدق : ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧] .
الصدق صدقان : صدق مع الله، وصدق باللسان .

وصدق اللسان معروف وفيه يقول رسول الله ﷺ : « والصدق يهْدَى إلى البر، وإنَّ البر يهْدَى إلى الجنة، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً، وإنَّ الكذب يهْدَى إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهْدَى إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً » (١) .

(١) رواه الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه .

والصدق مع الله مظهره : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فمن قُتِلَ في سبيل الله، أو تمنى أن يُقتل منتظراً دوره فهو الصادق، وفي الأخير يقول رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ » (١) .

وقد وصف الله الصادقين معه في آية أخرى من القرآن :
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، فلا صدق مع الله إلا إذا وُجِدَ إيمان وجهاد وتقوى، ولعلك تذكرت أن التعريف الثاني من تعاريف المتقين خُتِمَ بما يلي : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وبعد الصدق يأتي القنوت : ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧]، والقنوت هو الطاعة مع الخضوع .

وبعد القنوت يأتي الإنفاق : ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقد مرَّ معنا .

وأخيراً : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، والسحر هو الوقت الذي يكون قبيل الفجر، وفيه إشارة إلى أن المسلم التقى يكون قبل الفجر مستيقظاً . وقد ورد أن وقت ما قبل الفجر وقت استجابة دعاء، ووقت غفران ذنب لمن استغفر . ففي الحديث الصحيح : « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » .

(١) رواه الترمذی والنسائی والحاكم عن سهل بن حنيف .

وسُئِلَ رسول الله ﷺ : أى الليل أفضل؟ فقال: « نصف الليل الغابر »^(١).
يعنى الباقي.

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فى تهجده - والتهجد هو القيام بعد النوم - :
« اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات
والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت
الحق، ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنشور حق، والنبيون
حق، ومحمد ﷺ حق. اللَّهُمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ. وعليك توكلتُ، وإليك
أنبتُ. وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لى ما قدّمتُ وأخّرتُ، وما أسررتُ
وما أعلنتُ وأسرفتُ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

وكان عبد الله بن عمر يُصلّى من الليل ثم يقول : يا نافع، هل جاء السحر؟
فإذا قال : نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يُصبح .

وقد فسّر مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل استغفارهم بالسحر بأنهم
يصلون تهجداً لأنّ فى الصلاة معنى طلب المغفرة . فما ينبغي لتقى أن يكون
نائماً قبل الفجر : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨].

(د) التعريف الرابع :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ * الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا

(١) رواه ابن ماجه بسنده إلى عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ
فقلت : يا رسول الله، مَنْ أسلم معك؟ قال : « حر وعبد » . قلت : هل من ساعة أقرب إلى الله من
أخرى؟ قال : « نعم، جوف الليل الأوسط » . قال ابن ماجه : فلذلك كانوا يستحبون صلاة آخر الليل
على أوله . والحديث أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبى ذر دون قوله : « الغابر » وهذه الإضافة
فى بعض طرق حديث عمرو بن عبسة .

عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٣﴾

[آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

١ - ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقد مرَّ

معنا الإنفاق، وهنا معنى زائد وهو أن إنفاقهم في كل حال سواء أكانوا معسرين أو موسرين، والدرهم في حالة العُسر أفضل عند الله من كثير، وفي الحديث : « سبق درهم مائة ألف درهم » ، قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « كان لرجل درهمان فتصدق بأحدهما، وانطلق آخر إلى عرض ماله فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها » (١) .

٢ - ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] : الكظم هو الإمساك،

والغيظ هو الغضب، ومن صفات الأنبياء أنهم ضابطون أنفسهم في كل حال ابتغاء وجه الله، روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى » (٢) .

وقد اعتبر رسول الله ﷺ مقياس القوة كظم الغيظ يقول : « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (٣) .

وجعل الله على كظم الغيظ الأجر الكبير، قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَى حُورِ الْعَيْنِ شَاءَ » (٤) .

وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ ما يعيننا على كظم الغيظ :

(١) رواه النسائي بسنده إلى أبي ذر، وابن حبان والحاكم والنسائي بطريق آخر عن أبي هريرة، وقال الحاكم : على شرط مسلم، ورمز السيوطي لصحته .

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر، ورمز السيوطي لحسنه .

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٤) رواه أبو داود والترمذي من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً بلفظ قريب، وقال الترمذي :

حسن .

(أ) عن أبي وائل قال : دخلنا على عروة بن محمد السعدى، فكلّمه رجل فأغضبه، فقام فتوضأ فقال : حدّثنى أبى عن جدى عطية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلِقَ من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » (١) .

(ب) وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » (٢) .

(ج) وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : استب رجلان عند النبى ﷺ حتى عرف الغضب فى وجه أحدهما، فقال النبى ﷺ : « إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (٣) .

ولأهمية هذا الموضوع كان الرسول ﷺ يفرده بالوصية :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إِنَّ رجلاً قال : يا رسول الله، أوصنى ولا تُكثر على لعلى لا أنسى قال : « لا تغضب » (٤) .

٣- ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] : أى من صفات المتقين أنهم يعفون عمن ظلمهم، والآية الأخرى تقول : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى سيرته على هذا الخلق وكل خلق .

عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كنتُ أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثّرت بها حاشية البُرد من شدة جذبته ثم قال : يا محمد، مُر لى من مال الله الذى عندك، فالتفتُ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » (٥) .

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى .

(٤) أخرجه البخارى ومالك والترمذى .

(٥) متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : كَأْنَى أَنْظِرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ :
« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (١) .

والعفو قوة . . عن أبى هريرة رضى الله عنه أَنَّ رجلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
إِنَّ لى قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونى ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَيَسِيئُونَ إِلِىَّ ، وَأَحْلَمَ عَنْهُمْ
وَيَجْهَلُونَ عَلِىَّ . فَقَالَ : « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّهُمَا تَسْفَهُمُ الْمَلَّ ، وَلَا يَزَالُ
مَعَكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » (٢) .

وروى مسلم : « مَا نَقَصْتَ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا
وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » .

ولا زالت مكارم الأخلاق كلها مجموعة بهذا النص : « أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ
ظَلَمَكَ ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ » .

٤- ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] : وَالْمُحْسِنُونَ مَنْ أَحْسَنُوا
مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَمَعَ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْمَعَامَلَةِ ، وَالْإِحْسَانُ فِي الْعِبَادَةِ هُوَ مَا عُرِفَ
فِي الْحَدِيثِ : « قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ؟ قَالَ : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ،
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٣) .

وَلَا يُحْصَلُ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَقَامَ إِلَّا بِدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَالْإِحْسَانُ فِي الْمَعَامَلَةِ
إِلْتِمَامُ أَدَبِ الشَّرِيعَةِ فِي ذَلِكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ : بَيْعًا وَشِرَاءً ، زَوَاجًا وَطَلَاقًا . . . مَعَ
الْمُسْلِمِ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِ ، مَعَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ .

« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا
ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ . وَلِيُحَدِّثَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلِيُرِجَ ذَبِيحَتَهُ » .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « البر » باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » بسنده إلى أبى هريرة .

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وعن ابن عمر وقد مرَّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: مَنْ فعل هذا؟ لعن الله مَنْ فعل هذا. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لعن مَنْ اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً.

« رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (١).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والفاحشة: القبيحة، وكل شيء جاوز قدره فهو فاحش، والمراد بها هنا والله أعلم: كل كبيرة.

والظلم للنفس هو ارتكابها المنكرات، وقيل: المقصود به هنا الصغائر.

﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]: إما أنهم ذكروه بلسانهم، أو ذكروا عرضهم عليه، أو سألوه لهم، أو وعيده على ما أتوا، أو نهيه عما أتوا، أو غفران الله لمن استغفر بعد ذنب.

والإصرار المقصود به الثبوت على الذنب من غير استغفار، أما مَنْ كان يتوب كلما وقع ذنباً بشروط التوبة فإنه لا يعتبر مُصِرّاً ولو عاد إلى الذنب نفسه. ففي الحديث: « ما أَصْرَ مَنْ استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » (٢). وشروط التوبة كما ذكرها النووي ما يلي نعيدها للعة:

قال: « قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين

(١) رواه البخاري في كتاب « البيوع » باب « السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف ». وابن ماجه في كتاب « التجارات » باب « السماحة في البيع »، كلاهما بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي بكر مرفوعاً، وقال الترمذي: غريب وليس إسناده عندى بالقوى، لكن له شاهد عند الطبراني في الدعاء عن ابن عباس.

العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط، أحدها : أن يقلع عن المعصية، والثاني : أن يندم على فعلها، والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً . فإن فقد أحد الثلاثة، لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه . وإن كان حد قذف ونحوه مكّنه منه، أو طلب عفوه . وإن كانت غيبة استحله منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة » . . (انتهى) .

وإن الإصرار على الذنب يجعل الصغيرة كبيرة، إذ لا ذنب مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، فمن تحقق بما مرّ : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٣٦] .

(هـ) التعريف الخامس :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩] .

١ - ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء: ٤٩] : إن الله لم يحب للمسلم أن يرهب سواه أو يخشاه . يقول عز وجلّ : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَإِذَا يَافِيَاهُ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١] ، فهو وحده الذى يستحق أن يرهب ويخاف، ومن خاف غيره فإنما هو لجهله بالله . فإن الله بيده ملكوت السموات والأرض، بيده الموت والحياة، والرزق، والقبض، والبسط، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وفى الحديث : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » (١) .

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ابن عباس وقال : حسن صحيح .

وفي الآية : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

فالمسلم خوفه كله من الله، ولا نجد مسلماً يخشى غير الله وهو في حالة إيمانية سليمة . يقول الله عز وجل :

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣] ، فإذا كان إيمان فالله أحق أن يُخشى ، ولذلك ولأن الرسل أعرف الخلق بالله فإنه قد تمحصت قلوبهم ، فليس فيها خشية إلا من الله . وفي ذلك تقول الآية : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

وقد وصف رسول الله ﷺ نفسه فقال : « والله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ^(١) ، فالخشية منه جلّ جلاله على قدر العلم به وبصفاته وبأفعاله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

فمن عرف صفات الجمال لله أحبه ورجاه ، ومن عرف صفات الجلال له عز وجل خشيه وهابه ، وكيف لا يرهّب عز وجل وهو العزيز الجبار المنتقم المتكبر المهيمن القهار : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

وميزان الخشية من الله كتاب الله . يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ ^(٢) تقشع من جلود الذين يخشون ربهم ﴿ [الزمر: ٢٣] ، ويقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

(١) قطعة من حديث رواه البخاري في كتاب «الأدب» باب «من لم يواجه الناس بالعتاب»، ومسلم في كتاب «الفضائل»، كلاهما بسنده إلى عائشة رضی الله عنها .

(٢) مثاني : مكرراً فيه الأحكام والمواعظ وغيرهما .

﴿مُتَّصِدِعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال : ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، فَمَنْ كَانَ كذلك فقد حصلت له خشية الله، وإلا فإن معرفته بالله قليلة، وقلبه مريض، والدواء لهذا وهذا المداومة على قراءة كتاب الله، فإنه كما قال الله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فهو شفاء الجهل بالله، وشفاء القلب من أمراضه، وهذا هو الطريق، يقول أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي : « لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلاً، ولا تروى غليلاً، ورأيتُ أقرب الطرق القرآن . . . » -إلى أن يقول : « وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي » ، والعلماء متفقون على أنَّ القرآن طريق كامل إلى الله، فالزم سلوك هذا الطريق تصل إلى خشية الله لتنال فضله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

يقول عليه السلام : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » ^(١) .
وذكر مع السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة : « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ^(٢) .

وقال : « ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين : قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى » ^(٣) .

(١) رواه الترمذی .

(٢) قطعة من حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة .

(٣) رواه الترمذی عن أبي أمامة .

٢- ﴿ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩]

(أ) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ (١) مِّنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَآمَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ١٧-٢٨].

(ب) عن أنس رضى الله عنه قال: « خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قط فقال: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين » (٢).

(ج) وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يُقَلِّبُ يده: لقد رأيتُ أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثاً صُفْراً غُبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سُجَّداً وقياماً يتلون كتاب الله، يراحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم.

(د) أخرج أبو نعيم عن أبى صالح قال: دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له: صف لى علياً؟ فقال: أو تعفينى يا أمير المؤمنين، قال: لا أعفيك، قال: أما إذ لا بد فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول

(١) ألتناهم: نقصناهم.

(٢) متفق عليه، والخنين هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف.

فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يُقَلِّبُ كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قَصُرَ، ومن الطعام ما جَشُبَ . كان والله كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه . ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقُربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم . يُعْظَمُ أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله، ولا يئس الضعيف من عدله . . فأشهد بالله لقد رأيتَه فى بعض مواقفه وقد أَرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل فى محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى أسمعُه الآن وهو يقول : يا ربنا - يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا : « إلیَّ تغررتِ ؟ أم إلیَّ تشوفتِ ؟ هيهات هيهات غرّی غیری، قد بتتك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرک يسير، آه آه من قِلَّة الزاد، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق » . فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء فقال : كذا كان أبو الحسن رضى الله عنه، كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من دُبِحَ واحداً فى حجرها لا ترفأ دمعته، ولا يسكن حزنها . ثم قام فخرج .

هذا هو الوضع السليم للمسلم فى إشفاقه من الساعة، ومتى حصلت للمسلم خشية الله، والإشفاق من الساعة فقد أصبح لديه الوازع الكامل للعمل بالإسلام كله، وترك ما عداه . وعندئذ تتحقق التقوى بشكلها الكامل، ولا تقوى بلا خوف من الله، وإشفاق من الساعة، إذ أن التقوى عمادها هذان .

ولا ننسى ما مرَّ معنا فى بحث الرجاء : ﴿ لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فإنَّ خوف الله لا يجوز أن يصل إلى درجة القنوط، إذ الأمن من الله جهل به، والقنوط من رحمته جهل به : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] ، ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وأخيراً نقول : لا يتم الإشفاق من الساعة إلا بتذكر دائم لها ولما بعدها، ومحاسبة للنفس دائمة على ما قدمنا .

(و) التعريف السادس للمتقين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

١ - ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٦]، مر معنا الإحسان في التعريف الرابع، وفي بداية هذا الكتاب .

٢ - ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

(أ) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر ^(١) قدماه، فقلتُ له لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ^(٢) .

(ب) وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « نِعَمَ الرجل عبد الله لو كان يُصَلِّي من الليل » . قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً ^(٣) .

(ج) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « صَلَّيْتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت : يركع عند المائة فمضى . فقلت : يصلى بها فى ركعة فمضى، فقلت : يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلاً . إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ . ثم ركع فجعل يقول : « سبحان ربى العظيم » ، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال : « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » ، ثم قام طويلاً قريباً مما

(١) تتفطر: تتشقق.

(٢) متفق عليه

(٣) رواه البخارى عن حفصة أم المؤمنين.

ركع، ثم سجد فقال : « سبحان ربي الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه^(١).

هذا هو الحال الأكمل للمتقين في قيامهم من الليل وتهجدهم، وإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق الحد الأعلى فليحقق الأدنى :

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلِّياً أو صلَّى ركعتين جميعاً كُتِبَ في الذَّاكِرِينَ والذَّاكِرَاتِ »^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نام عن حِزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنما قرأه من الليل »^(٣).

أما ألا يكون للمسلم شيء من ليله فذلك هجران .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح ! قال : « ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه » ، أو قال : « في أذنه »^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَدٍ يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلَّى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »^(٥).

٣- ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وفي ذكر قيام الليل والاستغفار بالأسحار إشارة إلى أن التقى كونه يقوم الليل لا يُفَرِّط في السَّحَر، أو يُضَيِّع صلاة فجر، أو يكون نائماً أثناء ذلك .

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(١) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

٤- ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩]، مَرَّبْنَا بحث الإنفاق، وفي هذا النص تأكيد على إعطاء السائل، وإعطاء المحروم، وصور الحرمان كثيرة .

بانتهاء استعراض معانى التعريف السابق، نكون قد استعرضنا ست تعريفات للمتقين، وهناك تعريفات ترد بشكل آخر، نؤثر أن نشير إلى واحد منها:
قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

ونفهم من مجموع الآيتين أن عباد الله : المتقون، فإن هؤلاء المتقين لا سلطان للشيطان عليهم . إذ أن العبودية لله التى هى أشرف مقامات الإنسان تتمثل بالتقوى، إن الله عزَّ وجلَّ وصف رسوله بأشرف الصفات، ومما وصفه به عبوديته لله فى كثير من الآيات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . . ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الإسراء: ١] . . . وقد مرَّ معنا قوله عليه السلام : « والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له » ، لهذا الرباط ما بين العبودية والتقوى نؤثر أن نتحدث عن صفات عباد الله لتتمحصر ذواتنا لله، ولنفى بعهدنا لله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [يس: ٦٠]، ولا يتخلص الإنسان من عبودية الشيطان حتى يخرج من سلطانه، بأن يكون من عباد الله، وبأن يكون من المتقين كما رأينا فى الآيتين المذكورتين فى مقدمة هذا الكلام . ونؤثر أن نبداً المسألة من بدايتها الأولى :

(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ ^(١) مِّنْ حَمَإٍ ^(٢) ﴾

(١) صلصال: طين يابس كالْفَخَار . (٢) حمأ: طين أسود متغير .

مَسْنُونٌ (١) * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿١﴾ [الحجر: ٢٨-٤٤].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (٢) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَاسْتَغْفِرْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ (٣) وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

(٢)

إِذْ عِبَادُ اللَّهِ وَحْدَهُمُ هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّصُوا مِنْ سَيِّطَرَةِ الشَّيْطَانِ وَأَسَالِيبِ خِدَاعِهِ، فَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْعِبَادُ؟ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا

(١) مسنون: مصور صورة إنسان أجوف.

(٢) لأحتنكن ذريته: لأستولين عليهم، أو لأستأصلنهم بالإغواء.

(٣) بخيلك ورجلك: بكل راكب وماشى فى معاصى الله.

بَيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿ [الزخرف: ٦٨-٦٩] ، فهذا تعريف لعباد الله : أنهم مؤمنون بآيات الله كلها، سواء في ذلك معجزات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، أو كتاب الله، وهو معجزة، أو آياته في السموات والأرض مع استسلامهم له عز وجل استسلاماً مطلقاً كاملاً بدون احتراز أو احتباس أو شك أو تردد، ويظهر هذا الاستسلام باستسلامهم لنصوص شريعته التي بعث بها أنبياءه الذين خُتموا بمحمد ﷺ ، فأصبح الاستسلام له متمثلاً باتباع شريعته ﷺ . فمن لم يستسلم لنصوص الشريعة القطعية الصحيحة استسلاماً مطلقاً فليس ممن دخلوا تحت الآية : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] .

(ب) ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ! الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] ، التعريف الأول لعباد الله ذكر أنهم مؤمنون ومستسلمون لله . والتعريف الثاني ذكر أنهم دائماً يعملون بما أنزل إليهم من وحى ويتبعون الأفضل منه : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣] ، فهم يحاولون أن يكونوا متحققين بذروة الإسلام لا بالحد الأدنى منه .

(ج) ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠] .

زاد هذا التعريف أنهم مع علمهم وإيمانهم، فإنهم يعتمدون على الله وحده، ويتوكلون عليه في أمر دنياهم وآخرهم : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] .

(د) ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ^(١) * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِينَاتٍ * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ^(٢) بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَبِّكُمْ لَزَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

١ - ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

[الفرقان: ٦٣].

قال ابن كثير: «وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم - ﷺ - إذا مشى كأنما ينحط من صبيب، وكأنما الأرض تطوى له، قال: وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع. قال: وإنما المراد بـ «الهون» هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فاتموا» ^(٣)»

ويوضح كلمة «الهون» ما ورد عن علي رضي الله عنه: «أحب

(١) غراماً: لازماً محتداً.

(٢) الغرفة: أعلى منازل الجنة.

(٣) متفق عليه.

حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغضبك يوماً ما، وبغض بغضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» ^(١)، والمعنى : أحب حبيبك مقتصدًا لا إفراط فيه، أى لا تُسرف فى الحب والبغض . وإذن فكلمة « الهون » تعطينا معنى الاعتدال .

وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن مشية ناس فقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨-١٩] .

فإذن مشية المسلم قصد لا اختيال فيها ولا بطر ولا كبر، كما أنه لا موت فيها ولا ضعف . وكان عمر إذا مشى أسرع، وأجود مشية تجمع بين هذا وهذا هى مشية رسول الله ﷺ : « كأنما ينحط من صيب » ^(٢) . فهذه مشية تنفى الاختيال والضعف .

٢- ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

روى الإمام أحمد فى المسند (٤٤٥ / ٥) عن النعمان بن مقرن قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجلٌ رجلاً عنده قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام، قال : قال رسول الله ﷺ : « أما إنَّ مَلَكًا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له : بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قال له : عليك السلام قال : لا بل لك أنت، وأنت حق به . . قال ابن كثير : وإسناده حسن .

وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما قدم عيينة ابن حصن نزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر،

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد عن على موقوفًا .

(٢) رواه الترمذى عن على .

كَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسٍ عَمَرَ وَمَشَاوَرَتَهُ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا . فَقَالَ عِيْنَةُ :
يَا بْنَ أَخِي ، اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاسْتَأْذِنْ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : هِيَ
يَا بْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تَعْطِينَا الْجَزَلَ ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ . فَغَضِبَ عَمْرٌ
حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوَقِّعَ بِهِ ، فَقَالَ الْحَرُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ :
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، وَإِنَّ
هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عَمْرٌ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ
اللَّهِ تَعَالَى .

قال الحسن فى تفسير الآية : لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم
حلّموا .

وقال مقاتل بن حيان : « قالوا سلاماً » : أى قولاً يسلمون فيه من الإثم .
وقال ابن الجوزى : قالوا سلاماً : أى سداداً .

وقد وصف الله عز وجل قومًا مادحًا لهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا
عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾
[القصص: ٥٥] ، وفى معنى « لا نبتغى الجاهلين » ثلاثة أقوال ، أحدها :
لا نبتغى دين الجاهلين ، والثانى : لا نطلب مجاورتهم . والثالث : لا نريد أن
نكون جُهالاً .

٣- ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٤] ، مرّ مثلها
فى التعريف الخامس عند : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾
[الذاريات: ١٧] .

٤- ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦] ، مرّ معناها فى
التعريف الثالث عند : ﴿ وَقْنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] ، ومعنى -
غراماً : دائماً ، أو موجعاً ، أو ملماً ، أو هلاكاً ، أو أشد العذاب .

٥- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] ، القوام بفتح القاف - الاستقامة والعدل ، وبكسرهما : ما يدوم عليه الأمر ويستقر .

قال ابن جرير الطبري في شرح الآية : « والصواب من القول في ذلك قول من قال : الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه ، والإقتار ما قصر عما أمر الله به ، والقوام بين ذلك ، وإنما قلنا إن ذلك كذلك لأن المسرف والمقتتر كذلك ، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصاً فيهما ما كانا مذمومين ولا كان المسرف ولا المقتتر مذموماً ، لأن ما أذن الله في فعله فغير مستحق فاعله الذم » (انتهى) .

ومن كلام عمر : « كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى » .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جرير : الإسراف : الإنفاق في معصية الله وإن قلَّ ، والإقتار : منع حق الله .

ولعل الإسراف والإقتار نسيان ، فشيء يفعله غنى وهو مباح لو فعل مثله الفقير قد يكون إسرافاً لما يترتب على فعل الفقير من تفريط في ما يجب عليه لو فعل مثل الغنى ، وكذلك في إقتار الفقر والغنى .

٦- ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١] .

الأثام : فسرها ابن عباس بالجزاء ، وفسرها مجاهد وعكرمة بأنها واد في جهنم ، وفسرها ابن قتبية : بأنها العقوبة . . وفي الآيات أحاديث تفسرها :

(أ) روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ :

أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن ترانى حليمة جارك » فأنزل الله تصديقها : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... ﴾ [الفرقان: ٦٨].

(ب) وروى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا كذا كذا، وعملتَ يوم كذا وكذا كذا كذا فيقول : نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له : فإنَّ لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول : رَبِّ قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا » ، فلقد رأيتُ رسولُ الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه .

٧- ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

فى معنى الزور أقوال : الغناء، أو الشرك، أو اللعب، أو الكذب، أو شهادة الزور، أو أعياد المشركين، أو مجالس الخنا .

وقال ابن جرير الطبرى : « وأصل الزور : تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته حتى يخیل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل فى ذلك، لأنه مُحسَّن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق وهو باطل، ويدخل فيه الغناء لأنه أيضاً مما يُحسَّن ترجيع الصوت حتى يستحلى سامعه سماعه، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما قد يدخل فى معنى الزور، قال : فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب فى تأويله أن يقال : والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً، ولا غناءً، ولا كذباً ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأنَّ الله عَمَّ فى وصفه إياهم : لا يشهدون الزور، فلا ينبغى أن يُخص من ذلك شىء إلا بحُجَّة يجب التسليم لها من خبر وعقل » (انتهى) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله ،
وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور »
فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

٨- ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُوِّ مَرَّوًا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وفى معنى اللغو أقوال: المعاصى، أو أذى المشركين إياهم، أو الباطل، أو الشرك،
أو ذكر ما له علاقة بالنكاح صراحة .

وقال ابن جرير الطبرى : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب عندى أن
يقال : إنَّ الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مَرَّوًا
كراماً . واللغو فى كلام العرب هو كل كلام، أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل،
أو ما يُستقبح . فسب الإنسان الإنسانَ بالباطل الذى لا حقيقة له من اللغو، وذكر
النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح فى بعض الأماكن فهو من اللغو، وكذلك تعظيم
المشركين ألهمتهم من الباطل الذى لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه،
وسماع الغناء مما هو مستقبح فى أهل الدين، فكل ذلك يدخل فى معنى اللغو .
فلا وجه إذا كان ذلك يلزمه اسم اللغو أن يقال : « عنى به بعض » ، إذا لم يكن
لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل » (انتهى) .

وفى معنى : ﴿ مَرَّوًا كِرَامًا ﴾ أقوال، أحدها : مروا حلماء، والثانى : مروا
معرضين عنه . قال مقاتل : والثالث : أن المعنى : إذا مروا باللغو جاوزوه - قاله
الفراء .

وقد مرَّت معنا الآية : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا
أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

٩- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾
[الفرقان: ٧٣].

معنى « ذُكِّرُوا » : وَعُظُوا . بـ « آيات ربهم » : القرآن . « صمًا وعميانًا » قال ابن قتيبة : لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها، عمى لم يروها . وقال غيره فى معنى الآية : لم يثبتوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوا ولم يروا، وإن لم يكونوا خروا حقيقة . تقول العرب : شتمتُ فلانًا فقام يبكى، وقعد يندب، وأقبل يعتذر، وظل يتحير، وإن لم يكن قام ولا قعد .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فكان علامة الإيمان الانتفاع بالذكرى، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] فدُلَّ على أن الذى يتذكره هو الذى يخشى وعيد الله، وهو المؤمن بالآخرة . وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، أما مَنْ لم يتذكر فهو إنسان لا قلب له، أو غافل، وقال : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] فهذا هو الموقف الصحيح من كتاب الله وسماع آياته .

١٠- ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ومعنى الآية : هب لنا من الأزواج والذرية مَنْ يعمل بطاعتك، فتقربه أعيننا فى الدنيا والآخرة . وسئل الحسن عن قوله : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ قال : لا بل فى الدنيا، وأى شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يطيعون الله، والله ما طلب القوم إلا أن يُطاع الله فتقر أعينهم .

وأصل القرّة من البرد، لأنَّ العرب تتأذى بالحر وتستروح إلى البرد .
ومن دعاء إبراهيم : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

١١- ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فى معناها قولان، أحدهما : اجعلنا أئمة يُقتدى بنا - قاله ابن عباس،

والثانى : اجعلنا مؤتمنين بالمتقين مقتدين بهم - قاله مجاهد ، فعلى هذا الكلام يكون من المقلوب ، فيكون المعنى : واجعل المتقين إماماً لنا . قال ابن كثير على المعنى الأول : « اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً » (انتهى) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بَكُم رَّبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧] ، أى لا وزن لكم ولا قدر عند الله لولا إيمانكم أو عبادتكم أو توحيدكم .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧] ، هذا خطاب للكافرين المكذبين ، فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ سَيَكُونُ عَذَابًا لَزَامًا فى الدنيا ، بأن تكون نهايتهم سيئة ، ويستمر العذاب فى الآخرة .

هذه صفات عباد الله كما وردت فى هذه التعاريف ، فمن تحقق بها كلها لم يكن للشيطان عليه سبيل ، وكان عبداً خالصاً لله .

ونختتم هذه الفقرة بذكر ما يعيننا على قهر الشيطان للوصول إلى مقام العبودية الكاملة لله . .

١ - الاستعاذة بالله منه ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، وقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(١) * وَأَعُوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

(١) همزات الشياطين : نزعاتهم ووساوسهم المغرية .

وعَلَّمَنَا رسول الله ﷺ إِذَا دَخَلْنَا الْخَلَاءَ أَنْ نَقُولَ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخُبَائِثِ » (١) .

٢- ذكر الله الدائم، فَإِنَّ ذِكْرَ اللِّسَانِ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفِي الْحَدِيثِ : « الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوَسَ » (٢) .

٣- تَمْيِيزُ الْإِقَائِهِ وَمَعْرِفَةُ وَسْوَستِهِ، فَلِعُلَمَاءِ الْقُلُوبِ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ جَيِّدٌ . .
يقول الشيخ أحمد الزروق :

« تَمْيِيزُ الْخَوَاطِرِ مِنْ مَهْمَاتِ أَهْلِ الْمِرَاقَبَةِ لِنَفْيِ الصَّوَارِفِ عَنِ الْقُلُوبِ، فَلَزِمَ الْإِهْتِمَامُ بِهَا لِمَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ أَدْنَى قَدَمٍ . وَالْخَوَاطِرُ أَرْبَعَةٌ : رَبَانِيٌّ بِلَا وَاسِطَةٍ (أَيُّ الْإِلَهَامِ) ، وَنَفْسَانِيٌّ، وَمَلَكِيٌّ، وَشَيْطَانِيٌّ، وَكُلٌّ إِنَّمَا يَجْرِي بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَعِلْمِهِ . فَالْرَبَانِيُّ لَا مَتَزَحِّزُحٌ وَلَا مَتَزَلْزَلٌ كَالنَّفْسَانِيِّ، وَيَجْرِيَانِ لِلْمَحْبُوبِ وَغَيْرِهِ . فَمَا كَانَ فِي التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ فَرِبَانِيٌّ، وَفِي مَجَارِي الشَّهَوَاتِ فَنَفْسَانِيٌّ، وَمَا وَافَقَ أَصْلًا شَرْعِيًّا لَا يَدْخُلُهُ رُخْصَةٌ وَلَا هَوًى فَرِبَانِيٌّ، وَغَيْرُ نَفْسَانِيٍّ، وَيَعْقِبُ الرِّبَانِيُّ بَرُودَةً وَانْشِرَاحًا، وَالنَّفْسَانِيُّ يَبْسُ وَانْقِبَاضًا، وَالرِّبَانِيُّ كَالْفَجْرِ السَّاطِعِ لَا يَزْدَادُ إِلَّا وَضُوحًا، وَالنَّفْسَانِيُّ كَعُودٍ قَائِمٍ إِنْ يَنْقُصُ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ . فَأَمَّا الْمَلَكِيُّ وَالشَّيْطَانِيُّ فَمُتَرَدِّدَانِ، وَلَا يَأْتِي الْمَلَكِيُّ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَالشَّيْطَانِيُّ قَدْ يَأْتِي بِهِ فَيْشْكَلُ، وَيُفَرِّقُ بَأْنَ الْمَلَكِيِّ تَعْصِدُهُ الْأَدْلَةُ، وَيُصَحِّبُهُ الْإِنْشِرَاحُ، وَيُقَوِّى بِالذِّكْرِ، فَأَثَرُهُ كَغَبْشِ الصَّبْحِ، وَلَهُ نَفَاذُهُ، بِخِلَافِ الشَّيْطَانِيِّ فَإِنَّهُ يَضْعَفُ بِالذِّكْرِ، وَيَعْمَى عَنِ الدَّلِيلِ، وَتَعَقُّبِهِ حَرَارَةٌ، وَيُصَحِّبُهُ اشْتِعَالٌ وَغُبَارٌ وَضِيقٌ وَكَرَازَةٌ فِي الْوَقْتِ، وَرَبَّمَا تَبِعَهُ كَسَلٌ، فَالشَّيْطَانِيُّ مَنْ يَسَارُ الْقَلْبُ، وَالْمَلَكِيُّ مَنْ يَمِينُهُ، وَالنَّفْسَانِيُّ مَنْ خَلْفُهُ، وَالرِّبَانِيُّ مُوَاجِهٌ لَهُ، ثُمَّ تَحْقِيقُ هَذَا الْأَمْرِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالذِّقِّ . فَقَدْ قَالُوا : مَنْ عَقَلَ مَا يَدْخُلُ جَوْفَهُ عَرَفَ مَا يَهْجَسُ فِي نَفْسِهِ » (انْتَهَى) .

وبهذا ننتهي من استعراض صفات المتقين كما وردت في تعريفهم في كتاب الله لننتقل إلى الفقرة الثالثة وهي الطريق إلى التقوى .

(١) رواه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٢) رواه الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه وهو عند أبي نعيم في الحلية والديلمي في المسند ولفظه : « الشَّيْطَانُ يَلْتَقِمُ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ عِنْدَهُ، وَإِذَا نَسِيَ اللَّهَ التَّقَمَّ قَلْبُهُ »، وَرَمَزَ السِّيَوطِيُّ لَصَحَّتِهِ .

الفقرة الثالثة

طريق الوصول إلى التقوى

رأينا فيما سبق الخطوط العامة للتقوى، ورأينا كيف أنها تبدأ من الإيمان بالغيب إلى حيث تكون سلوكاً في الحياة، وتوجهاً إلى الله عز وجل . والحقيقة أن التقوى ملكة في القلب، فإذا ما استقرت هذه الملكة في القلب نتج عنها سلوك الجسد على منهاج الله عز وجل : « إِنَّ فِي الْجَسَدِ لَمُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١) . وإذن تحصيل هذه الملكة في القلب هو الأساس، فإذا ما حصلها الإنسان نبع عنها بشكل آلى لوازمها إذا كان هناك فقه صحيح . ومهمتنا في هذا البحث توضيح الطريق الذي يحقق به الإنسان هذه التقوى في ذاته، وسنحاول أن نبقي مقيدتين أنفسنا تقيداً تاماً بالنصوص القرآنية والحديثية . فإن الله عز وجل إذا جعل التقوى مناط نجاة الإنسان عنده، فقد بينها وفصلها بما لا يزيد عليه . وقد يكون في البحث شيء من التداخل، وذلك يعود إلى ارتباط بعضها ببعض، إلا أننا نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، بحيث يكون بحثاً كافياً لمن أراد الله غايته بتقديم التقوى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

الطريق الأول

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَضَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، والشاهد فيها عند قوله : ﴿ وَشِفَاءٌ

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي عبد الله النعمان بن بشير.

لَمَّا فِي الصُّدُورِ ﴿١﴾ إِذْ مَا فِي الصُّدُورِ هُوَ الْقُلُوبُ ﴿٢﴾ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٣﴾ [الحج: ٤٦] ، ﴿٤﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥﴾ [ص: ٢٩] ، ﴿٦﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٧﴾ [محمد: ٢٤] ، ﴿٨﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٩﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومن هذه الآيات نرى أنَّ تلاوة كتاب الله عزَّ وجلَّ مع التدبر طريق يوصل إلى التقوى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مع الإيمان أولاً . إذ مرَّ معنا في أول بحث التقوى علاقة الإيمان بالقرآن : « كُنَّا نؤتى الإيمان قبل القرآن » ^(١) ، فإذا وُجِدَ أصل الإيمان وكان في القلب شيء من مرض ، فإن في كتاب الله شفاءه ، وإذا سلم القلب تحققت التقوى ، والكلام في إنسان وُجِدَ عنده أصل الإيمان ، أما الكافر والمنافق الخالص ، فقد مرَّ معنا أنهما لا يستفيدان من كتاب الله . وبعض الصوفية من غير المحققين يرون أنَّ كتاب الله ليس شافياً من أمراض القلوب ، وهذا إغراق في البُعد عن التحقيق ولكن المحققين منهم يقولون : إنَّ كتاب الله طريق كامل للوصول إلى الله .

ولذلك كان من أوراد المسلمين اليومية الراتبة قراءة القرآن .

● مقدار الورد :

يقول الأستاذ البنا : « تختلف ظروف الناس وأحوالهم ولهذا لم يحدد مقدار الورد ، وترك ذلك لظروف كل شخص ومقدرته ، والمهم ألا يمر به يوم بغير أن يقرأ شيئاً من كتاب الله تعالى . وسنورد هنا أوجه تقسيم الورد القرآني عند سلفنا الصالح رضوان الله عليهم على سبيل المثال والتوضيح فنقول :

١- أقل مدة للختمة ثلاثة أيام وقد كرهوا أن يختم الإنسان في أقل من ثلاث ، وفي أكثر من شهر . وقالوا : إنَّ في الختم في أقل من ثلاث إسراعاً لا يُعين

(١) رواه الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

على التفهم والتدبر، وفي الختم فى أكثر من شهر إسرائاً فى هجر التلاوة . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » (١) .

٢- الحد الأوسط أن يختم كل أسبوع مرة، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم يفعلون كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم، وكان عثمان رضى الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنفال إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، ويوم الإثنين بـ « طه » إلى طسم موسى وفرعون - يعنى القصص - وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى « ص » - ليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، وليلة الجمعة يختم الختمة .

وكان لابن مسعود رضى الله عنه تقسيم آخر يختلف فى عدد السور ولكنه يتفق فى الختم كل أسبوع، وقد ورد فى التقسيم فى الأسبوع أخبار كثيرة وليس هذا التقسيم بمتعين بل هو على سبيل الاتباع والأفضلية، ولأخ أن يقرأ حسب مقدرته بحيث لا يمضى يوم بغير تلاوة، فإن لم يكن من أهل القراءة فليجتهد فى الاستماع أو فى حفظ بعض السور يتلوها كلما سنحت له الفرصة .

● آداب التلاوة :

إن من آداب التلاوة الاجتهاد كل الإجهاد فى التدبر والتفكر، فذلك هو المقصود الأول منها . والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] ، ولا سيما إذا لاحظ أن فى ذلك خطاب رب العالمين العزيز الحكيم . كما أن من آداب التلاوة كذلك مراعاة أحكام التجويد، فيخرج الحروف من مخارجها، ويؤديها على قواعدها، ويمد الممدود، ويغن ما يستحق الغنة، ويفخّم المفخّم، ويرقق المرقق . . . وهكذا .

(١) رواه أبو داود . والترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ ، فَإِذَا قُرِئْتُمُوهُ فَابْكُوا ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا ، وَتَغْنُوا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا » (١) .

والمراد بالتغنى هنا التحزن وإظهار الخشوع مع تجويد القراءة . . فقد جاء فى حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مَنْ أَحْسَنَ النَّاسَ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ الَّذِى إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ » (٢) .

● مجلس الاستماع :

ومن الأوراد القرآنية، الاجتماع لسماع كتاب الله تبارك وتعالى ممن يُحسن تلاوته، وعلى القارئ فى مجلس الاستماع أن يقرأ قراءة مرسلة يلاحظ فيها الآداب السابقة، وعلى المستمعين أن ينصتوا ويفكروا فى المعانى، وأن يكونوا على غاية الخشوع والتوقير والتعظيم لكتاب الله تبارك وتعالى، ويستحضروا الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستمعون القرآن وكأن على رؤوسهم الطير، وكان مشيخة مكة من الصالحين إذا أرادوا التذكر أقبلوا على الشافعى رضى الله عنه - وكان حسن القراءة - فقرأ عليهم واستمعوا، فلا يرى الزاءون أكثر بكاءً منهم فى حالهم تلك ، أى حين الاستماع : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣] ، ويستحب إتماما للفائدة إذا حضر مجلسهم هذا أهل العلم أن يُلْخِصُوا لَهُمْ مَقَاصِدَ مَا تُلَى مِنْ آيَاتٍ .

● ورد الحفظ :

وَيُسْتَحَبُّ كَذَلِكَ لِلْأَخِ الْمُسْلِمِ - وَهُوَ مِنَ الْأُورَادِ الْقُرْآنِيَةِ - أَنْ يَجْتَهِدَ مَا اسْتَطَاعَ فِي حِفْظِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَيَرْتَبِ عَلَى نَفْسِهِ كُلَّ يَوْمٍ آيَةٍ أَوْ آيَاتٍ

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه ابن ماجه .

بقدر طاقته يحفظها حفظاً جيداً، وبهذه الطريقة التدريجية يمكنه أن يحفظ الشيء الكثير من كتاب الله تبارك وتعالى، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: « يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (١).

فاجتهد يا أخى أن تفوز بهذه الفضيلة، والله نسأل أن يجعلنا وإياك من أهل القرآن فنكون بذلك من أهل الله وخاصته، والله حسبنا ونعم الوكيل « (انتهى كلام الأستاذ البنا) .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

إن تلاوة القرآن ينبغي أن يكون وراءها اتباع صراطه، وعندئذ تكون تقوى. أما إذا كان الإنسان يتلو القرآن والصراط الذى يمشى عليه غير صراط القرآن فمن أين له التقوى ؟

ومن أعجب العجب أنك تجد شيوعياً يسير فى طريق « ماركس » ويبقى الناس يعتبرونه مسلماً، وأنتى له الإسلام ولم يستسلم لحكم القرآن . وتجد الآخر يسير فى طريق رسمه نصرانى أو يهودى أو مستعمر أو ضال أو منافق أو فاسق فهذا ليس له من التقوى نصيب .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن، وبعضه حديث مسلم وأبى داود فى هذا المعنى.

فإذن لا يكون الإنسان تقياً ما لم يلتزم فى أمور حياته كلها بكتاب الله، سواء فى ذلك عمله السياسى، أو الاجتماعى، أو العلمى، أو الأخلاقى . وفى كل دائرة من دوائر الحياة مستسلماً فى ذلك لله، راغباً فيما عنده، معرضاً عن كل متاع أو شهوة أو لذة أو نزوة أو رغبة تخالف ذلك : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ^(١) ، فليحرر الإنسان عمله بهذا الميزان ليعرف أين هو من التقوى . يقول عليه السلام : « من أحب أن يحبه الله ورسوله فلينظر . فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله » .

﴿ كَذَلِكَ يبينُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، وآيات الله هنا كتابه الواعظ الذى من لم يتعظ به ما بلغ فى الإسلام شيئاً : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] ، وفهم الكتاب أساس، والتدبر عنوان استعداد القلب للخير : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، وتمكين الإيمان فى حالة عدم التدبر واجب : « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن » ^(٢) ، فإيمان أولاً، ومعرفة بمعانى كتاب الله ثانياً، واتعاظ به ثالثاً، يحصل من ذلك ملكة التقوى وآثارها .

ومن هذه الفقرات الثلاث، ندرك سبباً رئيسياً فى كون الصحابة رضى الله عنهم كانوا أتقياء، بينما لا تجد التقى اليوم إلا قليلاً . إن الصحابة كان القرآن شغلهم الشاغل، بينما نحن ليس لنا اليوم من القرآن إلا قليل، لقد شُغل المسلمون علماء وطلّاب علم عن القرآن فى الغالب .

وسرى ذلك إلى العامة أنفسهم، فلا تلاوة، ولا فهم، ولا تدبر، فماذا وراء ذلك إلا قسوة القلب، وضعف اليقين، وقلة التقوى ؟ ؟

* * *

(١) خرّجه النووى فى الأربعين عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

الطريق الثاني

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

هذه الآية تبين أن التقوى هبة من الله، وزيادة الهداية كذلك، ولا تكون التقوى وزيادة الهداية إلا بعد الهداية، والهداية تحتاج إلى جهد شخصي . هذا الجهد الشخصي ذكرته الآية : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . ولا تكون الهداية إلى السبيل إلا بالتزام كتاب الله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فالمجاهدة للوصول إلى الهداية مقيّدة بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأى خروج بالمجاهدة عن هذا المفهوم خروج عنها نفسها : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » (١) .

وتبدأ الهداية من الإيمان بالله، يقول عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، والمجاهدة للوصول إلى هذا الإيمان تتلخص بالفكرة وكثرة الذكر : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

ذكر وفكر . . من لم يجمع بينهما فقلبه بعيد عن حقيقة الإيمان الحى اليقظ، ولذلك فقد شبه رسول الله ﷺ الغافل عن الله بالميت : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (٢) ، وأعظم عمل يجتمع فيه

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان والنسائي عن أنس .

(٢) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » باب « فضل ذكر الله عز وجل » . ورواه مسلم بمعناه .

للإنسان الذكر والفكر قراءة القرآن مع التدبر . فالقرآن ذكر : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] ، والقرآن لفت العقل البشرى إلى كل ما ينبغى أن
يتفكر فيه ، وإلى ما ينبغى أن يصل إليه فكره ، وأجود ما تكون القراءة تأثيراً إذا
كانت فى صلاة قيام الليل : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (١) هِيَ أَشَدُّ وَطْأً (٢) وَأَقْوَمُ
قِيلاً (٣) ﴾ [المزمل: ٦] .

وهدف المجاهدة - بشكل أعم - هو الوصول إلى حالة للقلب يسمى
فيها سليماً : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
[الشعراء: ٨٨-٨٩] ، عندئذ يصلح حال الإنسان كله : « إِنَّ فى الجسد لمضغة
إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٤) ،
ولا يصل القلب إلى هذه الحالة حتى يتخلص من الكفر والشقاق وشوائب
النفاق . يقول الرسول ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ،
وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب
الأجود ، فقلب المؤمن فسراج فيه نوره ، وأما القلب المنكوس ، فقلب المنافق
الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح ، فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان
فيه كمثّل البقلة يمدّها الماء الطيّب ، ومثل النفاق فيه كمثّل القُرحة يمدّها القيح
والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » (٥) .

فالهدف من المجاهدة ، الوصول إلى أن يكون قلبنا هو القلب الأول ، وهذا
لا يتم لنا إلا إذا قطعنا مدد القيح والدم عن قلوبنا ، والذي هو عبارة عن الآثار
السيئة الظلامية التى يتركها الذنب فى القلب . يقول عليه السلام : « إِنَّ الْعَبْدَ

(١) ناشئة الليل : العبادة التى تنشأ به وتحدث .

(٢) أشد وطأً : ثباتاً للقدم ورسوخاً فى العبادة .

(٣) أقوم قِيلاً : أثبت قراءة لحضور القلب .

(٤) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله النعمان بن بشير .

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى به مرفوعاً .

إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله تعالى « (١) »، والمقصود بهذا آية سورة المطففين: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) [المطففين: ١٤].

وقطع مدد القيقح والدم ليس كافياً للوصول إلى القلب الأول إلا إذا رافقه مدد الماء الطيب لهذا القلب، والمقصود بمدد الماء الطيب في الحديث: الآثار النورانية التي تتركها الحسنات في قلب الإنسان حتى يصبح هذا القلب منيراً أزهر.

يقول عليه السلام: « والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » (٣).

إن النفس تألف الراحة والكسل والشهوة واللذة والمتعة، وهذه المعانى في كثير من الأحوال تتنافى مع التكليف، ولذلك كانت الجنة في الطرف المقابل: « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » (٤)، فلا بد من بذل الجهد للتغلب على هوى النفس حتى ينسجم مع التكليف: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (٥)، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وشغل النفس دائماً بالتكاليف أو الخير، هو الذي يطهرها من أوزارها، فإن النفس إذا لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، وقد حدّد السيد الرسول ﷺ الأهم فيما يشغل به الإنسان نفسه. ويقول عليه السلام في الحديث القدسي:

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة وصححه الترمذي وقال الذهبي في المذهب: إسناده صحيح.

(٢) ران على قلوبهم: غلب وغطى عليها.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان عن فضالة بن عبيد ورمز السيوطي لصحته.

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة، ولفظ البخاري: « حفت » في الموضعين.

(٥) خرّجه النووي في الأربعين عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: حيث حسن

صحيح.

« وما تقرب إليَّ عبدى بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » (١) .

فالفرائض أولاً : من صلاة، أو زكاة، أو صلة رحم، أو جهاد، أو ترك حرام، أو التزام بسلوك، أو التخلي عن خلق، أو التحقق به، ثم النوافل من ذكر، لعبادة، لشهود جنازة، لتحقيق سنن . إنَّ الإقبال الكامل على الله هو المجاهدة .

وهنا لا بد أن نُلَفِت النظر إلى قضية هي أنَّ بعض الناس يستغرقون في المجاهدة بتطبيق نوافل على حساب فروض فيُضَيِّعون فرضاً أو فروضاً . وآخرون ينسون مجاهدة أنفسهم بتاتا، مستغرقين بجانب من جوانب الإسلام، وليس هذا أو هذا سنن الإسلام .

وشيء آخر نُلَفِت النظر إليه . هو أنَّ ذكر الله، أو تذكره هو روح القيام بالتكاليف كلها . سواء أكانت فرائض، أو نوافل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤] ، ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [الحج: ٢٨] ، ﴿ وَلَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، فالعمل لله هو ما رافقه تذكر الله عزَّ وجلَّ بابتغاء وجهه .

وبتحققنا بهذا المعنى نكون قد وصلنا إلى حالة لا يكون للشيطان علينا بها سبيل بإذن الله . أخرج البخارى تعليقا عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس » ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

وهذا من أهم الأشياء في المجاهدة، أن يتخلص الإنسان من كيد الشيطان : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٤] ، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] ، ﴿ فَإِذَا

(١) قطعة من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة .

قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٨-٩٩﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

إنَّ صلواتنا في أوقاتها جماعة لا تنتظم إلا بمجاهدة، وطاعتنا لأمراء الحق بالحق لا تسلمها النفس إلا بمجاهدة، فمن أول الإسلام حتى آخره لا بد من مجاهدة النفس، ولا مجاهدة إلا بنية، ولا نية إلا بتذكر الله، ولا تذكر إلا بذكر دائم . وعندئذ تكون تقوى .

وإذا أردنا تلخيص هذا الطريق نقول :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والهداية تورث التقوى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

وأهم أنواع المجاهدة ما يُخرجنا به الله من الظلمات إلى النور، ومن أهم ذلك : الصلاة جماعة، وكثرة الصلاة على الرسول ﷺ، والصبر ثم الذكر الدائم لله، والعمل بما أمر واجتناب ما نهى، حتى ترسخ ملكة التقوى فيصبح العمل عادة، والسلوك السليم عفواً، كما يصبح القلب حياً .

وعلاوة نجاح الإنسان في تزكية نفسه - أى في جهاده - لها تحققة بالآيات التي وردت في أول سورة « المؤمنون » بدليل قوله تعالى في بدايتها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] ، مع أنه في آية أخرى علق الفلاح على تزكية النفس فقال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ^(١) [الشمس: ٧-١٠].

ولذلك نرى لزماً علينا هنا أن نستعرض - ولو باختصار - معاني هذه الآيات : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ *

(١) مَنْ دَسَّاهَا: نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور.

- ١- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ *
 - ٢- وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *
 - ٣- وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *
 - ٤- وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *
 - ٥- وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *
 - ٦- وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *
- أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾
- [المؤمنون ١-١١].

فهذه صفات ست : إذا اختل أى واحد منها فذلك دليل على أَنَّ النفس لم تُزَكَّ بعد، ولم تصل إلى التقوى، وهى بعد بحاجة إلى مجاهدة . فإذا لم تصل النفس إلى الخشوع فى الصلاة، فإنها تحتاج إلى مجاهدة، وإذا لم تصل إلى الإعراض عن اللغو فإنها تحتاج إلى مجاهدة، وإذا لم تُزَكَّ فإنها تحتاج إلى مجاهدة، وإذا لم يُحفظ الفرج عن الزنا فإنها تحتاج إلى مجاهدة، وإذا لم تحفظ العهد والأمانة فإنها تحتاج إلى مجاهدة، وإذا لم تحافظ على الصلوات فإنها تحتاج إلى مجاهدة .

إنَّ ميزان زكاة النفس هذه الصفات، فمتى أصبحت هذه الصفات للنفس خُلُقاً وطبعاً، تأتيها بدون تكلف وبإخلاص، وبلا غرور وعُجْب ورياء .

فيومذاك تكون هذه النفس قد تزكَّت وطهرت، ونجح الإنسان فى مجاهدتها، وما دامت لم تصل إلى هذه الحالة، فلا بد من مواصلة المجاهدة بالذكر والصوم وتلاوة القرآن وكل ما مرَّ معنا من طُرق التقوى .

ولنستعرض حدود هذه الصفات الست، لنعرف إلى أى حد وصلنا فى تركية النفس، ولنعرف إلى أى حد نجحنا فى مجاهدة أنفسنا :

١- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ .

لقد عرّف الله الخاشعين بقوله : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ [البقرة: ٤٥-٤٦] .

فما لم يكن واضحاً لدى الإنسان رجوعه إلى ربه ولقياه له، فإنه لا يكون خاشعاً، ولننظر إلى أنفسنا لنرى مقدار وضوح هذا المعيار عندنا . .

أما مظاهر وآثار الخشوع في الصلاة فهذه نصوص تشير إليها :

لأبي داود عن مطرف عن أبيه : « رأيتُ رسول الله ﷺ يُصَلِّي وفي صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء » .

وفي رواية النسائي : « ولجوفه أزيز كأزيز المرجل » .

وروى الطبراني في « الكبير » عن الأعمش قال : « كان عبد الله - أي ابن مسعود - إذا صَلَّى كأنه ثوب ملقى » .

وللترمذي عن الفضل بن عباس عن رسول الله ﷺ : « الصلاة مثني مثني وتقع يديك - يقول : ترفعهما - إلى ربك مستقبلاً ببطونها وجهك وتقول : يارب يارب، ومن لم يفعل فهو كذا وكذا » .

وفي رواية : فهو خداج .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ^(١) [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] .

(١) يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا: أي يسقطون على وجوههم ساجدين .

من هاتين الآيتين يتبين لنا معنى الخشوع، فإذا لم نجد من أنفسنا هذا الخشوع، فإن علينا أن نزداد في مجاهدة أنفسنا في الذكر والتذكر وتلاوة القرآن والصوم و . . . كما مر معنا في الطريق إلى التقوى، ولنحرص على ذلك فإنه الميزان الذي لا يخطيء في نجاح المجاهدة، وهذا العلم - علم الخشوع وحقيقته - أصبح الآن نادراً مفقوداً . فمن حصله فقد حصل أعلى ما في الإسلام .

روى الطبراني في « الكبير » عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ : « إن أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا يرى فيها خاشعاً » .

وأدنى درجات الخشوع : خشوع الجوارح، وأعلىها : خشوع القلب، ومن خشوع الجوارح في الصلاة : عدم رفع البصر إلى السماء، وعدم الالتفات، وعدم الحركة إلا لضرورة ماسة .

للسنة إلا الموطأ عن معيقيب : سئل النبي ﷺ عن يسوي التراب حيث يسجد قال : « إن كنت فاعلاً فواحدة » .

ولأبي داود والنسائي عن رسول الله ﷺ : « لا يزال الله تعالى مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه » .

وللبخاري وأبي داود والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة » ؟ فاشتد قوله في ذلك حتى قال : « لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم » .

٢- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ .

مر معنا تعريف ابن جرير الطبري للغو إذ يقول :

« واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو

ما عَظَّمُوهُ، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو » (انتهى) .

وقد يكون جزء من اللغو مباحاً، ولكن المجاهدة ارتفاع بالإنسان إلى ما فوق المباح، ويدخل في اللغو من عصرنا سماع الراديو، ورؤية التليفزيون، وقراءة الجرائد، والمجلات، وحضور المسارح والملاهي، وحضور أكثر الحفلات، وقراءة ما تنتجه الأقلام الكافرة في الفلسفة والاجتماع والأخلاق والسلوك والأدب من قصص لشعر لحكايات ويدخل في ذلك أكثر ما تنتجه دور النشر مما لا يُذكر بالله واليوم الآخر ودين الله وليس هو من العلم التجريبي الدنيوي إلا إذا اقتضى الأمر معرفة شيء من هذا كله للرد عليه أو مراقبته أو استخلاص ما يلزم منه .

٣- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ .

مرّ معنا مبحث الزكاة والقصد هنا أن هؤلاء يؤدون زكاة أموالهم ويحاسبون أنفسهم على ما آتاهم الله من مال فيجعلون حقه فيما أمر الله .

٤- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

والآيات واضحة أن هؤلاء لا يزنون أبداً .

والسؤال الآن : ماذا أمام الإنسان الذي ثارت شهوته ؟ طبعاً ليس أمامه إلا الزواج أو استملاك أمة إن كان، ورأينا في فصل « السياسة الاقتصادية » في الجزء الثالث من كتاب « الإسلام » كيف أنه يجب على أهل أمثال هذا تأمين زواجه إن كان لا يملك، ومرّ معنا في باب « الزكاة » من كتاب « الإسلام » كيف يؤمن بواسطة الزكاة لأمثال هذا زواجه، ولكن نفرض أنه لم يؤمن له فهل هناك طريق آخر ؟ إن يكن هذا الطريق الزنا أو اللواط أو السحاق فهذا لا شك حرام .

وإذن ماذا يفعل إنسان ازداد شبقه ولم يجد زواجا ؟ هل يلجأ إلى الاستمناء .

— أى ما يسمونه الآن : العادة السرية ؟ ؟

والجواب : يقول عليه السلام : « يا معشر الشباب، مَنْ استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وُجاء » (١) .

إنَّ الشاب الذى يعتاد على الصوم وقِلَّة الطعام، وخاصة إذا رافق هذا تطبيق آداب الصيام، من اشتغال بالطاعات، كقراءة القرآن والذكر، فإنه لا يحس بهذه الرغبة إلى هذه الحاجات الجنسية، وخاصة إذا عاش فى بيئة صالحة، ومع إخوان صالحين، فإنَّ الشيطان من الفرد قريب وهو من الاثنين أبعد .

ولكن نفرض أنه لم يستطع هذا، أو بقى مع هذا على فورته الجنسية، فهل يلجأ إلى الاستمنا ؟

إنَّ فقهاء المسلمين بالنسبة لهذا الموضوع مختلفون :

فبعضهم يُحرِّم الاستمنا مهما كانت الظروف .

وبعضهم — وهم الحنفية — قالوا : إذا كان هذا الإنسان قد وصل إلى حالة إما الزنا أو الاستمنا، فلا شك أنه يُباح له فى هذه الحالة الاستمنا، ولكن على نية إذهاب الشهوة لا على نية قضائها، وبعضهم أجاز الاستمنا مطلقاً، واعتبره كعملية إخراج المخاط والفضلات الأخرى، ويذكر بعض هؤلاء أنَّ المسلمين الأوائل كانوا إذا طالت غُربتهم عن أهلهم أثناء الحرب لجأوا إلى أمثال هذا .

ويبدو أنَّ المسألة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، والإنسان أدرى بنفسه، وليحتط الإنسان لدينه، وليحذر الإنسان من المرة الأولى فإنها البداية التى يصبح من العسير أن يكون لها علاج، والأطباء مختلفون فى الأضرار التى تنشأ عن هذه العادة، فمنهم مَنْ ضخم أضرارها، ومنهم مَنْ أعدمه، ولا شك أنه وضع غير عادى إذا استعمل للضرورة، فلا ضرر ولا إثم . والله أعلم .

(١) رواه الخمسة عن عبد الله بن عمر .

٥- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ، وقد مر معنا ما له علاقة بالعهد . وفى الحديث الذى رواه الترمذى وأبو داود : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » .

والأمانة لها معنيان : معنى عام ، ومعنى خاص . .

أما الأمانة بمعناها العام فهى التى وردت فى الآية : ﴿ . . . إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، فالأمانة هنا التكليف . . وعلى هذا لا يكون الإنسان أميناً إلا إذا قام بحق الله وحق رسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وعلى هذا المعنى من لم يَصَلِّ فهو خائن ، ومن لم يُزَكَّ فهو خائن ، ومن لم يجاهد فهو خائن ، ومن كشف أسرار المؤمنين فهو خائن ، ومن زنى فهو خائن ، ومن شرب الخمر فهو خائن .

وأما الأمانة بمعناها الخاص فتدخل فيها أحوال كثيرة تشير إليها هذه الآثار :
للشيخين وأبى داود والنسائى عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْخَازِنَ الْمُسْلِمَ الْأَمِينَ الَّذِى يُعْطَى مَا أَمَرَ بِهِ فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مَوْفِرًا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيُدْفَعُهُ إِلَى الَّذِى أَمَرَ لَهُ بِهِ أَحَدَ الْمُتَصَدِّقِينَ » .

وللشيخين والترمذى عن حذيفة : حَدَّثَنَا النَّبِيُّ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ . . . حَدَّثَنَا : « إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جُذُرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ » ، ثم حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ : « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَنْقَبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيُظِلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَنْقَبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيُظِلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرِ

دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منبراً وليس فيه شيء - ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إنَّ في بنى فلان رجلاً أميناً، حتى يقال : الرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه على دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه، وأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

وللترمذى عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إذا اتَّخَذَ الفَيءَ دُولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرمًا، وتعلم العلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المسجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكْرَمَ الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف وشُرِبَت الخمر، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليترقبوا عند ذلك ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسحاً وقذفاً، وآيات تتابع كنظام تال انقطع سلكه فتتابع ».

« كلِّكم راعٍ وكلِّكم مسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسئول عن رعيته » (١) .

يقول ابن عمر : فسمعتُ هؤلاء من رسول الله ﷺ وأحسب النبي ﷺ قال : « والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسئول عن رعيته، فكلِّكم راعٍ وكلِّكم مسئول عن رعيته » (٢) .

٦ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ .

روى الإمام أحمد والطبراني في « الكبير » عن حنظلة الكاتب عن رسول

(١) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى عن ابن عمر مرفوعاً .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وأبو داود عن ابن عمر .

الله ﷺ : « مَنْ حَافِظٌ عَلَى الصَّلَاةِ الْخَمْسِ : رُكُوعُهُنَّ وَسُجُودُهُنَّ وَمَوَاقِيتُهُنَّ ، وَعَلِمَ أَنَّهُنَّ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » - أو قال : « وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةَ » - أو قال : « حُرِّمَ عَلَى النَّارِ » .

والحقيقة أنَّ المحافظة على الصلوات يستقيم بها أمر الإنسان كله ولا يتم هذا إلا بصلاة الجماعة في المسجد ، فَمَنْ صَلَّى الصلوات الخمس في المسجد استقامت صلواته ، واستقامت عبادته ، وانتظمت مجاهدته في الذكر والتلاوة والإقبال على الله .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
[المؤمنون ١٠-١١].

إنَّ نجاحنا في تحقيق هذه النواحي الست دليل على نجاح مجاهدتنا ، وما دامت واحدة منهن لم نصل إليها أو إلى الكمال فيها ، فذلك دليل على تقصيرنا . ويبدو أنَّ الإنسان عليه أن يبقى في عملية مجاهدة لنفسه حتى الموت .
إذ ما أكثر الشواغل والصوارف والغفلات ، وما أكثر ما نحتاج إلى استغفار دائم ، ونحن على حافة القبر أحوج منا إلى ذلك وأمثاله مما قبل ذلك ، والله المستعان .

* * *

الطريق الثالث

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

[البقرة: ١٨٣-١٨٥].

فالصيام طريق من طرق التحقق بالتقوى، وذلك لأنَّ التقوى طريق الجنة، والجنة محفوفة بالمكاره، والشهوات طريق النار، والصيام هو رمز السيطرة على الشهوة .

وفى الحديث الصحيح: « حُفَّت النار بالشهوات وحُفَّت الجنة بالمكاره »^(١)، وفى الحديث الصحيح الآخر: « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » ، قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « ... إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي »^(٢) .

إنَّ أصعب شهوات الإنسان شهوة البطن وشهوة الفرج، فإذا ما سيطر الإنسان عليهما سهل عليه بعد أن يسيطر على شهوات نفسه كلها . والصوم هو أداة السيطرة على هاتين الشهوتين : « يدع شهوته وطعامه من أجلي » .

فالصوم مدرسة كفاح الشهوة، ولذلك كان فى الميزان نصف الصبر، يقول الرسول ﷺ فى الحديث الحسن : « الصوم نصف الصبر » ، والصبر فى ميزان الإسلام نصف الإيمان كما ورد فى الحديث الحسن : « الصبر نصف الإيمان »^(٣)، ولقد كان الصوم نصف الصبر لأنه صبر عن أعظم الشهوات، وكان الصبر نصف الإيمان لأنه لا يوجد مقام من مقامات الإيمان إلا وهو بحاجة إلى الصبر .

والهدف هو التقوى، فمن لم تظهر عليه ثمرة الصيام، لم يحقق الحكمة منه . يقول عليه السلام : « إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم »^(٤) ، ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

(١) متفق عليه عن أبى هريرة، ولفظ البخارى: « حفت » فى الموضعين .

(٢) رواه الخمسة عن أبى هريرة .

(٣) رواه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود .

(٤) رواه البخارى واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

وأخرج النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » (١) .

والصيام فريضة ونافلة، أما فريضته العادية فرمضان - ورمضان وحده مدرسة كاملة لتخريج الأتقياء، إذ أن رسول الله ﷺ سَنَّ لنا في رمضان سُنناً تعتبر من طُرُق التقوى، فَمَنْ قام بها كلها أخذ من التقوى بذروتها، سَنَّ لنا قراءة القرآن فيه، وقراءة القرآن طريق من طُرُق التقوى، وسَنَّ الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق طريق من طُرُق التقوى، وسَنَّ لنا فيه قيام الليل أو التراويح، وهى طريق من طُرُق التقوى، وسَنَّ لنا الاعتكاف في العشر الأواخر منه للتعرف للعبادة بأنواعها، وهذه من طُرُق التقوى، فَمَنْ دخل مدرسة رمضان بحققها مقيماً آدابها تخرَّج منها حاملاً تقوى الله بقلبه مستقيماً بها سلوكه .

وأما نافلته فكصيام يومى الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، وست من شوال، ويوم عرفة وعاشوراء، ويوم قبله . . وهذه آثار واردة في الصوم فرضه ونفله :

١- عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إِنَّ فى الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يقال لهم : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » (٢) .

٢- وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » (٣) .

(١) رواه البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

(٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه .

٣- وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » (١) .

٤- وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء رمضان فُتِحَتْ أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصُفِّدَت الشياطين » (٢) .

٥- وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » (٣) .

٦- عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله » - وفى رواية : « كان يصوم شهر شعبان إلا قليلاً » (٤) .

٧- وعن مجيبة الباهلية عن أبيها عن عمها : أنه أتى رسول الله ﷺ ثم انطلق بعد سنة - وقد تغيرت حاله وهيئته - فقال : يا رسول الله، أما تعرفنى ؟ قال : « من أنت » ؟ قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول . قال : « فما غيرك وقد كنتَ حسن الهيئة » ؟ قال : ما أكلتُ طعاماً منذ فارقتك إلا بليل . فقال ﷺ : « عذبت نفسك » ! ثم قال : « صم شهر الصبر (٥) ويوماً من كل شهر » . قال : زدنى فإنَّ بى قوة . قال : « صم يومين » قال زدنى . قال : « صم ثلاثة أيام » . قال زدنى : قال : « صم من الحرم واترك . صم من الحرم واترك . صم من الحرم واترك » ، وقال بأصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها » (٦) .

٨- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام » - يعنى أيام العشر - قالوا : يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » (٧) .

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه . (٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه . (٥) شهر الصبر : رمضان . (٦) رواه أبو داود .

(٧) رواه البخارى .

٩- وعن أبي قتادة رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة ؟ قال : « يُكْفَرُ السَّنةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ » (١) .

١٠- وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه (٢) .

١١- وعن أبي قتادة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال : « يُكْفَرُ السَّنةَ الْمَاضِيَةَ » (٣) .

١٢- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لئن بقيتُ إلى قابل لأصومنَّ التاسع » (٤) .

١٣- عن أبي أيوب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سَنًا مِنْ شَوَالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ » (٥) .

١٤- عن أبي قتادة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ وَلَدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بَعَثْتُ فِيهِ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ » (٦) .

١٥- وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » (٧) .

١٦- وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ » (٨) .

١٧- وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثَ : صِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكَعَتَيْنِ الضُّحَى، وَأَنْ أَوْتَرَ قَبْلَ أَنْ أَنْامَ » (٩) .

١٨- وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : « أَوْصَانِي حَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثَ

(١) رواه مسلم . (٢) متفق عليه . (٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم . (٥) رواه مسلم . (٦) رواه مسلم .

(٧) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٨) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٩) متفق عليه .

لن أدعهن ما عشت : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام قبل أن أوتر» (١) .

١٩- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله » (٢) .

٢٠- وعن معاذة العدوية أنها سألت عائشة رضى الله عنها : « أكان رسول الله ﷺ يصوم كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت : نعم . فقلت : من أى الشهر كان يصوم ؟ قالت : لم يكن يبالي من أى الشهر يصوم » (٣) .

٢١- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صمت من الشهر فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » (٤) .

٢٢- وعن قتادة بن ملحان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام أيام البيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » (٥) .

٢٣- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لا يفطر أيام البيض فى حضر ولا سفر » (٦) .

فمَن دخل مدرسة الصوم ولازمها كان من المتقين بإذن الله عزَّ وجلَّ .

* * *

الطريق الرابع

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] .

لا عبادة لله بلا معرفة له، ولا عبادة إلا بما أمر .

(١) رواه مسلم . (٢) متفق عليه . (٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٥) رواه أبو داود . (٦) رواه النسائى بإسناد حسن .

فالنصارى اليوم، واليهود والمجوس والمشركون، كل يدعى أنه يعبد الله، ولكنهم عملياً فاتتهم معرفة الله، وفاتتهم عبادته بما أمر، لذلك لم تقدمهم عبادتهم لله شيئاً . وعلى هذا فلا يحقق الإنسان أمر العباداة إلا إذا عرف المعبود، وعرف كيف يعبد، ثم عبده، فمن حقق هذا كان من المتقين .

ومعرفة الله لا تتحقق إلا بمعرفة ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى كما يدل عليها العقل، ويثبتها النقل .

فما عرف الله من لم يعرف وحدانيته . وحدانية الذات والصفات والأفعال، فلا ذاتاً مثل ذاته، وليست ذاته مؤلفة من أجزاء . ولا صفات مثل صفاته، وكل صفة من صفاته واحدة، ولا فاعل فى هذا الوجود غيره ابتداءً وانتهاءً، إيجاداً وإمداً : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات: ٩٦] .

وما عرف الله من لم يعرف صمدانيته وغناه عن خلقه وافتقار خلقه إليه، فلا العرش ولا الكرسي ولا السموات ولا الأرض ولا الخلق أجمعون إلا والله غنى عنهم، وهم بحاجة إليه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١] .

وما عرف الله من لم يعرف قدمه بلا بداية، وبقائه بلا نهاية، ثم أثبت بلخلق الحدوث، وإمكانية الفناء، ونفى عن الله الأبوة والبنوة، وكيف تكون مع البقاء والقدم .

وما عرف الله من شبه الله بخلقه، فلا ذاته نشبه الذوات، ولا صفاته تشبه الصفات، ولا أسمائه تشبه الأسماء، ولا أفعاله تشبه الأفعال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، فهو بصير وبصره ليس كمثله

شيء، وسميع وسمعه ليس كمثله شيء، ومستو على عرشه واستواؤه ليس كمثله شيء، وينزل إلى السماء الدنيا ونزوله ليس كمثله شيء، ويأتي يوم القيامة ومجيؤه ليس كمثله شيء، وهو مع خلقه معية ليس كمثله شيء .

وهذا كله مقتضى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وما عرف الله من لم يعرف له صفة العلم وأنه يعلم ما كان، وما هو كائن، وما لا يمكن أن يكون، وما لم يرد كونه تفصيلاً وإجمالاً، كلياً وجزئياً، وهذا الكون كله بفضائه وما فيه من حركات وسكنات، وعالم الغيب بما فيه من موجودات كبيرة أو صغيرة، كل هذا إنما هو بعض معلوماته جلّ جلاله . وهذا مقتضى قوله : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠] ، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: ٥١] فعلم الله ليس قابلاً للخطأ، ولا النسيان، ولا السهو ولا الغفلة .

وما عرف الله من لم يعرف أنه فعّال لما يريد، وأن ما أَرَادَهُ كان، وما لم يردّه لم يكن ، وأن كل شيء كان أو يكون فهو بإرادته ، لا يخرج عن هذه الإرادة شيء، وأن ما بالكون من خير وشر إنما هو بإرادته، وكل شيء أَرَادَهُ في حكمة : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وما عرف الله من لم يعرف أنه على كل شيء قدير . فهذه السموات والأرض وما فيهما من حركة وسكون بدءاً واستمراراً إنما هو بقدرته . حركاتنا وسكناتنا، وحوادث الوجود في الحاضر والماضي والمستقبل كلها بفعله، فهو خالق السبب والأسباب . والأحوال والآثار، وهذا مقتضى قولنا : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وما عرف الله من لم يعرف أنه حي لا يموت، ولا يطرأ عليه العدم . وهذا مقتضى قول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، يَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَبْصُرُ كُلَّ شَيْءٍ، يَسْمَعُ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ، وَيَسْمَعُ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا، وَيَبْصُرُ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ، وَيَبْصُرُ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا، وَمَا يَبْصُرُهُ يَسْمَعُهُ، وَبَصْرُهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ . وَهَذَا مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

وما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ، وَكَذَلِكَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ، وَأَنَّهُ يُكَلِّمُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ شَاءَ أَنْ يَكَلِّمَ مُوسَى فِي الدُّنْيَا : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ، وَيَكْفُرُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لَهُ لِسَانٌ وَحَنَجرَةٌ . . تَعَالَى اللَّهُ عَنْ أَنْ يَشْبَهَ خَلْقُهُ فِي شَيْءٍ . فَكَلَامُهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَكِنَّهُ خَاطِبُنَا بِمَا نَفْهَمُ وَنَعْقِلُ مِنَ الْأَحْرَفِ وَالْكَلِمَاتِ .

وما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ .

وما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ وَيُكْرَهُ، وَيَمْدُ وَيَنْتَقِمُ وَيَرْحَمُ، وَيُعَاقِبُ، مِمَّا وَصَفَ اللَّهُ ذَاتَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ . . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي حَقِّ اللَّهِ غَيْرُهَا فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، فَالْحُبُّ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ تَفَاعُلَاتٌ وَاضْطِرَابَاتٌ، وَلَكِنْ مَحَبَّةُ اللَّهِ لَيْسَ كَمِثْلِهَا شَيْءٌ .

وما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى كَمَا وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ هُوَ فِعْلُ اللَّهِ، وَعَرَفْنَا صِفَاتِ اللَّهِ، وَاثْبَتْنَا وَجُودَ اللَّهِ، نَكُونُ قَدْ حَقَّقْنَا الشَّرْطَ الْأَوَّلَ لِلْعِبَادَةِ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ الْعِبَادَةُ بِدُونِهَا .

وَشَرْطُ الْعِبَادَةِ الثَّانِي : أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ بِمَا شَرَعَ كَمَا أَخْبَرَنَا عَنْهُ رَسُولُهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ ، وَكُلَّ عَمَلٍ نَعْمَلُهُ نَحْقُقُ فِيهِ أَمْرًا، أَوْ نَجْتَنِبُ نَهْيًا، أَوْ نَفْعَلُ مَبَاحًا بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ فَذَلِكَ عِبَادَةٌ .

يقول عليه السلام - كما روى مسلم عن أبي ذر : « إِنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ ، يَصْلُونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ . قَالَ : « أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ . إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » .

غير أن الأوامر والنواهي منها المفروض فرضاً، ومنها المحرّم تحريماً، ومنها الواجب، ومنها المكروه، ومنها المندوب، ومنها المباح .

وعملية العبادة تقتضى فقهاً أولاً، لأنّ غير الفقيه قد يرتكب الحرام وهو يظن أنه يفعل حسناً، وقد يترك فرضاً من أجل نافلة ويظن نفسه أفضل خلق الله، وغير الفقيه قد يقع في المحرم من أجل تحقيق مندوب . كذلك الذى يجلس على مائدة الخمر بدعوى الدعوة إلى الله .

أما الفقيه فإنه يضع الأمور في مواضعها . لذلك قال عليه السلام : « مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهِهِ فِي دِينٍ » ^(١) ، فهو يعرف أن درء المفساد مقدّم على جلب المصالح . لقوله عليه السلام : « مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ^(٢) ، فيترك المحرمات الواضحات، ويعرف حكم الله في المشتبهات، ويتورع عما خفى عليه حكمه وقامت الشبهة فيه .

ثم مع ذاك يقيم الفرائض سواء أكانت فروض عين أو فروض كفاية إذا تعيّن لفرض الكفاية، أو غفل الناس عن شيء من ذلك .

(١) رواه البيهقى فى « الشُّعَب » عن ابن عمر وقدح فى سنده ورمز السيوطى لضعفه .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

ومع الفرائض يأتى بالواجبات، ويأتى مع هذا وهذا بالمندوبات، غير مضئٍ بسببها فريضة، ولكنه يأتى بها وقد أقام الفرائض كلها، وهو إذ يفعل هذا إنما يسير على طريق التقوى، وطريق المحبة بأن واحد، أما طريق التقوى فللآية التى صدرنا بها هذا البحث . وأما طريق المحبة فلقلوله عليه السلام فى الحديث القدسى : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ » (١) .

الصلاة عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والجهاد بأنواعه عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر عبادة، والكسب للإنفاق على النفس والعيال عبادة، والزواج عبادة، وتعليم الأولاد عبادة، ورعاية الجار والأرحام عبادة، ورعاية حقوق الوالدين عبادة، والتخصص فى علم ينفع المسلمين عبادة . وكل هذه منها ما هو الفرض، ومنها ما هو النافلة، والفريضة مقدمة دائماً، سواء فيما ذكرناه، أو لم نذكره، ثم تأتى بعد ذلك النافلة، والنوافل عدا ما ذكر كثير.

فقرآءة القرآن نافلة، وذكر الله نافلة، والدعاء نافلة، و . . .

ولعل أعلى نوافل العبادات بعد الفريضة : قرآءة القرآن، ثم الذكر والدعاء . لأن رسول الله ﷺ يقول : « الدعاء مخ العبادة » (٢)، ويقول فى الذكر : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى، قال : « ذكر الله » (٣) .

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) رواه الترمذى عن أنس .

(٣) رواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب « خير الأعمال » عن أبى الدرداء، ورواه

أحمد بإسناد حسن، وابن ماجه والبيهقى والحاكم وقال : صحيح .

ويقول فى الحديث القدسى عن القرآن : « مَنْ شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » (١) ، وقد مرَّ معنا ما فى هذه الثلاثة فيما مضى ، ونحيل على كتاب « الأذكار » لمن أراد استكمال الفضل فى هذه .

وهذه آثار تشير إلى نوافل أخرى نرجو من ذكرها بركة تطبيقها :

« إن رجلاً شكاً إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » (٢) .

« بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له » (٣) .

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » - وأحسبه قال : « وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر » (٤) .

« أربعون خصلة - أعلاها منيحة العنز - ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء نوال ثوابها ، وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة » . قال الراوى : « فعددت ما دون منيحة العنز من رد السلام وتشميت العاطس وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه ، فما استطعنا أن نصل إلى خمس عشرة خصلة » (٥) .

« على كل مسلم صدقة » ، قيل : أرأيت إن لم يجد؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قال : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قال : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : « يأمر بالمعروف - أو الخير » ، قال : أرأيت إن لم يفعل؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة » (٦) .

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى والدارمى كلاهما فى كتاب « فضائل القرآن » عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) رواه أحمد . (٣) رواه مسلم . (٤) رواه الشيخان .

(٥) أبهم تلك الخصال لمعنى هو أنفع من ذكرها ، وذلك - والله أعلم - خشية أن يكون التعيين والترغيب فيها مزهداً فى غيرها من شعب الخير ، وما أبهم الرسول ﷺ لا يتعلق أمل الغير ببيانها ، والمنيحة : هى ذات الدر تعطىها غيرك يحتلبها ثم يردّها عليك - والحديث رواه البخارى وأبو داود . (٦) رواه الشيخان .

« لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » (١) .

« كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (٢) .

إنَّ الذى يريد أن يسير إلى التقوى عليه أن يعرف الله، ثم يُقبل عليه بعمل الفرائض والإكثار من النوافل . وليحاسب نفسه حساباً متواصلاً، فلعله مُفَرِّطٌ فى فريضة ظاهرة أو باطنة .

وأهم شيء يمكن أن يُلَفَّتَ النظر إليه فى هذا الموضوع هو إحياء سُنَّة اعتكاف العشر الأواخر من رمضان فى المساجد، فإنها أقرب طريق للتحقق بالتقوى . إذ يستطيع بذلك الإنسان أن يجمع كل طُرق التقوى، مع قطع أى وارد سىء عن القلب بقطع أسبابه .

ومن لم يتيسر له أن يعتكف العشر الأواخر، فليعتكف غيرها فى أى أيام السنة فالرسول ﷺ كان إذا لم يعتكف فى رمضان اعتكف فى غيره .

إنَّ المربين عليهم ألا يغفلوا عن هذا الموضوع لما يترتب عليه من صلاح وإصلاح، خاصة إذا رافق الاعتكاف برنامج ملئ بالعلم والذكر والعبادة والتفكير والتذكر .

والله حسبنا ونعم الوكيل .

ولنتقل بعد إلى الطريق الثامن من طُرق المحبة . .

٨- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

(١) رواه الشيخان والترمذى وهذا لفظه .

(٢) رواه أحمد والشيخان عن أبى هريرة بلفظ مقارب .

ورد هذا المعنى وراء أكثر من نص فى القرآن كلها تطالبنا بنوع من أنواع العدل، وورد الأمر بالعدل والقسط فى أكثر من نص نستعرضها جميعاً لنرى جوانب هذا القسط الذى أمرنا به، والذى يحبنا الله من أجله .

(أ) قال الله تعالى فى معرض الحديث عن اليهود : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾^(١) فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿ [المائدة: ٤٢] .

فهذه الآية أمرتنا بالعدل فى الحكم حتى مع اليهود على عدائهم، وفساد أخلاقهم، وسوء ما نعرفه عنهم، ومع ذلك فلا نحكم بينهم إلا بالعدل، حتى ولو كان الطرف الآخر مسلماً، أو كان رئيس الدولة المسلمة، كما حدث يوم حكم القاضى المسلم لليهودى على أمير المؤمنين على، وهذه ظاهرة فريدة فى التاريخ، أن يكون العدل فوق القوة، حتى ليحكم قاضى المسلمين لأهل سمرقند الكافرين على جيش المسلمين، وينصاع الجيش، ثم يرضى أهل المدينة بالواقع .

(ب) ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿ [الحجرات: ٩-١٠] .

القتال بين المسلمين قد يقع بصور كثيرة : منها أن تختصم أسرتان أو قبيلتان، ومنها أن يقع القتال بين بلدين أو قريتين، ومنها أن يقع القتال بين قطرين، وفى كل حالة يقع فيها قتال يجب على بقية المسلمين أن يتدخلوا بالإصلاح . فإن رفض أحد الطرفين الصلح وقبول التحكيم، وقف المسلمون كلهم فى الطرف المقابل، فإن اتفقا على الصلح والتحكيم، وجب أن يكون الحكم عادلاً،

(١) السحت : هو المال الحرام .

والحاكمون عدولاً، وأن يصدرُوا حكمهم غير مراعين فيه إلا صفة العدل، وعلى الأطراف كلها القبول، وعدم قبول طرف بالعدل يجعله باغياً يستأهل أن يُحارب حتى يخضع للعدل والقسط . والمهم أننا إذا حكمنا في مثل هذه الظروف أن تكون قلوبنا مع العدل لا مع الهوى .

(ج) ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[المتحنة: ٨]

بعض ما حملت عليه الآية، أنها محكمة تتحدث عن كافرين نحن وإياهم على صلح لم ينقضوه، أو بيننا وبينهم ذمة ما نقضوها، أمثال هؤلاء أمرنا الله عز وجل ببرهم، والعدل إليهم، ويدخل في البر العطاء، ويدخل في العدل الوفاء لهم بما صالحناهم عليه، فمن أعطى أمثال هؤلاء العدل، أحبه الله عز وجل .

(د) ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]

فهذا أمر عام لنا إذا حكمنا، سواء أكان التحكيم برضا المتخاصمين، أو بتفويض من الدولة والعدل هو حكم الله المعروف من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، إذ بدون ذلك لا يكون عدل : ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [النور: ٥٠] ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] .

(هـ) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] .

روى الترمذى - وهذا لفظه - وأبو داود : عن أيمن بن خريم عن رسول

الله ﷻ : « أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله تعالى » ، ثم قرأ
النبي ﷺ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾
[الحج : ٣٠] .

ولمالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن : قدم رجل من العراق على عمر
فقال « والله جئت لك لأمر ما له رأس ولا ذنب ، فقال عمر : وما ذاك ؟ قال : شهادة
الزور ظهرت بأرضنا . قال : وقد كان ذلك ؟ قال : نعم . فقال عمر : والله لا يؤثر
رجل في الإسلام بغير العدول » .

ولمالك ومسلم وأبي داود والترمذي عن زيد بن خالد : « ألا أخبركم بخير
الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادة قبل أن يسألها » .

وفى صحيح البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر
الكبائر ؟ - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَعَقْوُوقُ
الْوَالِدَيْنِ - وَكَانَ مَتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ . وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فَمَا زَالَ
يَكْررها حَتَّى قَلْنَا : لَيْتَهُ سَكَثَ .

وَالْآيَتَانِ اللَّتَانِ صَدَرْنَا بِهِمَا هَذِهِ الْقِطْعَةُ أَشَارَتَا إِلَى نِقَاطِ حَسَاسَةٍ جَدًّا :

١- منها : من دواعي الهوى للانحراف عن الشهادة أن يكون المشهود
عليه نفس الإنسان أو أقرباءه . والله عزَّ وجلَّ أمرنا أن نؤدى الشهادة على حقها ،
ولو كان المشهود عليه النفس أو القريب .

٢- ومنها : قد يكون المشهود عليه غنياً أو فقيراً . وفى حالة الغنى قد
يحابه الإنسان فيشهد زوراً ، وفى حالة الفقر قد يحابه الإنسان رحمة به فيشهد
له زوراً ، والله عزَّ وجلَّ أمرنا أن نكون فوق العاطفة فى كليهما فلا نشهد إلا حقاً .

٣- اللئى بالشهادة بحرفها ، والإعراض عنها بعدم أدائها كل ذلك محرَّم .

٤- من عوامل شهادة الزور بغض المشهود عليه ، ولذلك أمرنا الله عزَّ وجلَّ
أنه مهما كان بغضنا لإنسان ألا نشهد عليه إلا بعدل .

٥- كما أمرنا بالعدل بشكل مطلق في الشهادة وغيرها على من نبغضه،
مهما كانت أسباب البغض، لأن العدل أقرب إلى التقوى .

(و) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ بِاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿

[البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]

أراد الله عز وجل من المسلمين أن يقيموا معاملاتهم على أساس لا تفسد معه أخوتهم، ولا يتنازعا فيما بينهم، وحيثما وجدت مظنة فساد أو تنازع قطع الله ذابرها، ووجه المسلمين إلى تركها، ولما كانت قضايا المال مما يقع فيه التنازع، فقد رتب الله لنا أمرها ترتيباً يخلصنا من فسادها .

فهاتان الآيتان طلبتا منا استحبابا :

إذا تداينا أن نكتب الدين عند كاتب يعرف أحكام الله، على أن يملئ الوثيقة المدين إن كان مستطيعاً وإلا فنائبه، وأن نشهد على ذلك شهوداً عدولاً،

رجلين أو رجلاً وامرأتين، والحكمة فى جعل شهادة امرأتين برجل كون المرأة كثيرة النسيان فى الأمور العامة لأنها لا تهتم بها، فمن أجل أن تُذكرها الأخرى، لأن صلة النساء بالنساء مشروعة وهى أوثق وأسهل على خلاف الرجال إن لم يكونوا محارم، فقد يجدون صعوبة فى الوصول إلى المرأة لتذكيرها. كما أمرنا الله فى الآية أن نؤدى حق الشهادة، وألا نسبب ضرراً للكاتب والشهيد بعدم ملاحظة وضعهما... أثناء الطلب إليهما شهادة أو كتابة، وقد وصف الله عز وجل هذا بأنه أقسط عند الله، وأقوم للشهادة، وأدنى ألا ترتابوا، وفى الآية معان أخرى وإنما ذكرناها وأشرنا إلى بعض معانيها لكونها لها علاقة بالقسط الذى يحب الله أهله.

ونسأل الله أن يجعلنا من المقسطين .

٩- « إن اله يحب العبد المحترف » (١) :

وللستهة إلا أبا داود عن رسول الله ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعهُ » .

وكان عمر إذا أعجبه الرجل يسأل : هل له حرفة، فإذا قيل : لا، سقط من عينه، وهذا كله يشير إلى أن جزءاً أساسياً من تربية المسلم أن يتعلم حرفة من الحرف يكتسب بها، وهذه قضية يجب أن يلاحظها الأب المسلم فى تربية أولاده، فيعلمهم حرفاً، وتلاحظها الدولة المسلمة فى تربية أبناء المسلمين، وتلاحظها الجماعات المسلمة فى الدول الكافرة، فتفرض على كل مسلم أن يتابع اختصاصاً حتى نهايته، ومع الاختصاص أن يتعلم صنعة حرة . كما تفرض على كل مسلم -ولو كان موظفاً فى الدولة - أن يتعلم حرفة من الحرف، أو يشارك فيها حتى لا تكون الوظيفة أداة ضغط عليه، تضطره للنفاق أو للممالة أو لترك دينه .

كما ينبغى أن يتعاون المسلمون من أجل إيجاد حرف يتعلم بها أولاد

(١) رواه الطبرانى فى « الكبير » و « الأوسط » بضعف .

المسلمين، كما ينبغي أن يتعاون المسلمون لتأمين المال اللازم لمن يريد أن يحترف من المسلمين، والدولة الإسلامية حال وجودها تتبنى هذا كله فتنشؤه أو تساعد أو تنميه.

* * *

١٠- وأخيراً :

لقد ذكرنا الآن تسع فقرات كل فقرة تشرح طريقاً للمحبة، وهناك آيات أخرى ذكرت طرقاً للمحبة كقوله تعالى في وصف ذاته : ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، ﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، إلا أنها دخلت في غيرها : صفة الصبر دخلت في صفات المتقين، وصفة التوكل دخلت في أكثر من طريق .

ونحب هنا أن نشير إلى نقطة هي :

إنَّ هذه الطرق متداخل بعضها ببعض، حتى لو أراد الإنسان أن يدخلها في واحدة لاستطاع . فمثلاً : صفة الصبر يدخل فيها الصبر عن الشهوات والشبهات، والصبر على الطاعات، والصبر على البلاء والابتلاء، وهذه الثلاثة يمكن أن يدخل فيها كل ما مرَّ . وصفة التوبة يدخل فيها ذكر الذنوب التي تكون إما أثراً عن مخالفة أمر . . أو ارتكاب نهى، ويمكن أن يدخل فيها كل ما مرَّ، وصفة الإحسان والتقوى صفات جامعة يمكن أن تدخل فيها كل الصفات، ولكن ذكرنا كل صفة على حدة لسهولة التطبيق العملي، ولتوضيح الطريق، ولنحاول أن نحصل من كل طريق أعلاه، فإن لم نستطع فعلى الأقل أن نحصل حداً أدنى بحيث تنطبق علينا الصفة .

ومحبة الله ليس كمثله شيء، فليست كمحبتنا، إنما هي محبة تليق بجلال الله وكماله وتنزيهه، وقد حدثنا رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن آثارها :

« فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه، وإن استعاذنى لأعيدنه » (١) .

* * *

(ج) محبة الإنسان لله . . . ويحبونه

نكتفى فى هذه الفقرة بنقل أقوال بعض أهل السير إلى الله فى محبة الله والشوق إليه، ننقلها بلفظها أو بمعناها - وكلُّ تحدّث ما أحس، ولكلُّ تجرّبه، والمسألة أكبر من العبارات، ومن سار على ما ذكرناه ذاق قلبه طعم المحبة . وإنما هذه عبارات يعرف الإنسان بها هل حصل ما حصله غيره من نتائج مجاهداته، فأشرقت فى قلبه العواطف العليا التى لا يحسها إلا الصديقون، وقد حجب الله عنها أكثر الخلق فهم عنها غافلون : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

[البقرة: ١٦٥]

قالوا :

المحبة : هى الميل الدائم بالقلب الهائم .

المحبة : إثثار المحبوب على جميع المصحوب .

المحبة : موافقة الحبيب .

المحبة : مواطاة القلب لمرادات الرب .

المحبة : استكثار القليل منه، واستقلال الكثير من نفسك .

الحب : معانقة الطاعة ومباينة المخالفة .

حقيقة المحبة : أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء .

(١) قطعة من حديث قدسى رواه الشيخان عن أبى هريرة .

المحبة : أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

المحبة : إثارة المحبوب .

المحبة : سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب .

المحبة : ميلك إليه بكليتك ثم إشارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً، ثم عملك بتقصيرك في حبه .

ولا بد هنا من الإشارة إلى ناحية هي : أن محبة الله تقتضى منا أن نحب من أحبه الله، ومن أحبه الله أكثر نحبه أكثر، ولا يكتمل الإيمان إلا بهذا . فالله عزّ وجلّ يحب رسوله محمداً ﷺ أكثر من كل خلقه، فمقتضى محبتنا لله أن نحب رسوله ﷺ أكثر من محبتنا لأى شيء آخر من المخلوقات . وفى ذلك يقول عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (١) ، ولا نعرف محبة الله لإنسان إلا بنص أو دليل .

وهذه موازين دقيقة يجب أن تلاحظها قلوبنا :

فالله أحب إلينا من كل شيء : « واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ » (٢) .

ورسول الله ﷺ أحب إلينا من كل خلق الله . ورسول الله أحب إلينا من غيرهم وأبو بكر أحب إلينا من سواه بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعمر يأتى بعده، وبعده عثمان، وبعده على . . وهكذا بنسبة محبة الله للإنسان نحبه إذا عرفنا ذلك، ولا نعرفه إلا بنص .

والصحابية جميعاً نجلهم ونحترمهم لورود النصوص الكثيرة بفضلهم . وهل نحن إلا فى صحائفهم . فهم أفضل الأمة بعد رسولها، ولا يلحقهم بالفضل

(١) رواه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى الدرداء بلفظ قريب وقال : حديث حسن غريب .

لاحق . . . كيف ورسول الله ﷺ يقول : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه » (١) .

والعشرة المبشرون بالجنة منهم أحب إلينا من غيرهم لورود خصوصيتهم، وأهل بدر منهم أحب إلينا من غيرهم، ويأتى بعدهم أهل أحد، ويأتى بعدهم أهل بيعة الرضوان، وجيل التابعين أحب إلينا من أى جيل آخر أتى بعدهم، وجيل تابعى التابعين يأتى بعد التابعين فى المحبة والتقدير لورود النص فى ذلك .
ومسك الختام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى لحب الله إياى، وأحبوا آل بيتى لحبى » (٢) .

* * *

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد عن أبى سعيد الخدرى .
(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس فى كتاب « مناقب أهل بيت النبى ﷺ » تحت رقم (٣٧٩٢) بلفظ : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى » اهـ .

الفقرتان الثالثة والرابعة

فى الصفة الثالثة والرابعة

الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين

﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] فسرت هذه الآية آية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

مما يدل على أن الذلة على المؤمنين أثر من آثار الرحمة بهم، والعزة على الكافرين أثر من آثار الشدة عليهم، ويؤكد أن الذلة على المؤمنين أثر من آثار الرحمة بهم . قوله تعالى بالنسبة للوالدين : ﴿ وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

فإذا جعل الله الذلة على الوالدين أثراً من آثار الرحمة، فكذلك بالنسبة للمؤمنين عامة فيما بينهم، رحمتهم على بعضهم توجب ذلتهم بعضهم لبعض، وعلى هذا سنذكر فى هذا القسم فقرتين :

الفقرة الأولى : الذلة على المؤمنين ومظاهرها .

الفقرة الثانية : العزة على الكافرين ومظاهرها .

ونبدأ بالفقرة الأولى :

الفقرة الأولى : الذلة على المؤمنين ومظاهرها :

قلنا إن الذلة على المؤمنين من آثار الرحمة بهم، وأعلى ما تمثلت به هذه الرحمة سلوك رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذا الرسول هو الأرحم، لأنَّ رسول الله ﷺ ما أمرَ أمراً إلا حقق غايته،
والله عزَّ وجلَّ قد أمر رسوله بقوله : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الحجر: ٨٨].

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ
مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦].

والأمر بخفض الجناح أمر بالرحمة كما رأينا، وقد شهد الله لرسوله ﷺ
فقال : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٦] ، الآن سنبدأ باستعراض
مظاهر هذه الرحمة بالمؤمنين في أوامر القرآن وفي توجيهات الرسول ﷺ القولية
والعملية .

(أ) من مظاهر الرحمة بالمؤمنين ما أشار إليه الله جلَّ جلاله في صفة
رسوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالعفو عن المؤمنين والاستغفار لهم، واستشارتهم، كلها أخلاق أمر بها
رسول الله ﷺ في علاقته مع المؤمنين، وهى تفسر الأمر بخفض الجناح لهم والله
أعلم، وقد مرَّ معنا فى بحث « الرسول » فى الفصل الأول منه أمثلة عملية من
حياة الرسول ﷺ تبين لنا كيف كان فى الذروة العليا من تطبيقه لهذا الأمر .

(ب) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين التواضع لهم :

قال عليه السلام : « تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد
على أحد » (١) .

فمَن افتخر على أحد من المؤمنين بنسب أو جاه أو مال أو ولد فقد صفة

(١) رواه مسلم فى كتاب « الجنة » باب « الصفات التى يُعرف بها فى الدنيا أهل النار وأهل الجنة »، وابن ماجه فى كتاب « الزهد » باب « البراءة من الكبر والتواضع »، وأبو داود فى كتاب « الأدب » باب « فى التواضع »، ثلاثهم بأسانيدهم إلى عياض بن حمار رضى الله عنه .

التواضع، ومن بغى على أحد من المؤمنين فى عرض أو مال أو نفس فقد صفة التواضع، وبالتالي لا يكون متحققاً بمظهر من مظاهر الرحمة .

(ج) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إزالة ما يؤذيهم :

قال أبو برزة : قلت : يا نبي الله، علّمنى شيئاً ينفعنى قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » (١) .

وقال عليه السلام : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله تعالى له فغفر له » (٢) .

(د) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن نلقاهم بوجه طلق، وأن نكلمهم بالكلام الطيب .

يقول عليه السلام : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (٣) .

ويقول عليه السلام : « تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة » (٤) .

« اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فيكلمة طيبة » (٥) .

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى برزة .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب « أبواب صلاة الجماعة » باب « فضل التهجير إلى الظهر »، ورواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب « الأدب » باب « فضل إزالة الأذى عن الطريق » ورواه الترمذى أيضاً عن أبى هريرة فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى إمطة الأذى عن الطريق » مع اختلاف بسيط .

(٣) رواه مسلم واللفظ له عن أبى ذر رضى الله عنه فى كتاب « البر والصلة والأدب » باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء » والترمذى عن جابر بن عبد الله فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر »، مع اختلافات فى اللفظ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) قطعة من حديث رواه الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى صنائع المعروف »، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب، ورواه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه عن أبى الدرداء .

(٥) رواه البخارى واللفظ له عن عدى بن حاتم فى كتاب « الأدب » باب « أطيب الكلام »، ورواه مسلم وأحمد فى مسنده .

أما اللعن والسب والشتيم ورفع الصوت على المؤمنين والمجادلة، فكل ذلك ليس من أخلاقهم : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»^(١).
« لا تُمارِ أخاك ولا تمازحه ولا تعدّه موعداً فتخلفه »^(٢).

(هـ) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين : إنظار معسرهم، وتفريج كربتهم، وإجابة ملهوفهم .

يقول عليه السلام : « على كل مسلم صدقة » ، قيل : أرأيت إن لم يجد؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » . قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف »^(٣).

« مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »^(٤).

« مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ

(١) رواه الترمذى واللفظ عن عبد الله بن مسعود فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى اللعنة » ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، ورواه البخارى فى « الأدب المفرد » باب « ليس المؤمن بالطعان » تحت رقم (٣١٢) ، ورواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه فى « الإيمان » ، وقال الدارقطنى : مرفوعاً وموقوفاً ، والوقف أصح .

(٢) رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى المراء » تحت رقم (١٩٩٦) ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقى : يعنى من حديث ليث بن أبى سليم ، وضعفه الجمهور قال الذهبى : فيه ضعف من جهة حفظه ، ورمز السيوطى لضعفه . أقول : ليث بن أبى سليم هذا قال أحمد : مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس ، وقال ابن معين والنسائى : ضعيف ، وقال ابن حبان : اختلط فى آخر عمره ، وقال ابن معين أيضاً : لا بأس به . مات سنة ثمان وأربعون وهو من الطبقة السادسة .
١. هـ. (المغنى . فى « الضعفاء » للذهبى بتحقيق الدكتور نور الدين عنتر ، تحت رقم ٥١٢٦) .

(٣) رواه أحمد والشيخان والنسائى عن أبى موسى الأشعرى بلفظ متقارب .

(٤) قطعة من حديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

زاد فليعد به على مَنْ لا زاد له ، فذكر أصنافاً من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل .

(و) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الرفق بهم :

يقول عليه السلام : « إنَّ الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نُزِعَ من شيء إلا شانه » (١) .

« مَنْ يُحرم الرفق يُحرم الخير كله » (٢) .

« كان رسول الله ﷺ يتخلف في السير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم » (٣) .

وقال عليه السلام : « إذا صَلَّى أحدكم للناس فليخفف ، فإنَّ فيهم الضعيف والسقيم والمريض وذا الحاجة ، وإذا صَلَّى لنفسه فليُطَلِّ ما شاء » (٤) .

وقال : « إنني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّزُ في صلاتي لما أعلم من وَجْدِ أمه من بكائه » (٥) .

(ز) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن يحب لهم ما يحبه لنفسه من الخير :
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٦) .

« لا يَؤُمُّ الرجلُ قوماً فيخص نفسه بالدعاء دونهم فإن فعل فقد خانهم » (٧) .

(٢) رواه مسلم .

(١) رواه مسلم .

(٤) رواه الستة .

(٣) رواه أبو داود .

(٥) رواه أحمد والشيخان وابن ماجه عن أنس .

(٦) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه . ورواية مسلم : « حتى يحب

لأخيه ... » أو قال : « جاره » .

(٧) قطعة من حديث رواه الترمذي عن ثوبان رضي الله عنه في كتاب « الصلاة » باب

« ما جاء في كراهية أن يخصص الإمام نفسه بالدعاء » بلفظ : « ... ولا يؤم قوماً فيخص نفسه بدعوة

دونهم ، فإن فعل فقد خانهم ... » الحديث ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه الإمام

أحمد وأبو داود في كتاب « الطهارة » ، وابن ماجه قسماً منه في كتاب « الإقامة » .

(ح) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين ما أشير إليه بالأحاديث التالية :

« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » ^(١) .

« مَنْ أَدْخَلَ السَّرُورَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرِ اللَّهُ لَهُ جِزَاءٌ دُونَ الْجَنَّةِ » ^(٢) .

« لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا . الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ^(٣) .

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ » ^(٤) .

(ط) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين القيام بحقوقهم :

يقول عليه السلام : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ : إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَاجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمْدُ اللَّهِ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ » ^(٥) .

« الْمُسْتِشَارُ مُؤْتَمَنٌ » ^(٦) ، « مَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ » ^(٧) . « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ، قلنا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لِمَنْ ؟ قَالَ : « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَتِهِمْ » ^(٨) .

(١) قطعة من حديث رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أبي شريم عن أبي هريرة .

(٢) رواه الطبراني عن عائشة رضي الله عنها بلفظ : « مَنْ أَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُرُورًا لَمْ يَرْضَ اللَّهُ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٤) رواه أبو داود في كتاب « الأدب » من طريق سالم بن عمر عن أبيه بلفظ قريب .

(٥) رواه البخاري في « الأدب » ، ومسلم في « الصحيح » عن أبي هريرة .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » عن سمرة بن جندب ورمز السيوطي لصحته .

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٨) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » (١) .

(ى) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين عدم ترويعهم وعدم الإضرار بهم أو المكر: قال عليه السلام : « لا يأخذنَّ أحدكم عصا أخيه لاعباً ولا جاداً، فمن أخذ عصا أخيه فليردها إليه » (٢)

حدثنا أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل كان معه فأخذه ففزع. فقال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً » (٣) .

« من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة حتى ينتهى » (٤) .
ومن أدب المسلم إذا قدّم سلاحاً لأخيه أن يُقدّمه إليه معكوساً : النصل بيد المعطى .

« إذا مرَّ أحدكم فى مسجدنا أو سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشىء » - أو قال - : « ليقبض على نصالها » (٥) .

« ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به » (٦) .

(١) رواه الترمذى واللفظ عن أبى هريرة فى كتاب « الاستئذان والآداب » باب « ما جاء فى إفشاء السلام »، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح، ورواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن » بلفظ : « لا تدخلوا الجنة... »، ورواه ابن ماجه فى كتاب « باب إفشاء السلام »، وأبو داود فى « الأدب »، والطبرانى عن ابن مسعود .

(٢) رواه أبو داود واللفظ له فى باب « من يأخذ الشئ على المزاح »، ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً » مع اختلاف فى اللفظ يسير .

(٣) رواه أحمد فى مسنده، وأبو داود فى كتاب « الأدب » من حديث عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن رجال من الصحابة، قال الزين العراقى : حديث حسن .

(٤) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

(٥) رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى من كتاب « البر والصلة والآداب » باب « أمر من مرَّ بسلاح فى مسجد أو سوق... » وروى هذا الحديث غير واحد .

(٦) رواه الترمذى عن أبى هريرة عن أبى بكر الصديق .

« مَنْ ضَارَ مُؤْمِنًا ضَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَمَنْ شَاقَ مُؤْمِنًا شَاقَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » (١).

(ك) ومن الرحمة بالمؤمن عدم الشماتة به وعدم هجرانه :

« لَا تَظْهَرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فِيعَافِيهِ اللَّهُ وَيَبْتَئِيكَ » (٢).

« لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرَضُ هَذَا وَيُعْرَضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » (٣).

(ل) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الاهتمام بشأنهم والإحساس بما يصيبهم :

« مَنْ أَصْبَحَ وَلَمْ يَهْتَمِّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » (٤).

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى » (٥).

(م) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إذا كانوا في دار الحرب أن نحارب مَنْ يضطهدهم، وأن ننصرهم إذا استنصرونا إلا على قوم بيننا وبينهم ميثاق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٥-٧٦].

(١) رواه الترمذی.

(٢) رواه الترمذی عن وائلة وقال: حسن غريب.

(٣) قطعة من حديث رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذی عن أنس.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» عن أنس مرفوعاً، وهو عند الطبراني وأبي نعيم في «الحلية» بلفظ: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ».

(٥) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير، وهو عند البخاري بلفظ قريب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَا يَتَهُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

(ن) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين نصرتهم والقتال دونهم، كأن هاجم الكافرون بلاداً إسلامية فعلى أهلها ومن جاورهم أن يحاربوا حتى يستنقذوهم، وإذا كان لا يكفي لاستنقاذها إلا أن يقاتل المسلمون جميعاً، فعل المسلمون جميعاً أن يقاتلوا .

(س) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين تخليصهم من الظالمين والكافرين إذا تسلطوا عليهم بشكل من الأشكال، سواء أكان ذلك في بلد، أو قطر، أو بشكل عام : « المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم »^(١)، ومساعدتهم بكل الوسائل الجائزة والممكنة .

هذه فقرات عامة ومختصرة، اقتصرنا فيها في الغالب على ذكر النصوص . يتبين لنا كيف نتحقق بصفة الذلة على المؤمنين، والواقع أن كل آية أو حديث أو حكم فقهي له علاقة بعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض يدخل تحت هذا الأصل، غير أن هذا يقتضى دراسة شاملة موسعة للكتاب والسنة، وأقوال العلماء لسنا الآن بسبيلها، وإنما نحن الآن بسبيل عرض أمنيات المسائل لتتحقق بأمنيات الأخلاق، وإذا كان ما قدمناه هنا هدفنا فيه أن نتحقق بالذلة على المؤمنين، فإننا نحب أن نختمه بكلمة هي :

(١) رواه الديلمي بلا سند عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا ممدوداً في قرية »، وهو عند ابن أبي شيبة في مصنفه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن ابن عمرو به، روى موقوفاً من كلام سيدنا عمر رضي الله عنه في رسالة بعثها إلى أبي موسى حين تولى له القضاء. وقد ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ لم تمض له مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد، وذكره ابن خيثمة فأسنده، وأخرجه أحمد في مسنده مسنداً جاء فيه : « ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس » اهـ .

إِنَّ أَعْلَى مَا تَتَمَثَّلُ بِهِ الذَّلَّةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِدْمَتَهُمْ، فَمَنْ صَارَ إِلَى حَالَةِ طَاوَعْتِهِ بِهَا نَفْسَهُ عَلَى خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ كِبَاراً وَصُغَاراً، وَنِسَاءً وَرِجَالاً، عَجْزَةً وَشِوْخاً . أُرَامِلُ وَفُقَرَاءُ، أَى نَوْعٍ مِنَ الْخِدْمَةِ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى الذَّرْوَةِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ، حَتَّى قَالَ أَهْلُ السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ : إِنَّ خِدْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُ طَرِيقٍ إِلَى اللَّهِ .

وَقَدْ خَدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَمَا كَانَ كِبَارُ الصَّحَابَةِ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ خِدْمَةِ الْعَجْزَةِ وَالشِّوْخِ وَالْأُرَامِلِ بَلْ كَانُوا يَتَسَابِقُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَيَخْدُمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَلَا يَحْسُونَ بِأَدْنَى حَرَجٍ .

وَلِيَمْرَنَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ مَهْمَا كَانُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَهِّرُ نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ قَسْوَةٍ . وَلَا نَنْسَى أَنْ إِطْعَامَ الطَّعَامِ لِلْمَسْكِينِ وَالْمَسْحَ عَلَى رَأْسِ الْيَتِيمِ، يَجْعَلَانِ فِي الْقَلْبِ رَحْمَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَشَيْءٌ آخِرٌ نَشِيرُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ هُوَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْطُونَ رَحْمَتَهُمْ وَذَلَّتْهُمْ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَثَلًا تَجِدُ أحياناً مَرِيدِي شَيْخٍ يَتَرَا حُمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ غَلَاظُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتْبَاعُ جَمْعِيَةٍ مَا يَتَرَا حُمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُمْ شَدَادُ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَذَا مِنْ فُسَادِ التَّرْبِيَةِ : ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: ١٤] ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ رَحِيمٌ بِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ، ذَلِيلٌ عَلَى كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ لَمْ يَشَارِكُوهُ فِي بَعْضِ مَا هُوَ عَلَيْهِ .

* * *

الفقرة الثانية : العزّة على الكافرين ومظاهرها

إِنَّ الْعَالَمَ فِي النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ : دَارُ حَرْبٍ، وَدَارُ إِسْلَامٍ، وَلَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ مَوْقِفٌ، وَمِنَ الْكَافِرِينَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَوْقِفٌ، وَكِلَا الْمَوْقِفَيْنِ تَعْبِيرٌ عَنْ شِدَّتِنَا وَعِزَّتِنَا عَلَى الْكَافِرِينَ . وَهَذَا نَحْنُ نَسْتَعْرِضُ مَظَاهِرَ شِدَّتِنَا وَعِزَّتِنَا عَلَى الْكَافِرِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ، ثُمَّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ . .

(أ) مظاهر شدتنا على الكافرين في دار الحرب :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤] .
وقال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالعلاقة ما بيننا وبين الكافرين، الأصل فيها الحرب حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون، وأخطأ من تصور أن الأصل في علاقتنا مع دار الحرب السلام، والله يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾

[محمد: ٣٥] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١] ، فالسلم هنا إما الإسلام أو الخضوع بالجزية، أو السلم المؤقت بمعاهدة .

إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا هو الأصل ، وما عدا ذلك فأحوال اضطرارية من معاهدات جانبية أو تعايش سلمى مؤقت .. ونفعله إما لمصلحة، أو حتى لا ندخل حروباً متعددة، أو لأننا ضعفاء . . .

(ب) مظاهر عزتنا على الكافرين في دار الإسلام :

إذا ما رضخ الكافرون للجزية جاز لنا أن نعقد لهم عقد ذمة، والفقهاء مختلفون حول من يجوز أن نعقد له عقد الذمة ، ومن لا يجوز ، والإمام يرى

ما فيه المصلحة . فإذا ما عقدنا لكافر عقد الذمة شرطنا عليه شروطاً تضمن عزّتنا، وأعطيناه فى مقابل ذلك العدل الكامل . يقول فقهاء الحنابلة : « وعلى الإمام حفظ أهل الذمة ومنع مَنْ يقصدهم بأذى من المسلمين والكفار، واستنقاذ مَنْ أسِرَ منهم بعد استنقاذ أسارى المسلمين واسترجاع ما أخذَ منهم لأنهم بذلوا الجزية لحفظهم وحفظ أموالهم، وإن أخذ منهم أهل الحرب مالاً ثم قدر عليه المسلمون ردُّ إليهم إذا علِمَ به قبل القسمة كمال المسلم، وحكم أموالهم فى الضمان حكم أموال المسلمين » .

ويقول فقهاء الحنفية : « مسلم أراق خمر ذمى أو قتل خنزيره وجب عليه الضمان، أما إذا كان الخمر والخنزير ملك مسلم فلا ضمان عليه » .

أما شروطنا عليهم فتزداد أو تنقص تبعاً لرأى الإمام، وكل هذه الشروط تكون لتأمين خضوعهم للمسلمين، واعترافهم بسلطتهم عليهم، وذلتهم للمسلمين . غير أنّ هناك مظاهر من العزة على الكافرين أساسية لا يجوز الإخلال بها فى وضع إسلامى سليم :

(أ) فمن مظاهر هذه العزة الأساسية دفعهم الجزية، وهى أول وأعظم مظهر من مظاهر اعترافهم بالخضوع لسلطان الله على بساتنتها، والجزية عبارة عن ضريبة سنوية يؤذيها كل كافر فى أرضنا ما لم يكن صغيراً أو امرأة أو راهباً معتزلاً الناس أو . . . ممن استثناهم الفقهاء، ومقدارها بسيط جداً يُعرف فى محله، وتختلف باختلاف الغنى والفقر، ولا تُقبل من الكافر إلا أن يدفعها بيده دون جلوس من قبله أو قيام من المسلم .

(ب) ومن مظاهر هذه العزة الأساسية التزام أحكامنا، وفى ذلك تفصيل . يقول فقهاء الحنابلة : « وعلى الإمام أخذهم بحكم الإسلام فى نفس ومال وعرض، وإقامة حد فيما يحرمونه كزنا وسرقة، لا فيما يحلونه كخمر وأكل خنزير ونكاح ذات محرم، وعقد فاسق، وإن شاءوا فى القضايا التى تخصهم الاحتكام إلى بعضهم فلا حرج، وإن احتكموا إلينا فلنا الحكم بشرعنا أو ترك الحكم » .

وهذا الكلام فى كافرين يعيشون فى أرض الإسلام قد عقدنا معهم عقد الذمة، فذلك مظهر عزتنا وشدتنا عليهم، ولكن يمكن أن يكون فى دار الإسلام كافرون غير ذميين، كمرتدين عن الإسلام، أو زنادقة، أو مبتدعة كفروا ببدعتهم، فما مظهر عزتنا على هؤلاء وشدتنا عليهم؟

الكافر فى أرض الإسلام ما لم يكن ذمياً فهو حربى أو مرتد، والحربى إما مستأئماً أو لا، فإن كان مستأئماً جرت عليه أحكام الاستئمان، وإن كان حربياً فهو مباح الدم والمال، وتجوز فيه أشياء أخرى تُعرف فى محلها من كتب الفقه .

أما المرتد . . فهو الراجع عن دين الإسلام بإجراء كلمة على لسانه بعد الإيمان، وإنما ذكرنا الكلام ولم نذكر غيره - مع أن الإنسان قد يرتد بأشياء أخرى - ذكرنا بعضها فى نواقض الشهادات من كتاب « الإسلام » - لأن كلام الإنسان هو السبيل الوحيد لمعرفة .

والحكم بالردة حكم خطير، لذلك نجد الفقهاء يحتاطون فيه، والمسألة فى أبسط صورها هكذا : هناك مسائل حكم العلماء بالإجماع على صاحبها بالردة، وهناك مسائل اختلفوا فى الحكم على صاحبها بالكفر . فما أجمع عليه أنه ردة يُقتل صاحبه بلا تردد إذا أصرَّ عليه، وما لم يكن كذلك فالأمر متروك إلى الإمام، إن شاء قتل، وإن شاء عزَّر بغير القتل، وها نحن ننقل بعض الأحكام فى هذه الشؤون، واخترنا أن ننقلها من مذهب الحنفية .

المرتدون فى رأى الحنفية أنواع، ولكل نوع حكم :

(أ) النوع الأول : نوع وُجدت عنده شبهة مكفرة اعتقدها وآمن بها، فمثل هذا يُحبس ثلاثة أيام ويناقش خلالها من أهل العلم حتى تقوم عليه الحجة، فإن رجع عنها وتاب عُفى عنه، وإلا قُتل . وهذا العرض والنقاش مستحب استحباباً، حتى لو قُتل بدونه فلا حرج ولا إثم، ولكن لنفرض أنه تاب ثم بعد العفو عاد إلى ما قال . فكذلك يُسجن ويناقش فإن تاب وإلا قُتل، ولكنه فى هذه المرة يُعزَّر،

فإن عاد ثالثة فقد قيل : بأنه فى الثالثة يُقتل بلا تردد، وقيل : إن تاب لا يُقتل، ولكن يُحبس حتى تظهر عليه آثار الصدق فى التوبة، وهذا التفصيل فى كل مرتد تُقبل توبته .

(ب) النوع الثانى : نوع ارتد بسب رسول الله ﷺ أو ما يشبه ذلك كالاستهزاء، فهذا ارتد وجمع مع الردة حق رسول الله ﷺ ، فهذا يُقتل بلا استتابة على القول الراجح، واعتبر بعضهم ساب أبى بكر وعمر من هذا الباب، والفرق واضح، ولكن لا شك أن للإمام أن يقتل ساب الشيخين ولا حرج .

(ج) النوع الثالث : نوع ارتد ودعا إلى ردته، فهذا يُقتل هو وأتباعه إذا انتشر ما دعا إليه، حتى يُستأصلوا، هذا إذا كانت المسألة من نوع الردة، أما إذا كانت بدعة لا توصل صاحبها إلى الكفر، فإن الرأس فيهم يُقتل ، أما الأتباع فلا يُقتلون، ولكن يعاملون بحكمة .

(د) النوع الرابع : نوع إن تاب قبل أن نعرفه ونقبض عليه يمكن أن تُقبل توبته، ولكن إن قبض عليه وهو على ما هو عليه أو لم نعرف له توبة سابقة، فهذا يُقتل بلا تردد . . وقد عدَّ الحنفية عشر حالات تنطبق عليها القاعدة الأخيرة، منها الردة، ومنها ذنب لا يجوز للإمام معه إلا القتل .

أصحاب هذه الحالات هم :

- ١- الزنديق . ٢- الكاهن . ٣- الملحد . ٤- الإباحى .
- ٥- المنافق . ٦- منكر بعض الضرورات باطناً . ٧- قُطَاع الطريق .
- ٨- أهل الأهواء . ٩- الساحر . ١٠- الكافر بسب نبي وقد مرَّ .

والزنديق هو الذى لا يتدين بدين، والكاهن من يتعاطى الخبر عن الكائنات فى المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار، وقال الخطابى : هو الذى يتعاطى معرفة مكان المسروق والضالة، والملحد هو من مال عن الشرع القويم إلى جهة من جهات الكفر، والإباحى هو الذى يعتقد إباحة المحرمات، والمنافق هو الذى يُبطن عدم

الاعتراف بنبوة سيدنا محمد ﷺ وينكر بعض الضرورات باطناً، أى الذى يستحل شيئاً محرماً كالخمر ويتظاهر بتحريمه، وأهل الأهواء - يعنى الباطنية - أهل البدع المكفرة كالغالية من الشيعة والقرامطة .

هذه هى الصفة الأساسية الرابعة للمسلم التى بدونها يكون إنساناً تافهاً لا قيمة له عند الله والصالحين من عباده، ولا قيمة له فى ميزان الحياة ومقاييسها . إنَّ الجريمة كل الجريمة ألا يسير المربون فى الأمة الإسلامية على هذا الطريق الوحيد، طريق إحياء الصفات الأساسية للمسلم بكمالها وتماها، على استقامة من كتاب الله وهديه . إنَّ المسلمين مكلفون من الله باستئصال الفساد، وعليهم أن يفعلوا، ولا يمكن أن تُعتبر حكومة إسلامية صالحة، حكومة لا تستأصل المفسدين فى الأرض بلا شفقة ولا رحمة، ولا يمكن أن يُعتبر المسلمون غير آثمين والمفسدون يعيشون فى أرض الإسلام فساداً .

* * *

الفقرة الخامسة - فى الصفة الخامسة

الجهاد فى سبيل الله دون خوفٍ من لوم اللائمين

(١)

سنتحدث فى هذه الفقرة عن الجهاد وأنواعه، هذا الجهاد لا يقوم به حق القيام ولا يتحقق بمقتضياته إلا إنسان لا تأخذه فى الله لومة لائم، إذ المشاركة فى عملية الجهاد تقيم الدنيا على صاحبها وتقعدها، وتتحرك كل القوى ضد أصحابها . فتبدأ التهم، وتبدأ الحرب اللسانية، والحرب الفكرية، وتبدأ الانتقادات من كل جانب، وتجد أصناف الكافرين يوجهون هذه المعارك كل حسب وجهة نظره وبطرقه الخاصة، ويتأثر من هذا كله الناس حول المجاهد، فيقولون ما يقوله الآخرون، وتبدأ عملية تثبيط رهيبة، وعمليات تعنيف مصدرها القريب والبعيد، الأب والزوجة، والأخوات والأقارب، والجيران والأرحام، ويزيد الأمر ضرماً أن الجهاد له تكاليفه الجسمية والمادية . فالذين يقيسون الأمور بموازين الدنيا يدخلون فى المعركة ضد المجاهدين بكل لسان .

أمام هذا كله فإنه لا يستطع أن يثبت على طريق الجهاد إلا الذى تحرر من لوم اللائمين فى ذات الله، ومن أجل الله، وفى سبيل الله .

فهو يجاهد بيده وبلسانه وبماله وبكل وسيلة مشروعة، والناس لا يهضمون جهاده، وهو لا يبالي، يتحمل الضغوط كلها، ضغط المجتمع الذى يستخف ولا يقبل الجهاد فى سبيل الله، وضغط الفكر العالمى الذى يعتبر أن عملية الجهاد فى سبيل الله فات دورها، وضغط الضمير العالمى الكاذب الذى قر من الله . ولكنه لا يبالي بهذا كله فى سبيل الله .

وتوجه له الشيعية، والرأسمالية، والصهيونية، والماسونية، والتبشير،
والصليبية، والدول الكبرى والصغرى كل سهام فى جعبتها، ولكنه يمضى فى
جهاده الربانى، لا يخاف لوم اللائمين، وتبدأ المؤمرات عليه من كل جانب . على
وظيفته، وعلى تجارتها، وعلى أسرته، وعلى من يلوذ به، ويمضى حتى يستشهد
فى سبيل الله : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

من تحقق بهذا فذلك الذى يستطيع الجهاد ويقوم بشأه، وذلك الذى كان
من أهل : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ ﴾

[المائدة: ٥٤]

(٢)

ولكن هذا الجهاد الخالص لا يتحقق لإنسان حتى يتحرر من حب الحياة،
ويتحقق بالعلم . أخرج البراز عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : « إِنَّكُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ مَا لَمْ تَظْهَرِ فِيكُمْ سَكْرَتَانِ : سَكْرَةُ الْجَهْلِ
وسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ، وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا فَلَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلَا تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْقَائِلُونَ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » .

وبدون هذا تفقد الأمة الإسلامية خيريتها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

[آل عمران: ١١٠]

أخرج ابن عساكر عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : « إِنَّ مَعْرُوفَكُمْ
اليوم منكر زمان قد مضى، وَإِنَّ مَنكَرَكُمْ اليوم معروف زمان يأتى، وَإِنَّكُمْ لَنْ
تبرحوا بخير ما دمتم تعرفون ما كنتم تنكرون، ولا تنكرون ما كنتم تعرفون،
وما قام عالمكم يتكلم بينكم غير مستخف » .

فلا بد من علم، ولا بد من زهد فى الدنيا وجرأة على الموت فى سبيل الله حتى يتحقق الجهاد .

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ فقال : « يا بن مسعود » فقلت : لبيك يا رسول الله - قالها ثلاثاً - قال : « تدرى أى الناس أفضل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا فى دينهم » ثم قال : « يا بن مسعود » . قلت : لبيك يا رسول الله قال : « تدرى أى الناس أعلم » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « إن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مُقَصِّراً فى العمل وإن كان يزحف على إسته زحفاً . واختلف من كان قبلى على اثنتين وسبعين فرقة نجاً منها ثلاثة وهلك سائرهن ، فرقة وازت الملوك وقتلوهم على دينهم ودين عيسى ابن مريم وأخذوهم وقتلوهم وقطعوهم بالمناشير ، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرائهم فيدعوهم إلى الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا فى البلاد وترهبوا : قال : وهم الذين قال الله عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ [الحديد : ٢٧] ، فقال النبى ﷺ : « من آمن بى وصدقنى واتبعنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يتبعنى فأولئك هم الهالكون » .

وفى رواية : « فرقة أقامت فى الملوك والجبابرة فدعت إلى دين عيسى فأخذت وقُتِلَت بالمناشير وحُرِّقَت بالنيران فصبرت حتى لحقت بالله » والباقي بنحوه .

(٣)

ويغلب على بعض الناس فى باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوهام .

منها : أن بعضهم يتصور أنه ما دام الإسلام دين الله ، فإن الله ناصر دينه

وليس عليهم أن يهتموا لهذا الأمر، أو يضحوا من أجله، وهذا ضلال فى العقيدة، وانحراف فى التصور، إنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] ، فالله قادر على الانتصار، ولكنه أراد ابتلاءنا واختبارنا، ففرض علينا الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا لم نقم بذلك ونصبر عليه نكون آثمين مستحقين عقوبة الله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورٌ مُؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤-١٥] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧].

ومنها : أنَّ بعضهم يتصور أنه إذا أصلح نفسه فلا عليه من الناس، ويستشهد على ذلك بالآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، وهذا فهم خاطئ للآية إذ الآية لا تعنى ألا تأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ونجاهد، بل الآية فيها إخبار أنَّ ضلال الضالين لا يضرنا عند الله . إذ هم مسئولون عن أعمالهم أمامه . ونحن مسئولون عن أعمالنا، وقد فسرها الصحابة بغير ما فهمها هؤلاء الخاطئون .

عن قيس بن ابى حازم قال : لما ولى أبو بكر رضى الله عنه صعد المنبر فحمد الله ثم قال : يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ،

وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يَغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « قعد أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ يوم سمى خليفة رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم مد يديه ثم وضعهما على المجلس الذى كان النبي ﷺ يجلس عليه من منبره ثم قال : سمعتُ الحبيب وهو جالس على هذا المجلس يتأول هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، ثم فسرها، فكان تفسيره لها أن قال : نعم، ليس من قوم عَمِلَ فيهم بمنكر ويُفسد فيهم بقبيح فلم يغيروه ولم ينكروه إلا حق على الله أن يعمنهم بالعقوبة جميعاً ثم لا يُستجاب لهم . ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه فقال أن لا أكون سمعته من الحبيب فصمتا » (١) .

إن مقتضى الإيمان الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سنرى . فالله عزَّ وجلَّ كونه أمرنا بأن نهتم بأنفسنا لا يعنى أنه اسقط عنا الجهاد، ذلك وهم كبير . بل اهتمامنا بأنفسنا من جملة أن نحملها على تنفيذ أمر الله فى الجهاد وغيره . فالآية إذن لم تُسقط عنا الجهاد، وإنما أخبرنا أننا إذا صلحنا فإن الضالين لا يضرروننا، ومن صلحنا أن نجاهد، ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونستجيب لله والرسول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

(٤)

إن الجهاد بالقلب الذى هو أدنى درجات الإيمان وأضعفها جعله الناس الجهاد الوحيد ثم أهملوه مع أنه لم يرخص فيه إلا بشروط كثيرة قال عليه السلام :

(١) رواه أحمد فى المسند عن أنس وابن ماجه فى « الفتن » عن قيس بن أبى حازم به مرفوعاً .

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » (١) .

« مَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » (٢) .

إِنَّ الْفُقَهَاءَ اعْتَبَرُوا السَّكُوتَ عَنِ الْبِدْعَةِ وَالْمَنْكَرِ رِضَاً بِالشَّرِّ إِلَّا إِذَا عَجَزَ عَنِ الْإِزَالَةِ .

يقول فقهاء الحنفية : « والسكوت على البدعة والمنكر فإنه رضا - أى مع القدرة على الإزالة - وإلا كفاه الإنكار بالقلب » ، ولكن الأحسن لو فعل ويكون شهيداً لو قُتِلَ .

ومن الصور التي يذكرها ابن عابدين في حاشيته : « لكن ذُكِرَ في » شرح السير « أنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده ، وإن ظن أنه يُقتل إذا كان يصنع شيئاً بقتل أو بجرح أو يهزم فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد ومدحهم على ذلك ، فأما إذا عَلِمَ أنه لا ينكى فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم . لأنه لا يحصل بحملته شيء من إعزاز الدين بخلاف نهى فسقة المسلمين عن منكر إذا علم أنهم لا يمتنعون ، بل يقتلونه ، فإنه لا بأس بالإقدام ، وإن رُخِّصَ له السكوت ، لأن المسلمين يعتقدون ما يأمرهم به ، فلا بد أن يكون فعله مؤثراً في باطنهم بخلاف الكفار » . فالرخصة إذن موجودة ضمن حدود ، ولكن العزيمة أن يفعل .

أخرج البزار عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعتُ الحجاج يخطب فذكر كلاماً أنكرته فأردتُ أن أغير فذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا ينبغي

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري .

(٢) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه به مرفوعاً .

للمؤمن أن يذل نفسه » . قال : قلت : يا رسول الله، كيف يذل نفسه ؟ قال :
« يتعرض من البلاء لما لا يطيق » .

ولكن هذه الرخصة فهمها الناس فهماً ترخصوا فيه لدرجة أنه ما عاد يُؤمر
بمعروف ويُنهى عن منكر، لذلك كان لا بد من الكشف عن حدودها ولو بشكل
مختصر .

إنه لا يجوز للإنسان أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا في
حالتين :

١- أن يعلم علماً قطعياً يقينياً بأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لن يزال
به الشر بحيث يكون أمره ونهيه أو سكوته سواءً .

٢- أن يلحقه ضرر نتيجة أمره ونهيه بشكل قطعي .

والضرر المعتبر الذي يسقط به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالضرب
ضرباً مؤلماً يتأذى به، أو تُنهب داره، ويُخرب بيته، وتسلب ثيابه . أما التعرض له
باللسان بالتجهيل والتحقير والتحميق والنسبة إلى الرياء والنفاق، أو الرجعية
والتأخر، سواء أكان ذلك في غيبته أو حضوره، فإنه لا يسقط الوجوب، إذ لو ترك
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلوم لائم، أو باغتيال فاسق أو شتمه أو تعنيفه،
أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله ما قام أمر ونهي أبداً . كيف وقد أمرنا الله
إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر أن نصبر، وعلى ماذا يكون الصبر إلا على
هذا: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧] .

إنه لا يسقط الوجوب إلا بشروط، وإذا سقط الوجوب فلا استحباب باق .

(٥)

ثم ليس معنى الجهاد بالقلب أن يموت القلب فلا يغضب للمنكر، بل
الجهاد بالقلب معناه رفض كل معصية لله حضرها أو غاب عنها أو دُعِيَ إليها،

وسوسة أو أمراً، وما لم تكن المسألة كذلك فإنها تكون خروجاً عن الإسلام بالكلية . . يقول عليه السلام « إذا عُمِلَت الخطيئة في الأرض كان مَنْ شهدها فكرها - قال مرة : أنكرها - كمن غاب عنها، ومَنْ غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » (١) .

« تُعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نُكِّتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نُكِّتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين : قلب أبيض مثل الصفا فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » (٢) .

(٦)

أسرعنا فيما مضى بالإشارة إلى الجهاد بالقلب على اعتبار أنه الجانب السلبي في الموضوع، فلا بد من تعيين حدوده قبل الكلام عن الجانب الإيجابي .
وتحدثنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وكأنهما شيء واحد، وذلك لأنهما في الحقيقة متلازمان في المعنى عندما يكونان على أرض الإسلام، وهذا شيء سنراه فيما يلي أثناء الحديث عن أنواع الجهاد .

(٧)

بعد هذه المقدمة نقول :

إنَّ هناك خمسة أنواع من الجهاد أشير إليها في الكتاب أو في السُّنة :

النوع الأول : الجهاد باللسان .

النوع الثاني : الجهاد التعليمي .

(١) رواه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « في الأمر والنهي » عن محمد بن العلاء بسنده إلى العرس بن عميرة الكندي .

(٢) رواه مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه - والأسود المرباد : شدة البياض في سواد الكوز المجخى : المنكوس .

النوع الثالث : الجهاد باليد والنفس .

النوع الرابع : الجهاد السياسى .

النوع الخامس : الجهاد المالى .

والآثار التى أشارت إلى هذه الأنواع الخمسة هى :

١- «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأستكنكم» (١) ، فهذه ثلاثة أنواع من الجهاد ذكرت مرة واحدة .

٢- « إنَّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (٢) ، فهذا الجهاد هو الذى أسمىناه الجهاد السياسى لأنه من أجل جعل نظام للحكم أجود وأعدل .

٣- قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] ، فهناك عبر بالنفر المستعمل عادة للجهاد من أجل طلب العلم وتعليمه .

فهذه النصوص الثلاثة أشارت إلى أنواع الجهاد الخمسة .

هذه الأنواع من الجهاد كلها عندما تكون على أرض الإسلام تسمى « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . والحقيقة أنَّ بين الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تلازماً، كل من الاثنين قد يُطلق على الآخر، فى الداخل والخارج، ولكن العملية أصبحت مشتهرة هكذا :

ما كان على أرض الإسلام كان أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، وما كان خارجه كان جهاداً، والأمر فيه سعة، ومن تأمل هذه النصوص عرف ما أشرنا إليه : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « الجهاد ثلاثة : جهاد بيد، وجهاد بلسان، وجهاد بقلب، فأول ما يغلب عليه من الجهاد جهاد اليد، ثم جهاد

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم عن أنس .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

اللسان، ثم جهاد القلب، فإذا كان القلب لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً نُكِسَ، وجُعِلَ أعلاه أسفله .

وفى رواية عنه : « أول ما تغلبون عليه من الجهاد : الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فأى قلب لم يعرف المعروف، ولم ينكر المنكر نُكِسَ أعلاه أسفله، كما يُنكس الجراب فيُنثر ما فيه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسُنَّته، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٢) .

ونحن نؤثر أن نشرح الجهاد على طريقة عرض أنواعه الخمسة التى مر ذكرها فنبدأ بالجهاد اللسانى، ثم الجهاد التعليمى، ثم الجهاد باليد والنفس، ثم الجهاد السياسى، ثم الجهاد المالى .

* * *

أولاً : الجهاد باللسان

(أ) من أول ما يدخل فى باب الجهاد باللسان : تبليغ الإسلام وإقامة الحُجَّة به على الكافرين والمنافقين والفاسقين :

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

قال عليه السلام : « بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً » ^(١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢] - أى بالقرآن ، ومَرَّ معنا النصان اللذان أشارا إلى جهاد المشركين باللسان ، وإلى جهاد المنحرفين الذين تخالف أقوالهم أفعالهم ، وتخالف أفعالهم أوامر الله عزَّ وجلَّ . وعملية التبليغ وإقامة الحُجَّة هذه هى أعظم ذُرَى الإسلام ، إذ ذروة الإسلام الجهاد ، وهذه أعظم الجهاد . إذ لا يتحقق مقصود الجهاد باليد إلا بها ، ولا يستطيع القيام بها إلا إنسان تَخَلَّص من كل أنواع الخشية من البَشَر على نفسه أو ماله أو جاهه ، وتَخَلَّص من ضغط المجتمع والرأى العام والدولة . ثم هى مهمة الرسل وواجبهم الأساسى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

والمسلمون مكلفون أن يقوموا بها على كل مستوى حتى يعمموا دعوة الله فى الكون كله ليعرفها كل إنسان ، وتقوم الحُجَّة عليه بها فى أرض الإسلام ، وفى أرض الكفر . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] .

هذا البلاغ ينبغى أن تؤديه على وجهه الأكمل ، ولا يكون على وجهه الأكمل إلا مبيناً واضح الحُجَّة ، إن الله عزَّ وجلَّ أمرنا بالبلاغ المبين البليغ فقال : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] ، وقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢] ، وقال : ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] .

والبلاغ المبين البليغ هو الذى تكون حُجَّتُه واضحة بيِّنة ومقنعة مخرسة .

(١) رواه أحمد والبخارى عن عبد الله بن عمرو ، ورواه الترمذى أيضاً فى كتاب « العلم » عن عبد الله بن عمر ، وللحديث تمة .

وهذا لا يكون إلا بثقافة إسلامية عالية، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧] ، ففي إسلامنا لمن عقله كل بيان مقنع . ولا شك أنه لا بد مع هذه الثقافة من حكمة وخلق قريب، ولسان بليغ . قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولا شك أن عملية البلاغ المبين من أجلها تستتبع أن تكون الدنيا كلها ضدهم . وقد ذكر الله لنا مما جوبه به الرسل من قبل أعداء الله عندما قاموا بعملية البلاغ :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] ، ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥] ، ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ^(١) [الأعراف: ٨٢] ، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجِرْ﴾ [القمر: ٩] ، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

هكذا تهديد ووعيد . وسب واستهزاء، واتهامات للدعوة والداعية .

ولكن رسل الله صبروا وانتصروا : ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

(١) يتطهرون: يدعون الطهارة مما نأتى .

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(ب) ويدخل فى الجهاد اللسانى : الوعظ والتذكير، وهذا المقام أليق أن يكون محله المؤمنين، قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]. وفى هذا المقام يقول الغزالى :

« . . . النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصرَّ عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم، أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجرى مجراه . كأن يوالى الظالمين أو الكافرين، أو المنافقين أو يصحب أمثال هؤلاء الفاسقين، أو ينفذ أغراضهم أو يطيعهم فى معصية الله، فينبغى أن يوعظ ويُخوَّف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك وتحكى له سيرة السلف، وعبادة المتقين، وكل ذلك بشفقة ولطف، من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه، إذ المسلمون كنفس واحدة، وههنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها، فإنها مهلكة، وهى أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذل غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل، فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر أقبح فى نفسه من المنكر الذى يعترض عليه، إذ مأتى هذا الكبير والعجب والغرور والفخر وإظهار النفس والرياء، وكلها كبائر نعوذ بالله من شرسيات الأخلاق » .

(ج) ويدخل فى الجهاد اللسانى : « السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وذلك يُعدّل إليه عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

ولسنا نعننى بالسب : الفُحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته، ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يُعد من جملة الفُحش كقوله : « يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله » وقوله : « يا غبي » وما يجرى هذا المجرى، فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى، بل كان من ليس بكيس فهو أحمق، والكيس من شهد له رسول الله ﷺ بالكياسة حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » (١) .

ولهذه الرتبة أدبان، أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثاني : ألا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه، بل يقصر على قدر الحاجة، فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغى أن يطلقه، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له، والازدراء بمحله، لأجل معصيته، وإن علم أنه لو تكلم ضرب، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له « . . . انتهى كلام الغزالي .

وإذن يتسلسل الجهاد على الشكل التالي :

المرحلة الأولى : بلاغ وبيان وإقامة حجة وتبيان حقائق .

المرحلة الثانية : موعظة وتذكير وتخويف من الله بلطف وشفقة .

المرحلة الثالثة : إن كان مسلماً عنفناه، وإن كان غير مسلم - كالذمي وأمثاله -

بقينا في حدود الجدال بالتى هي أحسن لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] .

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذى . وقال هذا حديث حسن عن شداد بن أوس مرفوعاً .

ويلاحظ أنَّ المرحلة الثالثة مرحلة فصام لا يصح أن تبقى لنا فيها مع أصحابها - ونعني المسلمين - علاقة مخالطة . .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : « جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فاكفروا » .

قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى . نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود » الآية - ثم جلس وكان متكئا فقال : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » (١) .

وفى عملية الجهاد اللسانى نحب أن نلاحظ الملاحظات التالية :

● الملاحظة الأولى :

عندما نقوم بعملية التبليغ، علينا أن نبدأ بالأهم فالهم . نبدأ بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، وبالقريب قبل البعيد .

أخرج الستة إلا مالكا عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وتُرد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب » .

وقال ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (٢) .

(١) رواه ابن ماجه فى « الفتن » عن أبى عبيدة رضى الله عنه واللفظ له، ورواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود فى كتاب « التفسير » باب « ومن سورة المائدة » مع اختلاف فى بعض الألفاظ يسير، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب، وأبو داود فى « الملاحم » عن عبد الله بن مسعود .
(٢) أخرجه مسلم .

● الملاحظة الثانية :

جرت عادة أعداء الله أن يُشوِّهوا سمعة الدعاة إلى الله في نظر المسلمين لأنهم يعلمون أن الهجوم على الإسلام مباشرة أمام المسلمين يُعرضهم لمواقف سيئة، فكانت خطتهم تشويه سمعة الدعاة إلى الله ليحطموا الإسلام بتحطيم أهله، لذلك فعلى الداعية إلى الله أن ينقى نفسه ويكون دقيقاً بحيث يعرفه الناس - وفعلاً يكون كذلك - بأنه يقوم بهذا الواجب مخلصاً لله، مجرداً عن كل غرض، خالياً عن كل هدف إلا قياماً بأمر الله، وشفقة على خلقه، ورحمة بهم من أن تتخطفهم الشياطين من طريق الله عز وجل . ومهما حاول الآخرون أن يصرفوه عن عمله بجعل المعركة بينه وبينهم وكأنها معركة شخصية، أو يصرفوه عن مهمته بحيث يجعلون الصراع بينهم وبينه وكأنه على حكم أو سلطان أو غرض، فعليه دائماً أن يُفسد عليهم مخططاتهم، بحيث تكون المسألة مسألة دعوة إلى الله وإلى الإسلام، بصرف النظر عن أى موضوع آخر . إذ أن أعداء الإسلام - كما أسلفنا - يعادون الإسلام بمعاداة أهله، ويتظاهرون بأنهم لا يعادونه، ويحاولون أن يقنعوا الناس بذلك ، فعلى الداعية أن يكون من الوضوح بحيث يجعل الناس مقتنعين بأن هؤلاء لا يعادونه إلا لإسلامه، ويفسد عليهم كل حجة عليه بأنه لا يريد شيئاً آخر إلا محض القيام بالواجب الذى كلّفه الله عز وجل به وفعلاً فإن المسلم كذلك .

● الملاحظة الثالثة :

إن عملية الجهاد اللسانى تقتضى دراسة للمكان الذى يتم فيه، وتقتضى معرفة بمراكز الضلال وجملة الانحرافات، وتقتضى معرفة بكيفية العمل، إذ لكل بلد انحرافات الخاصة، وضلالاته وكُفْره، وبُعدُه عن الإسلام، ومعالجة كلِّ تحتاج إلى أسلوب يتفق معها .

فمثلاً بلد شيعة وسُنّة، وانتشرت فيه الشيوعية أو الوجودية أو الماسونية، وجُهِلَ فيه الإسلام، وأصبحت عند أهله انحرافات فكرية وخلقية، مثل هذا البلد

الكتب التي ينبغي أن تُنشر فيه، ونوعية المحاضرات والخطب ومواضيع المناقشات والزيارات، تختلف كلياً عن بلد فيه نصارى وفيه أفكار رأسمالية، وفيه نزعة نحو التحرر الكلى، والديموقراطية المطلقة .

ولا بد إذن من دراسة لأنواع الانحراف .

ولا بد إذن من معرفة المنحرفين .

ولا بد إذن من تخطيط شامل منسجم مع هذا وهذا .

ولا بد من عمل متواصل إلى إيصال الإسلام كاملاً للناس جميعاً .

وهذا يقتضى منا أن نعرف ما هى نواقص المسلمين فى البلد، وكيف يمكن أن نرتفع بالمسلمين جميعاً إلى مستوى المشاركة العملية فى الجهاد اللسانى، ولعل المسارعة إلى إصلاح عيوب المسلمين وتكميل نقصهم، وتوحيدهم جهودهم، هى البداية فى كل جهاد لسانى .

* * *

● من وسائل الجهاد اللسانى :

إنَّ وسائل الجهاد اللسانى كثيرة، أحياناً تتوفر جميعها وأحياناً لا يُستطاع بعضها، والمهم ألا نترك الجهاد اللسانى بشكل من الأشكال . وها نحن نستعرض بعضاً من وسائل هذا الجهاد ليقاس عليها . .

(أ) نشر الكتاب الإسلامى :

عملياً الكتاب لمن يقرأه أكثر فائدة من الكلام، إذ مهما أحسن الإنسان فى عرض فكرة، فهو لا يبلغ مبلغ عرض هذه الفكرة فى كتاب كتبه عالم من علماء المسلمين الكبار، ولذلك كان نشر الكتاب الإسلامى أهم وسيلة من وسائل الجهاد اللسانى .

والكتب الإسلامية تختلف، فمنها ما شرح جزءاً من الإسلام، ومنها ما ردَّ على أعداء الإسلام، ومنها ما دافع عن الإسلام ككل، ومنها عالى الأسلوب، ومنها متوسطة، ومنها سهله .

وكل إنسان من الناس يحتاج إلى نوع من الكتب بتناسب مع وضعه، ومع لغته، ومع نوعه ضلاله، أو انحرافه . وأحياناً قد تنتشر فكرة ضالة عند عامة الناس، فينبغي في هذه الحالة تعميم الرد عليها في كتاب . وعملنا في هذا كله ينبغي أن يكون حكيماً، أن نقدّم الكتاب المناسب للشخص، أو نعمم الكتاب المناسب على الناس بالبيع وبالهبة وبالتبرعات وبالإعارة، وإقناع بعض الناس بطبع ما يلزم مجاناً . . وكله جهاد .

وإذا استطعنا أن نوجد في كل بيت مكتبة إسلامية متكاملة فذلك نجاح لا يعد له نجاح . خاصة والبشرية الآن تسير نحو ترك الأمية حتى إنه سيصبح كل إنسان قارئاً - والله أعلم - وهذا سيكون لنا إن استطعنا إيصال الكتاب الإسلامي وأمثاله إلى الناس، وسيكون علينا إن كان العكس، وفي كتاب « الأساس في الثقافة الإسلامية » - أى جند الله ثقافة - عرض مفصّل لأمّهات الكتب الإسلامية في كل فن، واستعراض للكتب التي تؤلف مكتبة إسلامية متكاملة .

(ب) المجلة والجريدة والنشرة :

لا شك أن المجلة إذا كان لها سياسة جهادية مدروسة، وكذلك الجريدة، تستطيع أن تقوم بعمل عظيم في الجهاد اللساني . إذ أنها ترد مباشرة على الضلال بأسلوب وبآخر، وتبقى على صلة أسبوعية أو يومية مع الأحداث، فتبيّن الضلالة في مهدها، وتكشف المنحرفين مباشرة، وتنازل أصحاب الضلال مقارعة . ولكن ينبغي في حالة وجود الجريدة والمجلة أن تكون على مستوى عال، وأن تبذل كل الجهود لتعميم وصولها إلى أيدي الناس .

والمفروض أن تكون في كل قُطر مجلة أو جريدة إن أمكن، لأن لكل بلد وضعه الخاص .

وإذا لم يمكن إصدار جريدة أو مجلة، فيمكن إصدار نشرة غير دورية . وإذا لم يتيسر هذا فيمكن إصدار بيانات توضح المفاهيم الأساسية، وترد على

الضلال، وإذا لم يمكن هذا فيمكن إصدار رسائل صغيرة في كل موضوع، وإذا لم يتيسر هذا فيمكن الالتفات إلى المجالات الحائطية، وإذا وُجدَ هذا كله فذلك خير وأجود .

(ج) الخطابة والمحاضرة والدرس العام في المسجد والبيت :

وهما أخطر أداتين في توجيه الإنسان، إذا وُجدَ الخطيب القوي، والمحاضر الناجح، ولذلك فإنَّ تخريج الخطباء والمحاضرين وتمريضهم وتقويتهم مع تربيتهم شىء أساسي ومهم، إنَّ الخطيب الناجح والمحاضر الممتاز يكتسحان عواطف الناس اكتساحاً ويسيران بها حيث يريدان .

وقد جعل الله عزَّ وجلَّ خطبة الجمعة فريضة، وسَنَّ لنا خطبتا العيدين، وهذا شىء مهم جداً إذا استفيد منه في الجهاد اللسانى، بل ينبغى أن يُسخرَ لذلك لأنه من أجله وُجدَ .

ومجال المحاضرات والخطب منجال رحيب، فالمساجد مفتوحة، والقلوب على استعداد، وكثير من المراكز لا تبخل على أحد بمحاضرة، كالنوادى والمدارس، وعلينا أن نستفيد من هذه الفرص إلى منتهاها . ولا ننسى أنَّ الدعاية للمحاضرة أو للخطبة لها آثارها الكبيرة .

وطبعاً لا يمكن أن يكون كل واحد من المسلمين محاضراً أو خطيباً، ولكن إذا لم أكن محاضراً فإننى أستطيع أن أدعو الناس لسماع محاضرة، وعلى هذا فينبغى أن يكون دائماً تعاون عظيم بين المحاضر وإخوانه المسلمين، كما أنَّ على المحاضر أن يلاحظ ألا يكون مغروراً معجباً بنفسه، إذ أنَّ ذلك يسقطه من ديوان المقرئين عند الله، ويسقطه من قلوب المؤمنين، ولا يكون لكلامه أثر مفيد . والدروس العامة في المساجد والبيوت - سواء دورية أو غير دورية - أطيب أداة للدعوة، وتصفية الأفكار من ضلالها .

(د) الدعوة الفردية والزيارات والرحلات والحلقات :

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِثْلٍ بَازِلٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] ، إنارة تفكير الإنسان منفرداً أكثر فائدة، إذ لا يكون فى هذه الحالة متأثراً بالضغط الأخرى .

لذلك كان شيئاً مهماً فى الجهاد اللسانى الاتصال المباشر بالأشخاص وفتح محاوره معهم، أو دعوتهم إلى الخير، أو إهداؤهم كتباً، والزيارة فى البيوت أو فى محلات العمل، تخدم هذا الموضوع بلا شك .

وتنظيم رحلة يدعى لها أفراد قليلون تكون بها نسبة المسلمين الصالحين كثيرة مع تنظيم الكلام والدعوة والنقاش . . يفيد كذلك كثيراً .

ودعوة إلى طعام تنهى فيها وسائل الاحتكاك لتبليغ الأفكار الطيبة بشكل جيد قد فعله الرسول ﷺ فهو سنة .

والحلقات الراقبة فى البيوت وغيرها التى تعرض الإسلام، وتصفى أفكار الناس نحوه إذا كانت مفتوحة، ودعى إليها أفراد، فيها كذلك خير كثير .

هذه نماذج على وسائل الجهاد اللسانى فى سبيل الله، ولكن المسألة ليست منحصرة فيما ذكرناه، فالرد على دعاة الضلال أينما كانوا، وفى أى وضع .

جهاد، وبالشعر الإسلامى يكون جهاد، وفى كتابة الإعلانات جهاد، والمدرس فى مدرسته، والعامل بين زملائه، والطبيب بين مرضاه، كل هؤلاء وأمثالهم يمكن أن يقوموا بأكبر قسط من الجهاد اللسانى، ومن فكر انفتحت له أبواب، وكل إنسان يعرف ذاته، وله من وسائله ما يستطيع به أن يقوم بواجبه، والمهم أن تفكر وأن نعمل وأن نخلص لله عز وجل فى هذا كله .

* * *

(١) معنى الآية هو : قل إنما أعظكم بخصلة، واحدة أن تفرقوا اثنين اثنين وواحداً واحداً ثم تفكروا فى أمر محمد وما جاء به لتعلموا أنه ليس به جنون يحمله على ما يدعوكم إليه .

ثانياً : الجهاد التعليمي

(١)

روى الطبراني في « الكبير » عن بكير بن معروف عن علقمة . عن رسول الله ﷺ قال : « ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم ولا يُعلمونهم ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليُعلمن قوم جيرانهم ويُفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ، أو لأعجلنهم العقوبة » ، ثم نزل ، فقال قوم : مَنْ ترونه عني بهؤلاء ؟ قال : « الأشعرين هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب » ، فبلغ ذلك الأشعرين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهنهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون ، أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا » فقالوا : يا رسول الله ، أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة يُفقهونهم ويعلمونهم ويعظونهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : ٧٨-٧٩] .

وفى الآية : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ويقول الغزالي : « وواجب أن يكون في كل مسجد أو محلة من البلد فقيه

يُعلِّمُ الناس دينهم، وكذا في كل قرية . وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرَّغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى مَنْ يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله، ولا يأكل من أطعمتهم فإنَّ أكثرها مغصوب .

(٢)

ولا بد للمرء هنا أن يتساءل : ما الفارق بين الجهاد اللسانى، والجهاد التعليمى ؟

نقول : إنَّ الجهاد اللسانى هو بذل الجهد باللسان ضد الانحراف، للعودة بأصحابه أو لإدخالهم من جديد فى الإسلام . وأما الجهاد التعليمى فهو بذل الجهد مع مَنْ استجاب للإسلام من أجل تعليمه وتثقيفه وتربيته، وقد يتلازمان أحياناً لكن تبقى فوارق .

ومقياس النجاح فى الجهاد التعليمى هو أن تستطيع إعطاء كل مسلم ثقافة إسلامية كاملة وتربية إسلامية صحيحة وسليمة ومتكاملة .

ولعل دراستنا لهذه الفقرة - الأخلاق الأساسية فى الإسلام - أعطتنا صورة عن التربية السليمة الصحيحة، ويبقى علينا أن نشرح ما هى الثقافة الإسلامية الكاملة .

١- قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١] ، فهذه الآيات بيَّنت بوضوح أنَّ أساس التعليم عندنا فى الإسلام، هو تعليم الكتاب، وتعليم السُّنة، وهو مقام الربانيين، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والمسلم لا بد أن يأخذ حظه من الكتاب والسُّنة، وكلما كان حظه من ذلك أعلى كانت ثقافته الإسلامية أعلى .

٢- ولما كان كل مسلم لا يستطيع أن يدرك أحكام الله من الكتاب والسنة مباشرة، فقد نشأت علوم مهمتها تعريف المسلم على أحكام الكتاب والسنة : كعلم التوحيد، وعلم الفقه، وعلم الأخلاق، وأصل علماء المسلمين في كل علم من هذه العلوم أصولاً وقواعد وضوابط، مما أصبح ضرورياً أن يأخذ المسلم حظه كذلك من هذه العلوم .

ولما كانت هذه الأحكام مصدرها الكتاب والسنة، فقد وجد علم يشرح كيف تُستنبط الأحكام من الكتاب والسنة هو علم أصول الفقه، وهذا العلم كذلك ينبغي أن يكون عند المسلم حظ منه ليطمئن إلى نتيجة الأحكام التي درسها .

٣- ولما كان التاريخ الإسلامي هو صورة واقع المسلمين من الإسلام خلال العصور، وهو مركز العبرة، وكان من التاريخ الإسلامي حياة رسول الله ﷺ وأصحابه وذلك محل الأسوة، كان لا بد للمسلم أن يأخذ حظه من دراسة ذلك .

٤- ولما كان المسلم مطالباً بالاهتمام بأمر المسلمين : « مَنْ أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . ولا اهتمام بلا معرفة أولاً، فإن دراسة حاضر العالم الإسلامي، ومعرفة أحوال المسلمين، لا بد أن يأخذ المسلم حظه منها .

٥- ولما كان عصرنا حافلاً بالمؤامرات على الإسلام والمسلمين، كان لا بد للمسلم أن يعرف أطراف هذه المؤامرات وأبعادها . . حتى يستطيع تجنب الوقوع في شباكها، وتخليص أمته منها .

٦- ولما كانت اللغة العربية وعلومها مفتاح هذا الدين، كان لا بد للمسلم أن يأخذ حظه من عامة علومها .

٧- ولما كانت الدراسات الإسلامية الحديثة منها الغث والسمين، ومن السمين ما يلائم عصرنا ويعرض الإسلام عرضاً صحيحاً يلائم طبيعة عصرنا، كان لا بد من أخذ حظ من هذه الدراسات .

٨- ولما كانت هذه العلوم كلها من أجل توضيح الأصول الثلاثة للمسلم - الله، والرسول، والإسلام - كان لا بد من دراسة مفصلة لهذه الأصول الثلاثة .
وإنما كان كتاب « جند الله » ثقافة من أجل أن يعرفنا على هذه الجوانب كلها، ومن أجل أن يبين لنا الحد الأدنى الذى ينبغى أن نحصله من كل جانب .
ولا شك أن الناس يتفاوتون ذكاء وإمكانيات وأوقات فراغ، فليس منطقياً أن يأخذ الجميع قدرا واحدا من هذه الجوانب كلها، ولكن المفروض أن يكون هناك حد أدنى يُحصله كل مسلم، ويبقى المجال مفتوحاً لمن عنده إمكانية أكثر .
وحتى الحد الأدنى يختلف مستواه باختلاف الأشخاص، فالحد الأدنى للعامل الذى ليس عنده فراغ يختلف عن الحد الأدنى للطالب كمّاً ونوعاً .

(٣)

من الفقرتين المارتين يتبين لنا وجوب العلم والتعليم، ولا شك أن المسؤولية تقع أولاً على من عنده علم كما رأينا فى الفقرة الأولى، ولكن ذكر الفقهاء أن من تعلم مسألة فقد أصبح فقيهاً، وعليه تعليمها، فالعملية ينبغى أن يتم تعاون تام فيها بين جميع الطبقات، وبشكل لا ينقطع، ليبقى المسلمون على الثقافة الطيبة العليا، إذ هذا السبيل الوحيد لجعلهم بعيدين عن الفتن، وفى الأثر : « تكون فتن لا ينجو منها إلا من أحيا الله قلبه بالعلم » (١) .

ولكن المسألة وإن كانت كما صورناها، إلا أنه يفهم من الآية المذكورة فى الفقرة الأولى أنه لا بد من متفرغين يتفرغون للعلم والتعلم فى كل فرقة من فرق المسلمين . فالعشيرة، أو الحى، أو البلدة، أو القرية، لا بد أن يكون فى كل دائرة منها ناس متفرغون من أجل هذا .

ولعل أعظم مشروع يخدم الإسلام هو أن يوجد مسلمون متفرغون لهذا الموضوع على كل مستوى، وعندهم الأهلية لذلك .

(١) لم أجد فيما رجعت إليه هذا الأثر فعدت إلى المؤلف فقال : لم أقرأه ولكن كنت أسمعه من فضيلة شيخنا محمد الحامد رحمه الله .

وهناك ناس لا يقدِّرون العلم بالإسلام حق قدره، ويرونه آخر الأمور، وهؤلاء جُهَّال وحمقى، فبدون العلم لا يقوم الإسلام .

يقول عليه السلام : « فضل العلم خير من فضل العبادَة، وخير دينكم الورع » (١) .

وقال : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض - حتى النملة في جحرها والحيتان في البحر - يُصلُّون على معلم الناس الخير » (٢) .

وقال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » (٣) .

وللترمذى عن أنس : « كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما يحترف والآخر يلزم رسول الله ﷺ ويتعلم منه، فشكى المحترف أخاه إلى رسول الله ﷺ فقال : « لعلك به تُرزق » وأسانيده صحيحة .

وقال عليه السلام : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

وهناك نوع من العلم خطر لا يُرضى أنواعاً من البشر، كالحكومات الطاغية، والكافرين، فهل نخفى هذا النوع من العلم ؟ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥] .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » والبخاري .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه الترمذى .

وقال عليه السلام : « مَنْ سُئِلَ علماً يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار »^(١) .
إنَّ علينا واجب تبیان الإسلام كله لكل مسلم، بل لكل إنسان، ولا يعنى هذا أن نترك الحكمة والحذر وأن يستطيع أعداؤنا توريطنا، وأن نجيب على أسئلة لا يُقصد منها إلا إدخالنا فى مشاكل، هذا كله يُلاحظ، ويُلاحظ أيضاً أنَّ علينا واجب تعليم الإسلام كله، بعقائده كلها، وعباداته كلها، ومناهجه كلها مهما كلَّفنا ذلك .

(٤)

● وسائل الجهاد التعليمى كثيرة :

منها : فتح دورات تعليمية، مدة الدورة تُقدَّر تبعاً لأحوال المشتركين فيها، وأجود ذلك أربعون يوماً . قال عمر لرجل : أين كنت ؟ قال : كنت فى الرباط، قال : كم رابطت ؟ قال : ثلاثين، قال : فهلاً أتممت أربعين ؟

والمسألة فيها سعة، وفى حالة تقرير الدورة ينبغى أن تُعد برامجها وأساتذتها وعبادتها وأعمالها بحيث يخرج الإنسان منها وقد أخذ الشئ الكثير تربوياً وروحياً، وقد لا تكفى دورة واحدة لأخذ الثقافة الإسلامية فلتكن أكثر من دورة منها الحلقات العلمية فى البيت أو فى المسجد :

كأن يتفق مجموعة من الناس على أن تكون لهم حلقة علمية يتدارسون فيها الإسلام مرة فى الأسبوع أو مرتين أو ثلاثاً، سواء فى ذلك أن يكون مقر الحلقة البيت أو المسجد .

قال ابن عباس : « حدثت الناس مرة فى الجمعة، فإن أبيتَ فمرتین، وإن كثرت فثلاثاً، ولا تمل الناس هذا القرآن ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى الحديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا

(١) رواه الترمذى وأبو داود .

أمروك فحدثهم وهم يشتهون، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

ومنها المطالعة الشخصية، فقد قالوا : واللبيب يكفى الكتاب فى ترقيه، وقالوا : شيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم .

ومنها المذاكرة الثنائية بين اثنين . فقد قالوا : مذاكرة سطرين أفضل من قراءة قرين، وقد كان جبريل يدارس رسول الله ﷺ القرآن .

ومنها فتح المدارس الدينية، ولم تزل هذه سنة متبعة خلال العصور لتخريج مسلمين علماء مختصين دعاة .

ومنها حلقات التعليم المفتوحة فى المساجد .

كان أبو الدرداء يُعلم القرآن فى كل يوم بجامع دمشق من طلوع الشمس، إلى الظهر، وقسم المتعلمين عشرة عشرة ويعين لكل عشرة عريفاً يُعلمهم القرآن، وهو يشرف على الجميع يراجعونه إذا غلطوا . وكان أبو موسى يطوف فى مسجد البصرة فيقعدهم حلقة حلقة يقرئهم القرآن .

وللشيوخ فى حلقات العلم المسجدية طرق، فمنهم من يُدرّس يومياً فى مسجد معين فى ساعة معينة، يقرأ ليلة تفسيراً، وليلة حديثاً، وليلة فقهاً، وليلة سيرة . . . وهكذا .

ومنهم من يُدرّس يوماً فيوماً دروساً متنوعة .

ومنهم من يختص بتدريس مادة واحدة .

ومنهم من ينشئ فى مسجده حلقات متنوعة يساعده فيها تلاميذه .

ومنهم من يُقيم فى مسجده مدرسة ذات مناهج ومراحل، لكل مرحلة حلقتها ودراستها .

ومن وسائل الجهاد التعليمى : الرحلة التى تجمع بين العلم والدعوة والعمل وهى طريقة جيدة إذ يتفرع فيها الإنسان للخير .

ومنها طريقة الخيمات : إذ يقام معسكر لمدة معينة تُعطى أثناءه مواد كثيرة من الثقافة الإسلامية .

ومنها إيجاد نواد للثقافة الإسلامية تشترط على من ينتسب إليها أن يمر على منهاج ثقافى إسلامى كامل .

ومنها التعليم الدينى فى المدارس، وهو أهم وسيلة لتعليم الناس الإسلام، إذا اتقى الله صاحبه فيه إذ بواسطته يصل التعليم إلى كل طالب وطالبة .

والوسائل لإيصال الثقافة الإسلامية إلى الناس كثيرة، والمهم فى هذا كله ملاحظ التكامل فى هذه الثقافة، لأن أى نقص فى الثقافة الإسلامية يُعرض الإنسان لخطر الوقوع فى حبال الضلال والضالين، ويبعده عن صراط الله والمسلمين . .

ولا شئ يساعد على نشر العلم بالإسلام من أن نتخذ جميعاً هذه القاعدة شعاراً : « عَلم ما تعلمت » فإنك إن فعلت ثَبَّتَ ما تعلَّمت، وأفدت غيرك، والقاعدة عند علمائنا أن الذى لا يعلم حتى يتم تعليمه لن يتعلم أبداً . . وعلى الله قصد السبيل .

* * *

ثالثاً : الجهاد باليد والنفس

إذا أطلقت كلمة الجهاد انصرفت إلى هذا النوع منه، وإذا سمعته الأذن انصرف الذهن إلى جهاد الكافرين ابتداءً، بأن نهاجمهم فى عُقر دراهم دار الحرب، أو أن ندفعهم عنا إذا هاجمونا، أو نجلبهم إذا احتلوا أرضنا، وهذا لا شك من الجهاد باليد ، وهو جهاد نحو الخارج . ولكن الجهاد باليد أوسع من ذلك إذ يدخل فيه كذلك جهاد المرتدِّين والبغاة، والظالمين، والفاسقين، والناكثين، على الأرض الإسلامية، فهو جهاد بالنفس داخلياً، ولما كان شرط الخلاص من الذلَّة المضروبة على المسلمين اليوم العودة إلى الجهاد . فسنكتب فقرتين فى هذا الموضوع :

١- الجهاد باليد داخلياً . ٢- الجهاد باليد خارجياً .

نُفَصِّلُ فِي الْأُولَى مَا لَا نُفَصِّلُهُ فِي الثَّانِيَةِ لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ مُفَصَّلٌ فِي كِتَابٍ آخَرَ.

١- الجهاد بالنفس في دار الإسلام (داخلياً) :

هذا أغمض أنواع الجهاد، وأكثرها حرجاً، ولا يدرك صورته إلا القليل لذلك تركه العامة، ونفض أيديهم منه أكثر العلماء، وتورع عنه الكثير، حتى تعطل بورع كاذب، أو بجهل ساحق، أو بجبن فاضح، مع أنه أحياناً يكون فرض عين، وأحياناً يكون فرض كفاية، وأحياناً يكون مندوباً . وأدى تعطيله بالتالي إلى ضياع الإسلام في أرضه، وسيطرة أهل الفساد، وغلبة أهل الأهواء، حتى المرتدّين على المسلمين في كل مكان . لذلك كان لا بد من إحيائه علماً وعملاً إذا أريد للإسلام بقاء، ونحن سنستعرض في هذا البحث صوراً منه :

(أ) قال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون^(١) في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣]

والمنافقون ومرضى القلوب والمرجفون كانوا في دار الإسلام، ومع ذلك هددوا هذا التهديد بالقتل، مما يدل على جوازه فيهم، وقد يقول قائل : هذا للإمام، نقول : هذا صحيح - وسترى ما فيه - فإن لم يكن للمسلمين إمام وأصبح هؤلاء بيدهم السلطان، أيخضع المسلمون لهم، أو يحاربونهم ويقتلونهم إذا كانوا يستطيعون ؟ وإن لم يكونوا يستطيعون، أما عليهم أن يعدوا العدة،

(١) المرجفون : المشيعون للأخبار الكاذبة .

ويستعدوا ويعملوا للاستطاعة، خاصة والإسلام مُعرض للزوال ؟ لا شك أنَّ الواجب عليهم أن يستعدوا ويحاربوا إذا كانوا يستطيعون، وأن يعملوا للاستطاعة إن كانوا لا يقدرّون .

(ب) روى مسلم عن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فى العُسْر واليُسْر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا - وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

وفى رواية : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا، وعُسْرنا ويُسْرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » . وللبخارى عن أنس عن رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استُعملَ عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله » .

ولمسلم وأبى داود والترمذى عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ : « أنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع » ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : « لا . . ما صلوا » .

فإذا أصبح الحاكمون لا يُصلُّون ولا يقيمون فينا كتاب الله، وأصبحوا دعاة إلى الكفر، أو ساروا فى طريق تكفير الأمة، فهل يجوز القتال أو لا ؟ إنَّ الأمر ظاهر والنصوص صريحة .

(ج) وفى الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبي بعثه الله تعالى فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

أباح رسول الله ﷺ إباحة عامة لكل المؤمنين أن يجاهدوهم بأيديهم، كما أباح إزالة المنكر باليد لكل مؤمن : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعف الإيمان » (١) .

(د) قال فقهاء الحنفية : « الأصل أن كل شخص رأى مسلماً يزنى يحل له قتله . . . وعلى هذا المكابر بالظلم، وقُطَّاع الطريق، وصاحب المكس، وجميع الظلمة بأدنى شيء له قيمة، وجميع الكبائر والأعونة والسعاة يُباح قتل الكل ويُثاب قاتلهم . . . » .

وأفتى الناصحون بوجوب قتل كل مؤذ .

وفى شرح الوهبانية : ويكون بالنفى عن البلد، وبالهجوم على بيت المفسدين، وبالإخراج من الدار وبهدمها، وكسر دنان الخمر
ويقومه كل مسلم حال مباشرة المعصية .

وقد شرح ابن عابدين بعض ما ورد آنفاً فقال فى الشرح : « المكابر :
أى الآخذ علانية بطريق الغلبة والقهر .

وقُطَّاع الطريق : أى إذا كان مسافراً ورأى قاطع طريق، له قتله . وإن لم يقطع عليه بل على غيره لما فيه من تخليص الناس من شره وأذاه .

وجميع الكبائر : أى أهلها . . فيشمل كل مَنْ كان من أهل الفساد كالساحر وقاطع الطريق واللص واللوطى والخنّاق ممن عم ضرره ولا ينزجر بغير القتل .

والأعونة : كأنه جمع معين أو عوان بمعناه - والمراد به الساعى إلى الحكام بالإفساد، فعطف السعاة عليه عطف تفسير وفى رسالة « أحكام السياسة » جمع النفسى : سئل شيخ الإسلام عن قتل الأعونة والظلمة والسعاة فى أيام الفترة قال : « يباح قتلهم لأنهم ساعون فى الأرض بالفساد . فقيل : إنهم يمتنعون عن ذلك

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

فى أيام الفترة ويختفون، قال : ذلك امتناع ضرورة، ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، كما نشاهد، قال : وسألنا الشيخ أبا شجاع عنه فقال : يُباح قتله ويُثاب قاتله». وقال ابن عابدين تعليقاً على فتوى الناصحى بوجوب قتل كل مؤذ : «لعل الوجوب بالنظر إلى الإمام، ونائبه، والإباحة بالنظر لغيرهم» .

وعُلّق على كلمة : «وبالهجوم» قال فى «أحكام السياسة» وفى «المنتقى» : «وإذا سُمِعَ فى داره صوت المزامير فادخل عليه لأنه لما أسمع الصوت فقد أسقط حُرمة داره» .

وفى حدود البزازية . . ذكر الصدر الشهيد عن أصحابنا أنه يهدم البيت على مَنْ اعتاد الفسق وأنواع الفساد فى داره، حتى لا بأس بالهجوم على بيت المفسدين .

وهجم عمر على نائحة فى منزلها وضربها بالدُرّة حتى سقط خمارها، فقبل له فيه فقال : لا حُرمة لها بعد اشتغالها بالحرمّ والتحقت بالإماء . .

وعن عِمر أنه أحرق بيت الخمار، وعن الصّفّار الزاهد : الأمر بتخريب دار الفاسق » .

وقال فى التعليق على كلمة : «ويقيمه كل مسلم» : أى التعزير الواجب، حقاً لله تعالى لأنه من باب إزالة المنكر، والشاعر ولى كل أحد ذلك، حيث قال ﷺ : «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه» (١) . . الحديث، بخلاف الحدود لم يثبت توليتها إلا للولاة، وبخلاف التعزير الذى يجب حقاً للعبد بالقذف ونحوه، فإنه لتوقفه على الدعوى لا يقيمه إلا الحاكم إلا أن يحكما فيه » .

* * *

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

وهنا سؤال : لقد أجازوا فيما تقدم قتل جميع أصحاب الكبائر المتلبسين بها المصرين عليها، والتبرج لا شك كبيرة وإفساد فى الأرض، فهل يجوز قتل صاحبته لكل أحد ؟ يبدو من كلام الحنفية فى جواز قتل الساحرة، أنه يجوز قتلها إذا كانت متلبسة بذلك ودرجت عليه وأصرت، والله أعلم .

* * *

وهناك مسألة ذكرها صاحب « الهداية » من كبار فقهاء الحنفية وهى : لو قتل مسلم مرتداً دون الرجوع إلى رأى الإمام هل يَأْثَم عند الله ؟ أفتى : بأنه لا يَأْثَم .

وهذه قضية مهمة جداً وهى أن مَنْ حكم الشرع بجواز قتله ممن ذكرناهم فى بحث « الشدة على الكافرين » كالزنادقة والملحدين، يجوز لكل مسلم أن يقتلهم حتى مع وجود الإمام، ولكن للإمام فى هذه الحالة تعزيره وعقوبته على ذلك، فما يذكره فقهاء الحنفية من عدم التقدم على رأى الإمام لا بالنسبة للإثم عند الله، ولكن بالنسبة لحق الإمام على المسلم فى ذلك . هذا فى حالة وجود الإمام، أما فى حالة عدم وجوده فلا شك أنه لا حَرَج أبداً إذا قرر المسلم أن يتحمل مسئولية عمله .

(هـ) قال صاحب « إحياء علوم الدين » - وهو شافعى - عند كلامه عن درجات الاحتساب ما يلى :

« الدرجة الخامسة : التغيير باليد، وذلك ككسر الملاهى وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه، وعن بدنه، ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال غيره، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالساً وهو جُنُب، وما يجرى مجراه، ويُتصور ذلك فى بعض المعاصى دون بعض، فأما معاصى اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصى وجوارحه الباطنة .

وفى هذه الدرجة أدبان، أحدهما : ألا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب، فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر، وكسر الملاهى، وحل دروز ثوب الحرير، فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه، فإنَّ فى الوقوف على حد الكسر نوع عُسر، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه مَنْ لا حجر عليه فى فعله .

الثانى : أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ بلحيته فى الإخراج . ولا برجله إذا قدر على جره بيده، فإنَّ زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهى والصليب الذى أظهره النصارى، بل يُبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج فى استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء . وفى إراقة الخمر يتوقى كسر الأوانى إن وجد إليه سبيلاً، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك، وسقطت قيمة الظروف وتقومة بسبب الخمر إذ صار حائلاً بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر، ولو ستر الخمر ببدنه، لكنَّ لا نقصد بدنه بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر، فإذا لا تزيد حُرمة ملكه للظروف على حُرمة نفسه، ولو كان الخمر فى قوارير ضيقة الرؤوس، ولو اشتغل بإراقعتها طال الزمان وأدركه الفُسَّاق ومنعوه، فله كسرها، فهذا عذر، وإن كان لا يحذر ظفر الفُسَّاق به ومنعهم، ولكن كان يضيع فى زمانه، وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظروف الخمر، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان . .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف، كقوله : دع عنك هذا، أو لأكسرن رأسك، أو لأضرين رقبتك، أو لآمرن بك . . . وما أشبهه . وهذا ينبغي أن يُقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه، والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله : لأنهن دارك، ولأضرين ولدك، أو لأسبين زوجتك . . .

وما جرى مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب، نعم إذا تعرّض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطني إذا علم أنّ ذلك يقمعه ويردعه، وليس ذلك من الكذب المحظور، بل المبالغة في مثل ذلك معتادة، وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتلخيفه بين الضّرتين، وذلك مما قد رُخص فيه للحاجة، وهذا في معناه فإنّ القصد به إصلاح ذلك الشخص .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف، والقاضى يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس، فإن أصرّ المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريب كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب يراعى التدريب، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالخرج، فله أن يتعاطى ذلك ما لم تشرفتة . كما لو قبض فاسق مثلاً على امرأة، أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لأرمينك . فإن لم يخل عنها فله أن يرمى وينبغي أن لا يقصد القتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريب . وكذلك يسل سيفه ويقول : اترك هذا المنكر أو لأضربنك، فكل ذلك دفع المنكر، ودفعه واجب، فكل ممكن، ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله، وما يتعلق بالآدميين .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح، وربما يستعد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا، فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدى إلى تحريك الفتنة، وهيجان الفساد، وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن - وهو الأنيس - لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثوانى إلى ثوالت وقد ينتهى لا محالة إلى التضارب، والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف . ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه، ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر، فذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله، والمسلم إن قُتل فهو شهيد، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب الحق إن قُتل مظلوماً فهو شهيد، وعلى الجملة فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر فى الحسبة فلا يُغَيَّر به قانون القياس، بل يقال : كل من قدر على دفع المنكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه، فالمسألة إذن محتملة كما ذكرناه » (انتهى) .

من هذه النقول كلها يتضح أن إخلاء أرض الإسلام من الفساد والمفسدين واجب على المسلمين وحق لكل منهم، وأنه يجوز لكل مسلم استعمال هذا الحق حتى لا يبقى فساد ولا ريبة ولا مفسدون ولا مؤذون فى أرض الإسلام .

وإذا كان إمام المسلمين موجوداً فإنه آثم إن لم يفعل، وعلى المسلمين أن يفعلوا، أما والإمام غير موجود فعلى المسلمين أنفسهم أن يقوموا بعملية التطهير هذه حتى تقوم دولة الإسلام وترجع الخلافة . وإن أكثر أقطار الإسلام اليوم قد سيطر عليها الكافرون والمتردئون والزنادقة والملحدون والمنافقون والفاقدون والمفسدون على شكل أفراد أو هيئات أو منظمات أو أحزاب . فنشأت فى أرض الإسلام أحزاب ضالة كافرة، وقامت جمعيات سرية توالى الكافرين، وتؤكد وجود الباطنيين والزنادقة وأهل الإلحاد . ونقض النصارى عهود ذمتهم، وقامت حكومات أقطار العالم الإسلامى على هذا المزيج الكافر، وساعد هذه الحكومات أجهزة : مهمة رجالها تثبت الفساد، وجاهر الناس بالمعاصى والكبائر، وأصروا عليها واستباحوها، وفقدت الخلافة والإمامة .

وأمام هذا كله فقد أصبح واجباً على المسلمين أن ينظموا عملية تطهير

واسعة فى كل قُطر من أقطارهم، يستأصلون بها مَنْ ذكرناهم فى باب الشدة على الكافرين، ويستأصلون بها الفساد، ويستلمون زمام الحكم فى كل قُطر ويعيدون الأمر إلى نصابه .

وهذا لا يتم إلا بتنظيم عملية الجهاد بالنفس على أرض الإسلام، يستأصلون بها بلا شفقة ورحمة الباطنيين الكفرة والبهائيين والقاديانيين، ويستأصلون بها الأحزاب الكافرة كالشيوعيين والقوميين الجاهليين ودعاة فصل الدين عن الدولة، ويستأصلون بها رؤوس البدع وأهل الفساد والريب، ويستأصلون بها المرتدّين عامة، ويستأصلون بها الماسونيين وأمثالهم، حتى تصفو أرض الإسلام للمسلمين . إنّ هذا الآن واجب لا يسع تأخيرهُ، لأن تأخيرهُ يعنى القضاء على البقية الباقية من الإسلام . وهذه العملية مُقدّمة على الجهاد فى دار الحرب لأنه لا يمكن أن يقوم جهاد على أرض الحرب بدون تصفية الكافرين، وتوحيد المسلمين، وإيجاد إمامهم، ثم لأن جهاد العدو القريب أولى من جهاد العدو البعيد .

يقول ابن تيمية فى فتواه عن طائفة من الباطنيين وهى فتوى تنطبق على كل شبيه لهم فى أرض الإسلام : « ولا ريب أنّ جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات، وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد مَنْ لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإنّ جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدّين . والصدّيق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدّين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإنّ جهاد هؤلاء حفظ لما فُتِحَ من بلاد المسلمين، وأن يدخل فيه مَنْ أراد الخروج عنه، وجهاد مَنْ لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال، مقدّم على الربح، وأيضاً فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك، بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر مَنْ يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم فى الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب، ويجب على كل مسلم أن يقوم فى ذلك

بحسب ما يقدر عليه من الواجب، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] ، والمعاون على كفر شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى . إن علينا أن نجاهد بيدنا في أرض الإسلام على كل حال .

إن كان إمام يقوم بذلك ساعدناه، وإن قَصَّرَ الإمام نصحناه، وعملنا مهما كلفنا، وإن لم يكن إمام فعلى المسلمين أن يعملوا .

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إن الله لم يُقَيِّدْ هذا بوجود إمام، بل بوجود المسلمين، والمسلمون في كل مكان لا يعدمون أن يؤمروا عليهم أميراً منهم يختارونه ليكون أميراً محلياً عليهم ريثما يوجد الإمام .

وسيقول الناس عنا : إرهابيون، قتلة سفاكو دماء، وهذا كله من لوم اللائمين ليشنونا عن الجهاد في سبيل الله، وليضغظوا علينا نفسياً كي نتركه، ولكن الله علَّمنا ألا نخاف لوم اللائمين في ذاته : ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهناك تهمة أخرى يمكن أن يُتَّهم بها المجاهدون في هذا الباب وهي أنهم خوارج، وهذه التهمة يلصقها عالمون مارقون، أو حُكَّام مستغلون، فلا بد من التفصيل في هذا الباب . .

يقول فقهاء الحنفية : « الخوارج البُغاة الذين يجوز للإمام قتالهم، ويجب على المسلمين أن يقاتلوهم مع الإمام هم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق،

والإمام الحق هو من التزم أحكام الإسلام في ذاته، وألزم الأمة كتاب الله وسنة رسوله، فهذا مَنْ خرج عليه كان باغياً ظالماً خارجياً يجوز قتاله » . أما الصور الأخرى فليست من ذلك في شيء .

فالكافر ليس إمام حق، والمبتدع ليس إمام حق، والداعى إلى الضلال ليس إمام حق، والذى لا يُصلّى ولا يلتزم أحكام الإسلام في ذاته ليس إمام حق، والذى يلغى أحكام الله، ويعطل شريعته، ويريد أن ينشر الفسوق والإباحية ليس إمام حق والذى يريد أن يُفرّق بين المسلمين بالعصبية القومية والوطنية ليس إمام حق . فالخارجون عليه هداة وليسوا بغاة .

وحتى الإمام الحق إذا خُرج عليه بحق لا يعتبر الخارجون بغاة بل عليه في هذه الصورة أن يرجع إلى الحق، وفي مثل هذه الصورة يقول فقهاء الحنفية :
« يكون المسلمون هنا على الحياد، فلا يكونون مع الخارجين كيلا يشقوا عصا الطاعة، ولا يكونون مع الإمام كي لا يساعده على الظلم حتى يرجع عنه » .

هذا هو التحقيق في هذه المسألة وما عداه كذب وافتراء وضلال ونفاق ومالأة للظالمين وركون إليهم .

٢- الجهاد باليد والنفس على دار الحرب :

إنّ هذا النوع من الجهاد باليد قد فُصل هو ولوازمه وظروفه وأحواله في كتابنا عن « الإسلام » ويكفى هنا أن نذكر هذه القواعد والنتائج :

١- أنّ المسلمين مكلفون بإخضاع العالم كله لسلطانه الله .

٢- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٣- ولما كان هذا الإخضاع لا يتم إلا بوحدة الأمة الإسلامية، وعودة الخلافة فيها، وحشد القوى، وإطلاق الطاقات، وتعبئة الموارد، وإيجاد الصناعات من أجل أن توازى قوة الأمة الإسلامية قوة العالم . فإنّ هذا كله واجب .

ولما كان هذا لا يكون حتى يعود السلطان فى كل قطر إلى المسلمين
وتصفى الأوضاع الكافرة فيه فإن هذا واجب .

ولما كان هذا لا يتم إلا بالجهاد بالنفس على أرض الإسلام أولاً، كان ذلك
هو الواجب الأعلى الآن .

٤- وكل ما تحتاجه عملية إخضاع العالم هو واجب على الأمة الإسلامية
لا شك فيه . من اختصاص، لتدريب، لفن القتال .

٥- ويكون الجهاد بالنفس فرض عين على كل إنسان قادر فى أرض الإسلام
إذا اقتضت العملية مشاركة الجميع، كما يكون فرض عين إذا هوجمت أرض
الإسلام واحتيج إلى التعبئة العامة من أجل الدفاع، كما يكون فرض عين إذا احتل
جزء من أرض الإسلام واحتيج لإنقاذه إلى التعبئة العامة، أما إذا كانت الأقطار
المجاورة تكفى لإنقاذه فيفترض فرض عين على أهلها فقط .

٦- وأمر الحرب فى عصرنا مُعَقَّد، والمسألة تحتاج إلى موازنات كثيرة وإلى
فتوى من أهلها، والطريق لإخضاع العالم لسلطان الله طويل، وحيثما فتحت لنا
آفاق الدعوة إلى الله فعلينا أن نلجها، وقد يضطر المسلمون إلى رفع راية التعايش
السلمي مع كثير من الدول بسبب اختلال موازين القوى، ولكن لا بد من نية
وعمل .

* * *

رابعاً : الجهاد السياسى

الحكومات ثلاث :

(أ) إسلامية عادلة : واجبنا معها الطاعة لها، والإخلاص لها، وبذل
النصيحة ودعمها، والمحافظة عليها، قال عليه السلام : « الدين النصيحة »، قلنا :
يا رسول الله، لمن؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »^(١) .

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى، ولترمذى والنسائى عن أبى هريرة .

(ب) وإسلامية جائرة : واجبنا معها نصحتها وتقويمها : « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةً عَدَلَ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » ^(١) ، « حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرَافاً » .

(ج) وكافرة : واجبنا فيها تغييرها وإنهاؤها : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٣] .. والمسلم لا يخلو أن يكون فى ظل واحدة من هذه الحكومات، عليه أن يجاهد جهاداً سياسياً فى سبيل الله على حسب نوع الحكم الذى يعيش فيه، وهذه صور من أنواع هذا الجهاد ضمن كل نوع من أنواع الحكومات التى يعيش فى ظلها المسلم .

(أ) الجهاد السياسى فى دولة إسلامية عادلة :

الحكومات الإسلامية العادلة : هى التى يكون رؤساؤها ورجال أجهزتها مسلمين ملتزمين بالإسلام فى أنفسهم، ومنهاجها ومنهاج أجهزتها كلها نابعاً عن الإسلام، وتعمل على تحقيق الإسلام فى أرضها وخارج أرضها، ومواقفها الداخلية والخارجية كلها إسلامية، وتخضع لأحكام الله خضوعاً مطلقاً، وأهدافها فى الداخل والخارج إسلامية خالصة، شعارها إقامة دولة الله، وتوحيد أمة الله، وإحياء سنة رسول الله ﷺ ، ونصرة شريعة الله، والجهاد فى سبيل الله حتى تكون كلمة الله هى العليا فى العالمين، وتربى شعبها تربية إسلامية نموذجية حتى يكون كل فرد جندياً فى حزب الله الذى رأينا صفاته الأساسية فى هذا الباب . فهى مثل واضح للآية : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج: ٤١] .

مثل هذه الحكومة التى أميرها وأجهزتها التنفيذية ومجالس شورائها أحرص على الإسلام وتطبيقه من أى فرد آخر . يجب علينا تجاهها أن نخلص لها النصيحة والود، وأن نقدم لها كامل الولاء والطاعة فى المعروف . ندافع عنها ونحميها وندعمها، ونكشف أعداءها ونبذل من أجل بقائها واستمرارها

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

وتوسعها النفس والنفيس فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، دون عرض آخر . قال الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال عليه السلام: « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ » (١) .

وقال عليه السلام: « مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يَطْعُ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِى، وَمَنْ يَعِصُ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِى » (٢) . وقال: « عَلَيْكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمِنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ » (٣) .

وقال: « ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزْكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ . . . وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يَبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا مَا يَرِيدُ وَفِيَّ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ » (٤) .

(ب) الجهاد السياسى فى دولة إسلامية منحرفة :

ومظاهر الانحراف فى الدولة الإسلامية كثيرة : أن يكون أميرها ظالماً، أو فاسقاً، أو يستعمل غير الأكفاء فى أجهزته، أو غير المسلمين، ولا يكون هناك التزام كامل فى الشريعة الإسلامية داخلياً وخارجياً، وفى مثل هذه الحالة ننظر إن كان الأمير وحكومته لا يزالون يعترفون لله بالحاكمية ولا يعترفون بشريعة أخرى غير شريعته، فهؤلاء فُسَّاقٌ، الحد الذى بيننا وبينهم الصلاة فإن كانوا يلتزمون بالصلاة فلا نقاتلهم، وإن استطعنا عزلهم بالوسائل السلمية عزلناهم، وإن كانوا لا يلتزمون الصلاة حاربناهم حتى نعزلهم، ونقيم فيهم حد الله وحقه .

(١) رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « فضل الجهاد والسير » باب « السمع والطاعة للإمام »،

عن أبى هريرة رواه مسلم والنسائى وأحمد وابن ماجه فى المقدمة .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن أبى هريرة .

(٤) رواه الستة وأحمد عن أبى هريرة .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . قلنا : يا رسول الله، أفلا ننابذهم ؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعنَّ يداً من طاعة » .

وفى حديث آخر رواه مسلم وأبو داود والترمذى : « قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : « لا ما صلُّوا » .

واجتهاد الحنفية : أن الإمام إذا فسق يستحق العزل إذا أمكن عزله بالوسائل السلمية، وفى الحديث : « أعجزتم إذ بعثت رجلاً فلم يمحض لأمرى أن تجعلوا مكانه من يمحض لأمرى » (١) .

فإذا لم يمكن عزله بالوسائل السلمية وكان يصلى فكيف يكون جهادنا السياسى فى هذه الحالة ؟

١- ينبغى أن يكون موقفنا منهم موقفاً سلبياً من حيث المؤدّة والمخالطة، قال عليه السلام : « أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى، من غشى أبوابهم وصدقهم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولا يرد على الحوض، ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم فى كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض » (٢) .

٢- الوقوف الدائم فى وجههم عند كل انحراف بالاحتجاج والنصيحة

(١) رواه أبو داود .

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى فى باب « ما ذكره فى فضل الصلاة » تحت رقم (٦١٤) مع اختلاف فى بعض اللفاظ يسير، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه النسائى أيضاً .

والاعتراض، قال ابن مسعود: «ستكون عليكم أمراء يدعون من السنة مثل هذه، فإن تركتموها جعلوها مثل هذه، فإن تركتموها جاءوا بالطامة الكبرى» .
وقال عليه السلام: «إن من أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»^(١).

وقال: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»^(٢).

٣- تطويق الفساد بكل وسيلة صالحة بدراسته ومعرفته وتحذير الناس منه ومناصحة أهله والكيد بهم إن أمكن، فمن المواطن التي أجاز فيها الفقهاء الغيبة ما يلي:

«ومنها - أى من المواطن التي تجوز فيها الغيبة - أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولى من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به»^(٣).

٤- وفي عصرنا هذا وقد تطورت أجهزة الدولة، وتطورت وسائلها فعلى المسلمين أن ينظموا عملية تطويق الفساد والمناصحة داخل دولتهم المنحرفة. فبعضهم يأخذ على عاتقه مراقبة أجهزة الإعلام ومحاولة كف شرها ومناصحة أهلها، ونقد أعمالهم، وإيقافهم عند حدهم. وبعضهم يتولون أمر جهاز الداخلية، وآخرون أمر جهاز التعليم، وآخرون أمر جهاز الخارجية، وآخرون أمر جهاز المالية، وآخرون مناصحة الرئيس الأعلى، وآخرون أمر الجيش. . . كل ذلك بتنسيق وتفاهم وسلام لا مهادنة فيه على باطل.

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٢) رواه الحاكم عن جابر بن عبد الله والطبراني في «الكبير» عن علي، ورمز السيوطي لصحته.

(٣) رواه النووي في الأذكار.

٥- أن ينشط المسلمون في الجهاد اللسانى، والجهاد التعليمى، حتى يَوجدوا رأياً عاماً يضطر فيه الحكم لمساييرته فى الإسلام . أما بدون ذلك فالحكم يقفز نحو الفساد مسaire لل رأى العام الفاسد .

٦- أن يأخذ ناس على عاتقهم تنظيم عملية الجهاد باليد دون الوصول إلى صدام مع الدولة وقتال معها وإنما لإنكار المنكر على الأفراد، فيتتبعون آلات اللهو والصور العارية والخمر والتبرج و . . . على أن لا يلجأوا إلى اليد إلا بعد استفراغ جهدهم .

٧- الارتفاع شيئاً فشيئاً نحو الإسلام بخطوات متلاحقة منظمة قصيرة وناجحة، حتى يعودوا بحكومتهم إلى حالة العدل الكامل .

والكلام هذا كله فى دولة تعترف بالإسلام، ويقيم رجالها الصلاة ولكن فيها شىء من الانحراف عنه .

هذا الكلام الذى مرَّ إنما هو فى دولة إسلامية منحرفة لا يوجد غيرها، ولكن لو أن هذا الانحراف كان فى قُطر من أقطار المسلمين، وبقية أقطار المسلمين خاضعة لسلطان خليفة حق، فإنه فى هذه الحالة يجب على الإمام الحق أن يقوم هذا الانحراف ولو بالقوة والحرب .

وكذلك الحكم لو أن الانحراف وُجدَ فى قُطر فأصبح هذا القُطر دار فسوق، وقامت دار عدل فى قُطر آخر يتمثل بها الإسلام تمثلاً تاماً، فإن لدار العدل فى هذه الحالة أن تفرض العدل على الدولة الأخرى ولو بالحرب، بل لدار العدل حق إخضاع كل خارج عليها كما مرَّ معنا فى غير هذا الكتاب .

• (ج) الجهاد السياسى فى دولة كافرة :

ناقشنا فى كتاب « الأصول الثلاثة » موضوع الحكم الإسلامى وفرضيته وكونه لا بد للمسلمين منه . ونقول الآن : إنه ليس أمام المسلمين خيار فى حالة كونهم محكومين من قِبَل كافرين، سواء أكانوا مرتدِّين، أو مستعمرين أو غير ذلك،

إلا أن يقاتلوا ليستأصلوا النظام الكافر الذى يحكمهم، وإذا لم يكونوا يستطيعون القتال فعليهم أن يُعدوا عُدَّتَهُ ، وكل ما يلزم معه من لوازم الدولة المسلمة، وما لم يفعلوا ذلك فإنهم آثمون آثمون آثمون :

لأن الفرائض العامة التى كَلَّفَهم بها الله معطَّلة، ولأنهم يعطون طاعتهم وذلثهم لغيرهم، ولأنهم يُعَرِّضُونَ ذريتهم للتكفير، ولأنهم بتقاعسهم يعم الكفر ويقوى سلطانه .

وهذه قضية لا يجوز أن تكون محل نقاش .

وقد رأينا النصوص الواردة فى هذا الموضوع، فليراجعها مَنْ شاء فى مقدمة هذا الكتاب، وفى هذه الفقرة منه وفى كتابنا عن « الإسلام » ، فَمَنْ لم يقتنع بعد هذا بوجوب الجهاد السياسى لإسقاط واستئصال النُظم الكافرة التى تحكمه فهو إما جاهل، أو مستكبر، أو جبان لا يرغب أن يتحمل مسئولية هذا الجهاد، والذين يعملون للإسلام الآن غلبت عليهم وجهات نظر بعضها إيجابى قاصر وبعضها سلبى، بعضها مفيد على ألا يُقْتَصَر عليه، وبعضها مضر، ونحن نرى أنفسنا مضطرين لمناقشة هذه الوجهات من النظر كلها على اعتبار أن هذه المناقشة ضرورية ليخطو المسار الخطوة التى لا بد منها، ولنضع هذه الوجهات فى الإطار الذى ينبغى أن توضع فيه كعمل لا بد منه لتصحيح مفاهيم العاملين ومقدمة جهد سليم بدونه تبقى الجهود مبعثرة :

١- يذهب بعض المسلمين إلى وجوب إقامة جمعيات خيرية إسلامية تقيم بعض جوانب الإسلام : كالزكاة فتقدِّم للمحتاج، وتسد عوز المعوز، وتحقق بهذا جانباً مهماً من مقاصد الإسلام . وهذا عمل لا شك مبارك وطيب، وتلتزم عادة هذه الجمعيات بقانون الدولة الذى يُلزم هذه الجمعيات بعدم القيام بنشاط سياسى، وهذا شىء لا تستطيع الجمعيات القيام إلا بالالتزام به، ولكن هل يعنى وجودى فى جمعية خيرية أنه لا يجوز لى أن أشارك فى أى عمل إسلامى آخر ؟ وهل قيامى ببعض الخدمات الإسلامية يعفينى من واجباتى الأخرى ؟ وهل

القانون الذى حظر على الجمعيات الخيرية أن تشتغل فى نشاط سياسى يُحرّم على أفرادها أن يشاركوا فى العمل العام للأمة ؟ يبدو أن الجواب بالنفى على هذه الأسئلة هو الجواب الصحيح . فإنّ جابى الصدقات وموزعها يطالب بالإسلام كله كما يطالب غيره، ويطالب بالعمل الإسلامى كما يطالب غيره . تصور مثلاً جابياً على عهد عمر أعطى لنفسه حق عدم الجهاد فى حالة فرضية الجهاد، فماذا يكون جواب الخليفة على هذا ؟

إنّ للقلب وظيفة توزيع الدم للجسم ولو عُزِلَ عن الجسم يموت، وكذلك الفرد فى الجمعية الخيرية يقوم بواجبه فيها، ولكن على أن يبقى جزءاً من الجسم الإسلامى العام، يشارك فى حياته وحركته فيبقى جزءاً مرتبطاً فى الكل .

إنّ من حق الجمعية أن تطالب أعضائها داخل الجمعية أن يبقوا فى إطار القانون الذى قامت به الجمعية، ولكن ليس من حق أحد أن يمنع أحداً يريد أن يشارك خارج حدود الجمعية بالعمل الإسلامى العام، وحتى القانون لم يطلب هذا، فكم من زعيم سياسى مثلاً منتسب إلى جمعية خيرية لم يمنعه انتسابه أن يبقى عاملاً فى المحيط العام، ولم يمنع الجمعية من قبول مشاركته فى العمل السياسى وإن كان هو ملتزماً بالآل يجعل الجمعية مسرحاً لنشاطه السياسى أو يستغلها فى هذا الموضوع، ولها الحق أن تطالبه بهذا إذا وجدت منه ذلك .

وإنى أسأل : لو كان هناك حزب منفرد فى الحكم، فهل ترى الدولة وقتذاك، أو الجمعية، أنّ القانون يُحرّم على أفرادها خارجها أن يكونوا منتسبين لهذا الحزب ؟

إنّ الجمعيات الخيرية الإسلامية التى تمنع أفرادها من المشاركة فى أى عمل إسلامى مع المسلمين خاطئة أكثر من مرة . خاطئة لأنها لم تفهم عموم الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] . وخاطئة لأنها لم تفهم عموم الآية : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢] . وخاطئة لأنها تطالب نفسها بما لا يطالبها به القانون الكافر نفسه .

٢- ويشبه هذا إلى حد كبير مع وجهة نظر أخرى ما يحدث عند طبقة العلماء وإخوانهم سواء أكانوا علماء فقه أو علماء طريق . ففي العادة أن كل عالم يكون قطباً لدائرة يلتف حوله فيها ناس يكثرون أو يقلون تبعاً لقوة شخصية العالم أو تأثيره أو علمه أو بيانه أو . . . وكل مجموعة حول عالم تشكل بشكل عفوى جماعة، أو جمعية، واجب العالم فيها أن يُعلّم، وواجب الفرد فيها أن يتعلم، ونحن نعتقد أنه حيثما كان علم كان انتصار للإسلام، وحيثما كان جهل كان ذاك انحساراً له، وفي الأثر الذى معناه : « إن لهذا الدين إقبالاً وإدباراً، ومن إقباله أن تتفقه القبيلة بأسرها، ومن إدباره أن يتفقه الرجل والرجلان » (١) . ما يؤيد هذا المعنى .

ولكن الشئ الذى يؤخذ على الجمعيات السابقة، يؤخذ على هذه الجمعيات، وهو عزل أفرادها عن بقية المسلمين . فإن كل مجموعة التفت حول عالم أصبحت تستشعر أخوتها العميقة فيما بينها، وأنها تشكل جسداً واحداً، والتحاب فى الله، والأخوة فى الله شئ جميل وعظيم جداً، ومن لا يذكر الأحاديث الواردة فى الحث على ذلك . ولكن أن يكون ذلك على حساب وحدة المسلمين جميعاً، وأخوة المسلمين جميعاً، فهذا شئ قبيح . ففي الأصل ينبغى أن يكون المسلمون جميعاً جسداً واحداً، وأن يكونوا جميعاً إخواناً لهدف واحد وطريق واحد، وعمل مشترك . ولكن ما يجرى هو عكس هذا، فعندما يكون فى بلد عشرة علماء، تجد عشرة أجسام، وبدلاً من أن تشكل الأجسام العشرة صفّاً واحداً، تجدها تتصارع أحياناً، وبدلاً من أن يفتح كل واحد من العلماء مع أتباعه على إخوانه من العلماء وأتباعهم، تجده مغلقاً على ذاته هو وإخوانه، وبالتالي تجد أن كل مجموعة من هؤلاء قد انفصلت شعورياً أو لا شعورياً عن الجسم الإسلامى العام، ولم تعد تتحرك بحركته، بل أصبح لها كيانه المنفرد، وحركتها الخاصة، لدرجة أن يصل ببعضهم الأمر إلى حد تحريم المشاركة فى أى

(١) رواه الطبرانى عن أبى أمانة وفيه يزيد بن على : متروك .

عمل إسلامى خارج هذه الحركة المحدودة . ونستثنى طبعاً طبقة من العلماء يمثلون ذروة الوعي الإسلامى بانفتاحهم على العمل الإسلامى العام، وعلى كل العاملين العاملين للإسلام، ولا شك أن للكثير من المواقف أسبابها، والأمر يحتاج إلى علاج .

٣- ومن وجهات النظر التى يذهب إليها بعض العاملين للإسلام، وجهة النظر التى يقول : إنَّ علينا ألا نتدخل فى الشؤون السياسية، ثم ينقسمون، فمنهم مَنْ يصل إلى حد الترك المؤيد لأنَّ السياسة تُلهى عن الله والدار الآخرة، ومنهم مَنْ يقول : نتركها إلى أمد، ومنهم مَنْ يقول، إنَّ ترك السياسة من السياسة، والدولة الإسلامية ثمرة، ستكون نتيجة لإيصال الإسلام إلى كل إنسان، والتربية عليه وهكذا ... ونحن نُفرِّق فى هذا الموضوع بين حالتين، الحالة الأولى : حالة ما إذا كنتُ داخل دولة غير دولتى التى أعيش فيها . كأن خرجت من قُطرى إلى قُطر آخر من أجل التبشير بالإسلام، ففى هذه الحالة يبدو أننى مقيّد بعدم التدخل فى السياسة الداخلية لهذا البلد لأننى بهذا الشرط دخلت، وبدونه يبقى باب العمل الإسلامى فى هذا القُطر أمامى مغلقاً، فإنه لن تسمح لى دولة أن أدخل بلادها لأنقد أوضاعها، ولكنها تسمح لى أن أدخل عارضاً للإسلام ومبشراً به . . فهذه حالة .

والحالة الأخرى : حالة وجودى فى دولتى التى أعيش فيها . . فما الحكم ؟ يجب قبل الجواب على هذا السؤال أن نذكر بعض الأمور :

(أ) أصبحت الدولة فى العصر الحاضر بيدها مقاليد كل شىء : التربية، والتعليم، والاقتصاد، والجيش، والشؤون الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، والثقافية . . فما من شىء له علاقة بالجنس البشرى إلا وترى كل حكومة من الحكومات أن لها الحق فى الإشراف عليه، وأصبح العمل السياسى نتيجة لهذا له علاقة بكل شىء يخص الإنسان .

(ب) وكل حكومة فى العالم تقوم على أساس تكتل شعبى له صفة الحزب السياسى ، حتى الحكومات العسكرية والديكتاتورية تحاول مباشرة بعد الاستيلاء على الحكم أن تقيم لها تنظيمًا حزبيًا سياسيًا على أساس فكرى .

(ج) ونتيجة لهذا فقيام الأفكار والآراء الإصلاحية أو السياسية بشكل مطلق مرتبط بتنفيذه بوجود الحكم والحزب . فلا حكم إلا بحزب ، والحزب ما لم يصل إلى الحكم تبقى نظرياته مجرد آراء لا قيمة عملية لها . والمسألة الآن فى العالم الإسلامى على الشكل التالى :

فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى تقوم حكومة يدعمها تكتل ، هذه الحكومة مع تكتلها غير ملتزمة عملياً - وفى غالب الأحيان - ونظرياً بالإسلام . ونظراً لأن الدولة فى عصرنا الحاضر بيدها كل شىء فإن النتيجة الطبيعية لهذا أن كل دولة من دول العالم الإسلامى تصبغ شعبها الصبغة التى تريدها ، ودائماً تكون هذه الصبغة « اللإسلام » ولو تظاهرت هذه الدولة بعدم معاداتها للإسلام كدين . ونظرة واحدة إلى هذا الجيل الموجود الآن فى العالم الإسلامى تريك أن هذا الجيل ليس للإسلام فيه نصيب إلا إذا كان الاسم يعتبر نصيباً ، وحدث كآثر عن هذا :

(أ) أن الوحدة الإسلامية غير قائمة ، ولا تسعى إليها أى دولة فى العالم الإسلامى ، بل تنفر منها ، وتحاربها ، مع العلم أنها فريضة على المسلمين .
(ب) أن شعيرة الجهاد قد ماتت نظرياً وعملياً وتحقيقاً ، وهى فريضة على المسلمين .

(ج) وأحكام الإسلام منعطلة فى كل قطر إسلامى وهى فريضة على المسلمين : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، ﴿ سُوْرَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [النور: ١] .

وأمام هذا الواقع فما حكم إقامة حكومة إسلامية فى كل قطر من أقطار الإسلام ؟

إنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وما دامت أحكام الله لا تقوم، والجهاد لا يقوم، والوحدة الإسلامية لا تقوم إلا بوجود حكومة إسلامية فى كل قُطر إسلامى، فقد أصبح قيام هذه الحكومة فريضة فى كل قُطر على المسلمين فى قُطرها، وعلى مَنْ يستطيع مساعدتهم من غيره .

وفهم بعض المسلمين أنَّ المشاركة فى العمل من أجل إقامة حكم الإسلام فى كل قُطر فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين . وهذا صحيح إذا كان هذا البعض يكفى، إذ كلمة « فرض كفاية » تعنى بشكل واضح أنه إذا قام به من المسلمين ما يكفى فقد سقط عنهم، أما إذا لم يقم به من المسلمين ما يكفى فإنه يبقى مفروضاً على كل فرد، وما دام حكم الإسلام غير قائم الآن ففرض على كل مسلم فرضاً عينياً العمل من أجل إقامته، وإذا كانت الفوضى لا تقيم حكماً، فالنظام فريضة، وإذا كانت الفرقة لا تقيم حكماً، فوحدة المسلمين فريضة، وإذا كان للحكم طريق، ففريضة سلوك هذا الطريق فريضة، وإذا كان الحكم يحتاج إلى نوع معين من الإعداد والأجهزة، ففريضة وجود هذا الإعداد وهذه الأجهزة . وهذا كله يُطلق عليه اسم العمل السياسى، وبهذا يكون الجواب قد وضح بالنسبة للسؤال الذى أشرنا إليه عن حكم العمل السياسى بالنسبة لكل فرد مسلم فى كل قُطر .

بل الذى نقوله : إنَّ المسلم ينبغى أن يكون على درجة من الوعى السياسى لا مثيل لها فى العالم، وذلك ما دام كل قضية من قضايا الإنسان لله فيها حكم، والمسلم كمسلم يجب أن يتبنى هذا الحكم ويطبقه على نفسه، ويسعى لتطبيقه على غيره، وما دامت الدولة قد أصبح مجال عملها كل القضايا، وما تفعله الدولة إما أن يكون موافقاً للإسلام أو مخالفاً له، والمسلم كمسلم ينبغى أن يكون موقفه سلبياً أو إيجابياً تبعاً لذلك، ولا يستطيع أن يتخذ موقفاً معيَّناً إلا إذا كان على وعى عظيم . فهو إذن غير مُخيرٍ فى أن يتخذ موقفاً سياسياً أو لا يتخذ، بل كون الشريعة الإسلامية كاملة يفرض عليه أن يدور مع الكتاب حيث دار .

وهذا معنى آخر يجعل العمل السياسى بالنسبة للمسلم ضرورة من الضرورات فى كل الأحوال، فى حال وجود الحكم الإسلامى أو عدمه، ولعل عدم الوعى السياسى عند المسلمين كان من جملة العوامل التى أدت إلى كارثة العالم الإسلامى .

ومعنى ثالث يجعل العمل السياسى الإسلامى بديهية من البديهيات، هو وجود أحزاب سياسية لا إسلامية فى العالم الإسلامى تسعى للوصول إلى الحكم، أو هى فيه فعلاً، فإن هذا يقتضى مباشرة أن يشكل المسلمون حزباً سياسياً وجماعة تعمل على أساس العقيدة الإسلامية، بتخطيط أدق، وعمل أتم، وفكر منظم، كى لا تُبتلى الأمة بوصول الكافرين والمنافقين إلى الحكم، فتقطع الطريق عليهم، أو تحول دون استمرارهم فى حالة وصولهم إلى الحكم، خاصة بعد أن أصبح الحكم - كما قلنا - لديه من وسائل القوة والدعاية والتعليم والضغط الاقتصادى ما يستطيع أن يجرف به أمة عن اتجاهها مهما كان نوع هذا الاتجاه، وما حدث فى تركيا على يد القوميين الأتراك يجعل المسألة فى وضوح الشمس .

* * *

إنَّ البرتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون يذكر أنَّ اليهود يحاولون أن يبلبلوا رأى العام بما يُقدِّمون له من أفكار متناقضة متصارعة . حتى يكون أحسن شىء عند الرجل العادى ألا يتدخل فى الشؤون السياسية .

ولعله ليس مصادفة أن نجد الاستعمار والصليبية والصهيونية والحكومات الممثلة لها داخل العالم الإسلامى يشجعون جميعاً الاتجاهات التى تفصل بين المسلم والعمل العام أو التى تُفرِّق المسلمين كى لا يتحد المسلمون على هدف واحد .

إنَّ المسلم الذى يطرح شعار : « لا أَدخل فى الشؤون السياسية » . إما أنه لا يفهم الإسلام، أو جبان لا يريد أن يقف بصلافة مع حكم الإسلام .

ولو سلكننا هذا الطريق لأخرجنا جيلاً سلبياً انهزامياً خائراً واهماً بعيداً عن مشاكل الحياة، تاركاً الدنيا للمفسدين يعيشون فيها فساداً . وقد بُعث الرسل عليهم السلام لصلاحها : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، ونجعل المسلمين وقتذاك فيها عبيداً مستذلين، وهم الآن كذلك، وعندئذ فمصيرهم ومصير أبنائهم أن يكونوا كافرين، إنَّ طرح هذا الشعار إما عمالة، أو جهالة، إلا مَنْ طرحه مداراة أو خدعة للوصول إلى حق لا يمكن الوصول إليه إلا به .

إنه عندما تضطر طبيعة بعض الأعمال، وضرورة الحركة بعض الناس أن يظهروا بمظهر العمل الإسلامى غير السياسى فيجب عليهم أن يفرقوا هم ومَنْ يتعاون معهم من المسلمين بين مظهرهم المضطرين للظهور به داخل هذا الإطار الذى يعملون فيه، وبين واجب كل فرد منهم كمسلم أن يشارك كفرد خارج هذا الإطار فى العمل الإسلامى السياسى المشترك الذى يفترض على كل مسلم المشاركة فيه بنظام ووعى . أما أولئك الذين يفرضون على أنفسهم، وعلى مَنْ يسير معهم عدم المشاركة فى العمل الإسلامى السياسى العام مع بقية المسلمين، فهم آثمون مرتين : مرة لأنهم لم يشاركوا، ومرة لأنهم منعوا غيرهم من المشاركة فى فريضته، وقد يكون الشيء الذى انفردوا فيه نافلة ضيعوا من أجلها فرائض .

٤- ومن وجهات النظر فى العمل الإسلامى : وجهة النظر التى تقول بأنَّ على المسلمين أن يكون لهم تكتل سياسى ذو فكر واضح، بأن يتبنى هذا التكتل آراء واضحة فى كل القضايا المطروحة، حتى ولو كان الحكم فيها خلافياً بين أئمة الاجتهاد، ويُفرض هذا رأى المتبنى على كل فرد من أفراد التكتل، بحيث لا يُقبل المسلم عضواً فى هذا التكتل إلا إذا التزم التزاماً كاملاً بكل الفكر المتبنى، لدرجة أنه لو خالف فى قضية واحدة لم يعد عضواً معترفاً به .

مثل هذه الوجهة من النظر تحتاج إلى نقاش دقيق لما لظاهرها من البراقية التى تخدع عما فى باطنها من خطر كبير .

فأن يكون للمسلمين تكتل سياسى فريضة، وأن تكون أفكارهم واضحة شىء أساسى، ولكن التبنى وفرض هذا التبنى، وعدم قبول الإنسان إلا به هنا يكمن موطن الخطر . وفهم المسألة نصوغها على الشكل التالى :

(أ) إن أحكام الإسلام بعضها واضح، وبعضها لا يتوصل إليه إلا باجتهاد، والاجتهاد لا يستطيعه إلا إنسان توفرت فيه شروط كثيرة، فإذا ما توفرت هذه الشروط لإنسان صار له حق إعطاء حكم الله . وقد تتوفر هذه الشروط لكثير من الناس، وعندئذ يكون عندنا مجتهدون، لا مجتهد واحد، وفى العادة أن كل مجتهد من هؤلاء المجتهدين يبذل قصارى جهده لاستخراج حكم الله، وفى العادة لا تعطى صفة الاجتهاد لمن لم يكن فى الذروة من التقوى، وبهذا يطمئن المسلم إلى أن الحكم الذى استخرجه هذا الإنسان منزّه عن الهوى .

وقد يختلف هؤلاء المجتهدون فى حكم القضية الواحدة، وفى العادة لا يختلفون حيث يكون دليل القضية واضحاً من الكتاب والسنة، إذ فى حالة الوضوح لا يسع مسلماً الخروج عن الكتاب والسنة إلى غيرهما . وفى حالة اختلافهم فى قضية واحدة تُعتبر آراؤهم فى هذه القضية كلها آراء إسلامية، وتدخل فى حيز الشريعة الإسلامية وقوانينها، وبالتالى : المسلم الذى يأخذ بواحدة من هذه الاجتهادات يكون على إسلام . يقول الشافعى : أجمع العلماء على أن الله لا يُعَذَّب فيما اختلف فيه العلماء . ويذهب بعضهم إلى أن فى الإسلام حداً أدنى وأعلى، واختلافات المجتهدين كلها تدور بين هذين الحدين . فأرق الأقوال فى القضية يمثل الحد الأدنى من الإسلام، وأعلاها يمثل الحد الأعلى، وكلما ارتقى المسلم فى تقواه كان أقرب إلى ذروة الإسلام . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٨] ، « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس » (١) .

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى .

(ب) فى هذه القضايا المختلف فيها بين المجتهدين لا يستطيع إنسان أن يفرض على الأمة كلها رأياً واحداً منها، إلا إنسان واحد هو خليفة المسلمين أو نائبه فى كل قطر بتفويض من المسلمين، وحرصاً على وحدة التشريع والقانون، واختياره رأياً من الآراء لا يجوز أن يكون بدافع الهوى، بل بدافع المصلحة، حرصاً على الأقرب إلى الحق، وبعد استشارة أهل الرأى، وبقيود معينة تُعطى حرية الاحتكام الشخصية لبعض الآراء المخالفة فى القضايا الشخصية إذا اتفق المختصون على تحكيمها .

وقد سُئل المودودى سؤالاً حول هذا الموضوع وأجاب عليه، وفيما يلى نثبت السؤال والجواب توضيحاً للمسألة التى بين أيدينا :

س : ما زلتُم إلى اليوم تقتصرون على بيان المبادئ الأساسية للدستور الإسلامى، فلماذا لم تعدوا إلى الآن مسودة لهذا الدستور ؟ ولو أنكم فعلتم هذا لكان أنفع لكم وأجدى، ولعلم الناس بكل سهولة نوع نظام الحكومة الذى تريدون إقامته فى البلاد .

ج : إنى لا أرى فى الدنيا أشد خطأً وسفاهة من رجل أو جماعة يضع الدستور من غير سلطة ولا صلاحية . وما وضع الدستور إلا من وظيفة جماعة تستند إلى قوة منفذة، وما علينا اليوم إلا أن نعرض مبادئ الدستور الأساسية (انتهى) . أما إذا أعطى المسلمون السلطة لجماعة وأمير، ففي هذه الحالة يحق للأمير والجماعة أن تضع الدستور الإسلامى وتختار . . .

(جـ) وإذن فليس من حق فرد ولا جماعة أن يتبنى رأياً ويفرضه على المسلمين، لأن هذا ليس من حقه أولاً . وثانياً : لأن هذا التبنى الصلب خطر على وحدة المسلمين، وبالتالي يكون حجر عثرة فى سبيل إقامة دولة الإسلام، إذ بسببه تنشأ كيانات إسلامية كثيرة، كل واحد منها يتبنى آراء كاملة، ويفرضها على أتباعه، ولا يقبل من لا يلتزم بها فى صفه، ويعتبر الآخرين على خطأ، وعندئذ تنشأ فى القطر الإسلامى الواحد تكتلات لا حصر لها من المسلمين .

فمثلاً نفرض أنَّ في قُطر ثلاثين عالماً في درجة واحدة من العلم . فهؤلاء قد يختلفون في كثير من الأحكام ولم لا ؟ فالمالكية والحنابلة والشافعية والحنفية مختلفون في كثير من القضايا، وكلهم يقول : إنَّ الدليل معي، ولا يُتَهَمون في دين ولا تقوى . فإذا كان كل واحد من هؤلاء العلماء بصراً على رأيه، ويفرضه على جماعته، ولا يقبل في جماعته إلا مَنْ التزم بكامل آرائه الفقهية والعلمية، ففي هذه الحال تتشكل حتماً ثلاثون جماعة إسلامية، لا تلتقى مع بعضها، إذ لا يخلو إن اتفق هذا مع هذا في بعض الأحكام والآراء فقد يختلفان في حكم ورأي، وهكذا لا بد أن ينفرد الواحد عن البقية برأي، وهذا كاف ليبقى هذا بعيداً عن أخيه .

أما في حالة عدم التبني، فالأمر يختلف، إذ يمكن أن يكون الجميع يداً واحدة، وذلك حكم الله : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، وتُعرض الآراء الاجتهادية في القضية الواحدة كمذهب، والعمل ينصب لإقامة الدولة الإسلامية، فإذا ما قامت، فمن أعطاه المسلمون سلطتهم يتبنى . وإذا كانت هناك قضايا تلجئنا إلى أن نتبنى فيه رأياً فيكون بالاتفاق مع التقيد بآراء أهل الاجتهاد .

٥- ومن وجهات النظر في العمل الإسلامي وجهة النظر التي تقول بتعدد الفئات الإسلامية بحُجَّة ملء كل ثغرة من ثغرات العمل الإسلامي . فهذا يملأ ثغرة التربية، وهذا يملأ ثغرة العلم، وهذا يملأ ثغرة التكافل الاجتماعي، وهذا يملأ ثغرة الرد على أعداء الله .

وبحُجَّة أنه في حال غياب فئة من الفئات الإسلامية عن مسرح العمل بسبب ضغط أو إكراه أو عداً، فإنَّ الفئات الأخرى تبقى سادة مسددة العلم بحيث لا يتعطل .

ونحب أثناء عرض هذه الوجهة من النظر أن نذكر بعض الحقائق :

(أ) يقول الله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ ﴾ [النساء: ٨٨]

لِمَ يَكُونُ لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ وَجْهَتَا نَظَرٍ تَقْسِمُكُمْ ؟ فالمسلمون في صراعهم مع العدو جبهة واحدة برأى موحد : « المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » (١) . ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

(ب) عندما يُشكّل المختصون بالتربية فئة مستقلة استقلالاً كاملاً عن غيرها، أو فئات، والمختصون بالعلم فئة مستقلة استقلالاً تاماً عن غيرها، أو فئات، والمختصون بالعمل السياسى فئة مستقلة استقلالاً كاملاً، أو فئات، والمختصون بالتكافل الاجتماعى فئة منفصلة عن غيرها، أو فئات . . تكون النتيجة أن تبقى جماعة التربية فى حالة تكوين ناقص من بقية النواحي، وكذلك أهل العلم، وكذلك أهل السياسة، وكذلك الآخرون .

وعندئذ فبدلاً من أن يكون الاختصاص مفيداً فى تكامل الجسم الإسلامى العام، يكون الاختصاص أداة لتمييز هذا الجسم والقضاء عليه . عندما وقعت الردّة كان للمسلمين قيادة واحدة متمثلة فى الخليفة، وكانوا يُشكّلون صفّاً واحداً مع وجود بعض المميزات لبعض الأشخاص فى بعض الجوانب، وكانوا كلهم على درجة عظيمة من الوعى والعلم والتربية والعمل، وهذا هو الوضع الصحيح للمسلمين، قد يتظاهر المسلمون - لضرورة المعركة - أنه لا رابطة تربط بين فئاتهم، ولا تنظيم يجمعهم، ولا تخطيط يوحدهم، ولا هدفاً مشتركاً يسعون إليه، فهذا جائز، ولكن على أن يكونوا متّحدين هدفاً، متّحدين طريقاً، متّحدين قيادة، جسداً واحداً كل يعمل من أجل تكامله، وغير هذا لا يجوز .

٦- ومن وجهات النظر فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول :

(١) روى موقوفاً من كلام سيدنا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعثها إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه حين تولى له القضاء، وقد سبق تخريجه بشكل أوسع فى بحث « الدلة على المؤمنين ومظاهرها » فانظر هناك .

إننا اليوم فى مرحلة العهد المكى، ويعنون بهذا أن هذه المرحلة مرحلة تكوين وليست مرحلة صراع، مرحلة صبر وليست مرحلة جهاد، ومثل هذا رأى خاطئ مرتين: مرة فى تصوره للعهد المكى، ومرة فى تصوره للإسلام .

فالعهد المكى ليس عهداً خالياً من الصراع، وليس عهداً خالياً من الجهاد فى بعض صوره . والله يقول فيه: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٢]، بل على العكس من ذلك كانت أعنف مراحل الصراع الفكرى مرحلة العهد المكى، به تميّز الفكر الإسلامى عن الفكر الجاهلى، وتميّز المجتمع الإسلامى عن المجتمع غير الإسلامى، ثم كان الصراع مع الباطل جزءاً من أجواء التكوين للشخصية الإسلامية، وكيف تتكوّن الشخصية الإسلامية بدون صراع مع الجاهلية؟ ولم يكن الصبر إلا نتيجة من نتائج الجهاد الفكرى واللسانى، ولم يكن أبداً الصبر الذى يتصوره بعض الناس أن يقف الموقف السلبي الانهزامى من الكفر والكافرين، ويصبر بعد ذلك على سخريتهم وأذاهم . إنّ الأنبياء كانوا يصبرون، ولكن بعد أن يُعَرِّوا الباطل، ويبينوا الحق، ويُسَفِّهوا عمل الآخرين، ويتحملوا بعد ذلك موقف الآخرين منهم بصبر .

وأما أنه خطأ فى تصوره للإسلام، فذلك لأنّ الإسلام قد تم واكتمل، والتشريع الإسلامى قد استقر ووضح، وأحكام الله قد بُيِّنَتْ، والمسلم الآن أصبح مطالباً بكلّ الإسلام - لقد فُرض الحج فى المدينة، أفيرى هؤلاء أنهم غير مطالبين بالحج لأنهم فى مرحلة العهد المكى ؟ ! فكما أنه لا يسعهم أن يتركوا الحج، كذلك لا يسعهم تناسى أى جزء من أجزاء الإسلام .

إننا لسنا فى مرحلة العهد المكى، ولكننا فى مرحلة الرِّدَّة عن الإسلام بعد الإسلام، فنحن الآن إذن فى مرحلة العهد المدنى بعد انتقال الرسول ﷺ مباشرة مع بعض الفروق .

لقد أثّرت فكرة العهد المكى على العمل الإسلامى كثيراً : يتبنى مسلم هذه الفكرة ويعمل على أساسها، ويلتف حوله مجموعة من المسلمين، ثم يأتى

آخر بعد فترة ويمشى على نفس الطريق، وآخر وآخر، وهكذا يبقى المسلمون يعيشون بسبب هذه الفكرة في العهد المكي طوال العصور، ولو التقى المسلمون جميعاً على هذه الفكرة، وحددوا طريقهم على أساسها، ثم ساروا إلى نهايتها وتجاوزوها، لأمكن قبول مثل هذه الوجهة من النظر مع ملاحظة اكتمال الشريعة ومطالبتنا بها كلها . ولكن أن يكون هنا خمسون، وهناك عشرة، وهناك مئة، وكل يعمل منفرداً بحجة العهد المكي، وبعد سنة وخمس وعشر يأتى آخرون وعلى نفس الطريقة، فهذا معناه الإبقاء على الوضع المتردى الذى وصل إليه الإسلام والمسلمون .

٧- مع وجهات النظر الإيجابية هذه فى العمل الإسلامى هناك وجهات نظر سلبية :

(أ) فمن وجهات النظر السلبية فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول: إنَّ المسلمين يفقدون القيادة الصالحة للعمل، وما دامت القيادة غير موجودة فأى فائدة من العمل ؟

والحقيقة أنَّ هؤلاء أنفسهم ووحدهم هم الذين ضيَّعوا القيادة، وضيَّعوا الطريق الذى يؤدى إلى ظهورها . فعندما يقول الرسول ﷺ : « إذا كانوا ثلاثة فليؤمروا أحدهم » ^(١) . ندرك أنَّ قيادة المسلمين بأيديهم، هم الذين يظهرونها، ويخرجونها وعندما يقول : « مَنْ استعمل رجلاً على عصابة وفيهم مَنْ هو أَرْضَى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين » ^(٢) ندرك أنَّ الأحسن إسلاماً هو الذى ينبغى أن يُؤمَّر . وعندما يقول لأبى ذر وقد سأله الإمرة : « إنك ضعيف وإنها أمانة » ^(٣) ندرك أنَّ الأقوى هو الذى ينبغى أن يُعطَاها .

(١) رواه أبو داود فى كتاب « الجهاد »، وقال النووى: حديث حسن بلفظ: « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

(٢) رواه الحاكم بلفظة: « المؤمنین » عوضاً عن: « جماعة المسلمين » عن ابن عباس، ورمز السيوطى لصحته .

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم عن أبى ذر فى كتاب « الإمارة » باب « كراهة الإمارة بغير ضرورة » .

والمسألة نسبية، قائد المسلمين منهم، فليس هناك حُجَّة لإنسان يدعى فقدان القيادة . فما دام هناك مسلمون فإنهم يستطيعون أن يُخرجوا من أنفسهم القيادة، وإذا كان فى القيادة شىء من القصور، فما من شىء إلا ويمكن اكتسابه . أما أن يبقى المسلمون بدون قيادة فهذا لا يجوز، أما أن نقعد بحُجَّة فقدان القيادة فهذا لا يجوز . يقول فقهاء الشافعية : « إذا فُقدَ الخليفة تنتقل أحكام الخلافة إلى أعلم أهل زمانه » ، وهذا يعنى أن المسلمين لا يصح أبداً أن يبقوا فى حالة من الحالات بلا نظام ولا إمرة .

نعم . . قد نجد أحياناً فقيهاً غير عليم بأحوال الزمان، وغير بصير بأمور القيادة والتنظيم، وقد نجد بصيراً بأمور القيادة والعمل والتنظيم، غير فقيه، وقد نجد العليم الذى لا يستطيع الوقوف فى وجه الخصوم، وقد . . . وقد . . . ولكن كل هذا لا يعفينا من إيجاد القيادة، ولا يعنى فقدانها ولا يعجزنا إن كنا مئة أن نُخرج أنسبنا لقيادتنا فى قضية معينة . والشورى موجودة، والتجربة محك وعامل على تكوين الشخصية . والنواقص يمكن استكمالها إذا صحَّت النية وعُرف الكمال .

(ب) ومن وجهات النظر السلبية فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول : « وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر » . إنَّ الإسلام تناقص بعد ثلاثين عاماً من انتقال الرسول ﷺ باغتيال نظام الخلافة الراشدة منه، وبقي مستمراً فى تناقص حتى الآن، وكل يوم يأتى شر من الذى قبله بالنسبة للإسلام، ويستشهدون على ذلك بحديث رواه أنس بن مالك يقول : « اصبروا، فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعتُ هذا من نبيكم ﷺ » (١) . وإذن فما فائدة العمل لإقامة الإسلام كله ما دامت النتيجة معلومة ولا فائدة، فلنقصر

(١) رواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى أشرار الساعة » عن أنس بن مالك بلفظ : « ما من عام إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعتُ هذا من نبيكم ﷺ » ، قال الترمذى : هذا حسن صحيح .

جوانب نشاطنا على بعض جوانب الإسلام . العقيدة والعبادة مثلاً، وهذا وحده كاف في هذا الزمان الفاسد، ويأتى الملحدون ويضخمون هذا المعنى ليميتوا روح النضال عند المسلمين، ومن أجل إقامة دينهم فيقولون : لقد اختلف الصحابة بعد سنوات من وفاة الرسول ﷺ ، وحدثت بينهم معارك طاحنة وهائلة، وهذا دليل على أن الإسلام - ككل - لا يحمل في طياته عناصر استمراره .

وتقول طائفة أخرى منهم : إن مثالية الإسلام تجعله غير صالح لعالمنا هذا، بدليل أنه لم يُطبَّق عملياً إلا فترة الخلافة الراشدة، وتقول طائفة أخرى منهم : إن الإسلام ليس فيه مناهج حياة بل هو عقيدة وعبادة فقط، وهؤلاء الذين يقولون : « إن الإسلام فيه مناهج حياة » يخترعون إسلاماً من عند أنفسهم، ويعملون لشيء لم يأمرهم به الله .

وكل هذه الأفكار إنما تضرب على وتر واحد إذ هي من باب المغالطات التي لا يقبلها بصير بالإسلام . فالإسلام عقيدة وعبادة، ومناهج حياة، ولا يجهل هذا إنسان له صلة بالإسلام، وقد مر معنا قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] ، وحدثت معركة بين أبناء مذهب واحد ودين واحد يقع دائماً ويخرج منه الأتباع بعد ذلك بتجربة جديدة وعظّة، ولئن كان أحد المتخاصمين على خطأ، فلا يطعن ذلك في المذهب نفسه بل يطعن ذلك في الإنسان المخطئ وحده .

أما أن الإسلام لم يُطبَّق عملياً إلا ثلاثين عاماً، فذلك كذب على الواقع والتاريخ . فالإسلام هو مضمون الحكم في الدول الإسلامية حتى القرن التاسع عشر، والمسلمون لم يكونوا يحتكمون إلا إلى الإسلام .

نعم . . . وُجِدَت أخطاء، ووُجِدَت انحرافات في المفاهيم، وتغيّرت نفسية المسلم، وكانت فتن وحوادث، وفُرقة وخلاف، وهذا الذي أدى إلى إنهيار المسلمين، وهذا شيء يُقدِّم لنا قوة وصلابة على العمل، إذ شاهد التاريخ يخبرنا

أنَّ إنحرافنا عن الإسلام خفضنا، وإقبالنا عليه رفعنا . فلنقبل عليه إذن ولنترك الانحراف، وأما ما يقوله السلبيون من المسلمين فالرد عليه ما يلي :

١- إنَّ فهمكم للحديث الذى استشهدتكم به خاطئ . فالحديث يخاطب الصحابة مبيناً لهم أنَّ الكمال ما كان عليه الإسلام فى عهده ﷺ ، وأنهم سيرون النقصان يوماً بعد يوم - أى فى جيلهم - أما بالنسبة للأمة الإسلامية فالرسول ﷺ يقول : « أمتى مثل المطر لا يُدرى آخره خير أم أوله » ^(١) بل على عكس ما فهموه فالآثار عن الرسول ﷺ تشهد أنَّ المستقبل للإسلام، يقول عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الله زوى لى الأرض فرأيتُ مشرقها ومغربها، وأنَّ أمتى سيبلى ملكها ما زوى لى منها » ^(٢) ، ويقول : « ليبلى هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر » ^(٣) . وكلا الحديثين صحيح، وفى كُلِّ بشارة بقيام دولة الإسلام العالمية، إذ لا تكون الذلَّة للكفر إلا إذا كانت السُلطة للمسلمين، ويتوهم بعض الناس أنَّ ذلك كائن حين نزول المسيح إلى الأرض قبيل قيام الساعة، وذلك خطأ لأنَّ بعض الروايات تذكر أنَّ مظهر العِزَّة أخذ الجزية من الكافرين، ويوم ينزل عيسى لا يقبل جزية .

(١) رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان مرسلأ بلفظ : « أمتى أمة مباركة لا يُدرى أولها خير أو آخرها »، ورمز السيوطى لحسنه، قال صاحب الفيض المناوى : « تنبيه : الأمة جمع، لهم جامع من دين أو زمان أو مكان أو غير ذلك فإنه مجمل يطلق تارة ويراد بها كل من كان مبيعوثاً إليهم من نبي آمنوا به أو لم يؤمنوا ويسمون أمة الدعوة، وأخرى ويراد بهم المؤمنون به المذعنون له وهم أمة إجابة وهذا المراد هنا » .

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ثوبان رضى الله عنه فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى سؤال النبی ﷺ ثلاثاً من أمته »، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح، ورواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٣) رواه أحمد والطبرانى عن تميم الدارى، وأخرج الطبرانى نحوه عن المقداد أيضاً، قال الهيثمى : رجال أحمد رجال الصحيح، والمدر : أهل القرى والأمصار، واحدها : مدرة، والوبر : أهل البوادر والمدن والقرى .

وفى حديث صحيح آخر يحدّثنا الرسول ﷺ أنّ لنا جولة غالبية مع روما، يقول ابو قبيل : « كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسُئِلَ أى المدينتين تُفتح أولاً - القسطنطينية أو رومية ؟ - فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سُئِلَ رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً - القسطنطينية أو رومية ؟ - فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تُفتح أولاً » يعنى : قسطنطينية ^(١) . وقد نكون نحن فى نهاية عهد الانحراف عن الإسلام الذى سبب انكماشه انحطاط المسلمين، وفى مرحلة المخاض لانطلاق عظيم، فقد تحدّث الرسول عليه الصلاة والسلام عن مراحل الحكم التى تمر بها الأمة الإسلامية، والذى يبدو أننا الآن فى المرحلة السابقة على المرحلة الأخيرة، وهذا يعنى أننا الآن فى أواخر عهد الانحراف .

يقول عليه السلام فى الحديث الصحيح : « إنّ أول دينكم نبوة ورحمة، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله جلّ جلاله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جلّ جلاله، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جلّ جلاله، ثم يكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جلّ جلاله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى، ويلقى الإسلام بجرانه فى الأرض، يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قَطرٍ إلا صبّته مدراراً، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئاً إلا أخرجته » ^(٢) .

(١) أخرجه الدارمى فى « السنن » وأحمد فى « المسند » عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً .

(٢) رواه الدارمى فى « الأشربة » بسنده إلى أبى عبيدة بن الجراح قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك أعفر، ثم ملك وجبروت يُستحل فيها الخمر والحريير »، ورواه أيضاً أبو يعلى والبزار بنحوه، وأخرجه الطبرانى عن معاذ وأبى عبيدة ورواه أحمد فى مسنده واللفظ له .

فالذى يبدو أن الملك العاض قد انتهى بانتهاء السلطنة العثمانية، ويبدأ الملك الجبرى من ذلك الوقت حتى الآن وهو لا زال مستمراً ومظهره تلك الانقلابات الكثيرة التى بها توصل أصحابها إلى الحكم غصباً عن إرادة شعب، وبدون رأى أمة. ديكتاتوريات بدأها « كمال » فى تركيا وتتابع فى كل مكان، ولكن اليقظة الإسلامية الحالية تُبشّر بأن ذلك لن يطول إن شاء الله . وعلى كل حال سواء أطالت المدة أو قصرت فقضية العمل الإسلامى بشكل عام لا تعالج بهذه الطريقة المتخاذلة التى ألعنا إليها أول البحث ولا يعالجها بها إلا جاهل غير بصير بما كلف الله به عباده .

إن كل جيل من أجيال المسلمين مكلف بإقامة هذا الإسلام، والجهاد من أجله حتى تكون كلمة الله هى العليا فى العالمين، وعلى كل جيل أن يحقق الإسلام فى ذاته تحقيقاً كاملاً، وعلى كل جيل أن يهيم من الوسائل ما يساعده على ذلك، وعلى كل فرد من أبناء كل جيل أن يقوم بدوره على قدر ما آتاه الله من مواهب فى هذا : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧] ، متناسياً ذاته جاعلاً كل شئ خلفه : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] ، ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً ﴾ [التوبة: ٣٩] ، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

فإذا ما كان جيل مكلفاً، وإذا ما كان فرد فى الجيل مكلفاً، فنحن أبناء هذا الجيل من المسلمين مكلفون بصرف النظر عن كوننا سنحقق كل شئ، فنكون منصورين، أو يتحقق ذلك على يد غيرنا، فيكون لنا شرف المشاركة فى الطريق، وإن لم نصل الغاية : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ

مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴿٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، إِنَّ اللَّهَ تَعْبَدُنَا بِالْعَمَلِ ،
ولم يتعبدنا بالنصر، وإن كان النصر في كثير من الأحيان دليلاً على
استفراغ الجهد، وصدق النية، وتحقيق السنن : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(ج) ومن وجهات النظر السلبية في العمل الإسلامي : وجهة النظر
اليائسة المتهاكمة التي تقول : انتهى كل شيء وعجزنا، وعلى الله أن ينصر دينه .
ويستسلمون للواقع المروينسون قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ
مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] ، أو قوله تعالى :
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾
[محمد: ٣١] ، أو قوله تعالى : ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ
وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبَ غِيظَ قُلُوبِهِمْ﴾
[التوبة: ١٤-١٥].

وقد يصل الحال بأهل هذه الوجهة من النظر أنهم يُسلِّطون أشد ما عندهم
من نقد على الحركات الإسلامية الجهادية فيتقمصون بذلك شخصية المعوق من
حيث يدرون أو لا يدرون : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ
هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ^(١) إِلَّا قَلِيلًا * أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ^(٢) بِالْسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩].

(١) البأس: الحرب والقتال .

(٢) سلقوكم : آذوكم ورموكم .

إنَّ هذه الطائفة عندما تتبنى هذه الوجهة من النظر إنما تدل على هلاكها قبل كل شيء، وليس على هلاك المسلمين . يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « مَنْ قَالَ : هَلَكَ الْمُسْلِمُونَ ، فَهُوَ أَهْلُكِهِمْ » ^(١) - بضم الكاف أو فتحها - إِنَّ الْمُسْلِمَ مُتَفَائِلٌ أَبَدًا ، وكيف لا يكون كذلك والله يأمره : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] ، وإذا كان الله مع الإنسان فكيف يُغْلَبُ ؟ : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] ، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] .

وهناك وجهات نظر أخرى هى فى حقيقتها وجهات نظر بررها الشيطان وسؤل لأصحابها كى يسيروا فى طريقه مساعدين داعمين عاملين على إقامة الجاهلية من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

فمن هؤلاء من أعطى ولاءه لنظام غير ملتزم بالإسلام بحجة أن هذا النظام لا يتعارض مع الإسلام، ومسألة عدم التعارض بين الأنظمة والإسلام مسألة يدعيها كل زعيم فى العالم الإسلامى، وكل حكم وهيهات أن يكون كذلك،

(١) رواه مالك وأحمد ومسلم وأبو داود والبخارى فى «التاريخ» عن أبى هريرة به مرفوعاً، وهو عند أبى نعيم فى الحلية بلفظ: «فهو من أهلکم»، وبهذا ترجم رواية الرفع على غيرها كما قال فى «الفيض» .

ومع هذا - وحتى لو كان ذلك كذلك - فإنَّ المسألة ليست كما يتصورون .
إنه لا يجوز للمسلم أن يؤيد نظاماً سياسياً إلا بشرطين :

١- عدم تعارض هذا النظام مع الإسلام .

٢- أن يحقق هذا النظام الإسلام .

فقد يوجد نوع من الأفكار السياسية لا يتعارض مع الإسلام ولكنه فى نفس الوقت لا يحقق فى حال انتصاره شيئاً من أنظمة الإسلام، وفى حال عدم تحقيقه شيئاً من أنظمة الإسلام فإنه يحقق شيئاً آخر، وذلك هو الكفر والظلم والفسوق، وكم التبس على المسلمين هذا المعنى، فترى بعضهم يناقشون بعضهم ليل نهار دفاعاً عن حزبهم أو الحكم الذى يؤيدونه، أو الأفكار السياسية التى يحملونها بأنها لا تتنافى مع الإسلام، وكأن هذا هو كل شئ، نعم . . فى حال صدقهم قد يكونون أقل خطراً من غيرهم، ولكنهم مع هذا خطرون، فما لم يكن إلزاماً بالمضمون الإسلامى كله كما ألزم الله فلا إسلام، وقد يحتجون بوجود أقلية غير مسلمة، وهذه حُجَّة عليهم لا لهم، فليس هناك عقل فى العالم يقول إنَّ على الأكثرية أن تتخلى عن عقيدتها ونظامها وفكرها الذى تراه صحيحاً من أجل الأقلية، وإنما يُقال إنَّ على الأقلية أن تخضع للنظام الذى ترتأيه الأكثرية وتطبقه على نفسها بروح العدل الذى لا يُظلم فيه أحد، ولم تُرحم أقلية فى العالم كما تُرحم أقلية غير مسلمة فى أرض إسلامية . فإن فقهاء المسلمين يذكرون أن ظلم غير المسلم المقيم فى أرض الإسلام بعقد بينه وبين المسلمين، أشد من ظلم المسلم، ثم إنَّ هذه الأقليات لم تبق فى أرض المسلمين إلا بالتزامها الرضا بحكم الإسلام .

ومن هؤلاء من يعجب بزعيم سياسى فى أرض الإسلام فيعطيه ولاءه بحُجَّة أن هذا الإنسان يعمل لخدمة وطنه، أو بحجة أنه عبقرى وذكى، أو بحجة أنه بطل عظيم، أو بغير ذلك من الحُجَج .

تُرى بالنسبة للمسلم : هل الوطن هو الهدف مهما كان نوع الهدف،
أو الهدف هو عقيدة هذا الوطن ؟

ولم هاجر الرسول ﷺ من مكة ؟ لم لا يتخذ المسلم دار الحرب إذن وطناً ؟
يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

فليست خدمة الوطن هي الهدف، بل خدمة الإسلام في الوطن هي
الهدف، وعندما يخدم الإسلام يخدم الوطن .

وهذا هو الفارق بين الزعامة المسلمة والزعامة الكافرة، فإذا كان الهدف هو
خدمة الوطن على أى نظام وبأى طريقة، فكل زعامة كافرة في العالم تفعل هذا
والأرض أرض كلها، أفيعطى ولاء المسلم لمن يخدم وطنه أكثر من بين هذه
الزعامات، ولو كان عدواً لدينه ووطنه . والشيطان عبقرى وذكى أفنعطيه ولاءنا ؟
﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

إنَّ الشرط الأساسى كى نعطي ولاءنا لإنسان هو الإسلام، ولا يعنى هذا
ألا نشترط بقية الشروط التى تُشترط فى القيادة الإسلامية، كالبطولة، وحِدَّة
الذكاء، وخدمة الوطن، ولن يعقم المسلمون عن إخراج هذا منهم، لقد حدّد الله
لنا مَنْ يجوز أن نعطيه ولاءنا ومَنْ لا يجوز :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ

الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾ ، ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّهُنَّ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩] ، وقد حكم الله على مَنْ لم يحكم بكتابه بأنه كافر، ونحن نعلم الخلاف فى ذلك . إذ يقول بعضهم : هذا فى حالة الجحود، ولكن النتيجة واحدة من الناحية العملية، فكيف يعطى المسلم ولاء لنظام كافر خاصة إذا تحقق صاحبه بصفات المنافقين : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

ويحتج بعض هؤلاء بقولهم : إنَّ هذا الذى أعطيناه ولاءنا أقل شراً من غيره، وبهذه الحُجَّة يبقى أكثر المسلمين غير موالين لله، ويبقى الزعماء المنحرفون متمادين فى غيهم، إذ يرون حولهم أنصاراً، ترى لو كان كل مسلم لا يعطى ولاء إلا لمسلم ملتزم بالإسلام، أفلا يجعل هذا هؤلاء الزعماء الفاسدين يلتزمون بالإسلام ولو نفاقاً، أو يقوم الإسلام والزعامة الإسلامية الراشدة بالأمر والمسلمون أكثرية ؟ ؟

لقد رأينا ناساً مسلمين أعطوا ولاءهم السياسى لزعماء أعداء للإسلام، وبعضهم بقى فى الحكم سنين طويلة كان من أثرها أن الجيل الذى تخرَّج خلالها لا يعرف إسلاماً، ولا يشم منه ريحه، فهل كان هؤلاء مسلمين وهم يؤيدون زعماء وأنظمة تقتل الإسلام قتلاً، سواء أكان القتل قتلاً سريعاً أو بطيئاً ؟

وهناك وجهة نظر يطرحها اثنان : الأول فاسق لا شك فى فسوقه أو ردَّته ويصوغ المسألة كما يلى : إنَّ القوى التى تحارب الإسلام قوية وخطيرة، ولذلك فعلينا أن نترك الجهر بالإسلام الآن حتى تأتى لحظة يُتاح لنا فيها أن نفعل ما نريد، يقول هذا الخداع المسلمين العاديين الطيبين، ومن ناحية أخرى يلاحق

كل نشاط إسلامي، ويفتح باب العمل على مصراعيه للكافرين . وقد تولى القرآن الرد على أمثال هؤلاء فقال : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧].

إن الذي يقول هذا الكلام ما عرف الله، ولا عرف الواقع، لقد رسخت في العالم أنظمة مختلفة متباينة رغم كثرة أعدائها عندما صمم أتباعها على تبنيها وكان صفهم منيعاً .

فلماذا لا نستطيع نحن المسلمين أن نتبنى إسلامنا في أرضنا . أليس كلامهم هذا دليلاً على أنهم لم يتحرروا ولم يستقلوا بعد ؟

إن الحاكم أو الحزب الذي يطرح هذه الفكرة ويتبناها، هو الذي يجعلنا طمعاً للطامعين لأنه بتنحيته للإسلام سيتبنى غيره، وغيره سيتبنى غيره، وسينتج عن هذا صراع في الداخل تدعمه جهات في الخارج يكون من آثار هذا ضياع العباد والبلاد، أما لو حدث العكس، فإن الداخل سيكون منيعاً لأن النظام السياسي في الإسلام لا يسمح بأن يكون هناك تخلخل داخلي، وإذا ما كان الصف الداخلي متيناً عسر على الآخرين تحطيم النظام، وعندئذ يصبح العالم أمام الأمر الواقع، وعندئذ تكون المصالح وحدها هي أداة الاتصال والافتراق . هذا إذا نظرنا إلى المسألة في حدود قطر واحد، أما إذا نظرنا إليها على مستوى العالم الإسلامي، فإن المسألة وقتذاك تتغير، إننا لا نحتاج في هذه الصورة للغير إلا ضمن حدود، ولكن الآخرين يحتاجون إلينا بلا حدود، فلا مبرر للخوف .

* * *

ويطرحها الثاني بشكل آخر فيصوغها كما يلي : إننا نحن المسلمين الذين فهمنا الإسلام في كل قطر إسلامي قليلون، والقوى التي تحاربنا أقوى منا، وعلينا نتيجة لهذا أن نستري إسلامنا أو أهدافنا أو أعمالنا .

والحقيقة أنَّ المسألة فى شقها الأول صحيحة تماماً، ولكنها فى شقها الثانى تحتاج إلى نقاش، إنَّ ستر إسلامنا يعنى إنهاءه، ويعنى الجمود فى عملية تبليغه، ويعنى الخوف منه، وهذا لا يجوز أبداً أن نفكر فيه .

إنَّه لا يجوز للمسلم أن يستر إسلامه وهو يستطيع إظهاره إلا فى حدود ضيقة تُقدَّر بقدرها ويقدرها العلماء الفقهاء . .

إنَّ الذى ينبغى أن يكون هو الأساس، هو الجهر بالإسلام، والقيام بتبليغه، والعكس عارض، وهذا وحده ضمان استمرار إسلامنا، أما ستر أهدافنا البعيدة، أو ستر تنظيماتنا خاصة فى البلاد التى فقد المسلمون فيها حقهم السياسى فى العمل، فهذه تحتل وتحتل، وبعضهم لا يراها .

* * *

والآن وقد ناقشنا وجهات النظر الموجودة عند طبقات من المسلمين والتى تؤخر المسلم عن الجهاد السياسى، ورأينا خطأها . نقول :

إنَّ على المسلمين فى كل قطر أن يكونوا يداً واحدة، وهذه فريضة، وأن تكون لهم قيادة واحدة، وهذه فريضة، وأن يعدوا العُدَّة كاملة لقيام حكم إسلامى، ولاستئصال كل ما عداه، وهذه فريضة، وأن يمدوا أيديهم لإخوانهم فى الأقطار الأخرى، وهذه فريضة، وأن يقيموا وحدتهم، وهذه فريضة، وأن يوجدوا خليفتهم، وهذه فريضة، وأن يعبئوا طاقتهم، وهذه فريضة، وأن ينشروا الإسلام فى العالم كله وهذه فريضة .

وليضع كل منا هواه جانبا، وليمد يده إلى إخوانه المسلمين ليتعاونوا من أجل وضع الأسس الصحيحة لتحقيق هذه الفرائض، ولنترك الجدل فى أمر هو معلوم من الدين بالضرورة . فقد كفانا ما نألنا من ذلَّة لترك الجهاد حين يجب الجهاد، ومَن أراد الله لم يُحرم أجراً أو نصراً .

* * *

خامساً - الجهاد المالى

هذا خامس أنواع الجهاد، وهو كالشرط للأنواع الأربعة السابقة فى العمل العام، ولا يقوم نوع من أنواع الجهاد إلا به . .

الجهاد التعليمى يحتاج إلى مال من أجل الكتب ومن أجل تفرغ المعلمين .

والجهاد اللسانى يحتاج إلى مال من أجل الكتب والنشرات والجرائد والمجلات و

والجهاد باليد بأنواعه كلها يحتاج إلى المال للسلاح والعتاد والإنفاق على أسر الشهداء .

والجهاد السياسى يحتاج إلى مال للمتفرغين والاختصاصيين ولإيجاد وسائل القوة .

إنَّ الجهاد بدون مال يتعطل، لذلك قرن الله الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

[التوبة : ١١١].

وقد مرَّ معنا الحديث الذى يأمرنا به عليه الصلاة والسلام أن نجاهد المشركين بالمال واللسان .

والمسلمون درجات، فمنهم من يستطيع أن يجاهد بماله فقط، ومنهم من يستطيع أن يجاهد بنفسه فقط، ومنهم من يستطيع أن يجاهد بلسانه فقط، ومنهم من يستطيع أن يجاهد سياسياً فقط، ومنهم من يستطيع أن يجاهد كل أنواع الجهاد، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ومن جرب المسلمين عرف أن المسلمين لا ييخلون بالمال إذا اقتنعوا ووُجدَ

المشروع المناسب، ولذلك فعلى القائمين بأمر الجهاد أن يحددوا مشروعاتهم الجهادية التي تحتاج إلى مال ويجزئها، ثم فليطرحوا المشروع بشكل لبق، ولن يعدموا في هذه الحالة مسلمين يحملون المشروع بأموالهم .

فمثلاً نجد كثيراً من المسلمين عندهم استعداد للمساهمة في نشر كتاب، أو إنشاء مجلة، أو الإنفاق على متفرغ للتعليم أو فعلى القائمين بأمر الجهاد أن يعرفوا كيف يؤمنون المال اللازم لمشاريعهم .

والجهاد بالمال غير الزكاة، ولكن بالإمكان أن ننفق الزكاة على بعض طرق الجهاد . فمثلاً لو كان إنسان فقيراً وأردنا أن نُفَرِّغَهُ للعلم والتعليم، يمكن أن ندفع له راتبه من الزكاة، وكذلك لو أردنا أن نُسَلِّحَ إنساناً فقيراً أو ننفق عليه وهو يجاهد في سبيل الله، وقد تفرَّغ لهذا الشأن، وليس لديه فائض مال . أو عليه ديون ولو مهر زوجته، فكل هؤلاء يمكن أن يُدفع لهم من الزكاة، وإذن فبالإمكان أن يُستفاد من الزكاة لإقامة كثير من مشاريع الجهاد .

والمال الذي يُنْفَقُ في سبيل الله لصاحبه أجره العظيم عند الله .

روى الترمذى والنسائى عن رسول الله ﷺ : « مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَتَبَتْ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ » .

وروى مسلم والنسائى عن أبى سعيد قال : « جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ ﷺ : « لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ » .

وللستة إلا مالكاً عن رسول الله ﷺ : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيَاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيَاً فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » .

* * *

وأخيراً :

هذه أنواع خمسة من الجهاد من استطاع أن يتحقق بها فقد تحقق بالصفة الخامسة من الأخلاق الأساسية في الإسلام وبذلك يكون من حزب الله .

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ حِزْبَ اللَّهِ قَوَّامًا عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَوَصِيًّا عَلَيْهَا، وَأَعْطَاهُ الصَّلَاحِيَّاتِ الْكَثِيرَةَ، وَمَنْحَهُ إِخْضَاعَ الْعَالَمِ لِسُلْطَانِ رَبِّهِ، وَحِزْبَ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ هَذَا إِلَّا بِتَحْقِيقِهِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا .

- قد حرر أفرادَه ولاءهم لله والرسول والمؤمنين .

- قد أحب أفرادَه الله من كل قلوبهم وعملوا لذلك وأحبهم الله .

- قد أصبحت الذلَّة على المؤمنين طبعاً لهم .

- وأصبحت العزَّة على الكافرين طبعاً لهم .

- وجاهدوا بأنفسهم، وجاهدوا بأموالهم في سبيل

الله، لم يصرفهم عن ذلك خوف لائم .

بذلك استحق حِزْبُ اللَّهِ ما استحق في الدنيا والآخرة .

وعلى ذلك وَعْدَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْفَلَاحِ .

ولأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كذلك رزقهم الله النصر تلو النصر .

وإذا وُجِدَ حِزْبُ اللَّهِ من جديد فالله عَزَّ وَجَلَّ وعده النصر .

* * *

اقتراحان :

١- ونقترح من أجل تربية المسلمين على هذه الصفات الخمس أن يدرسوا هذا الكتاب بالذات دراسة متواصلة خلال دورة تستغرق فترة من الزمان، يترافق في هذه الدورة العلم والتطبيق والعمل .

٢- نقترح أن تتفق كل مجموعة من المسلمين بعد تحصيلها هذه التربية العالية أن يكون لها مؤتمر كل شهر أو كل أربعين يوماً أو كل أسبوع، تتفق فيه على ماذا ستفعله من الجهاد خلال هذه الفترة من :

(أ) أعمال الجهاد اللسانى .

(ب) أعمال الجهاد التعليمي .

(ج) أعمال الجهاد باليد .

(د) أعمال الجهاد السياسي .

(هـ) التبرع للجهاد بالمال .

فإذا انتهت المدة تدارست هذه المجموعة ماذا حققته مما التزمت به ثم رسمت خطتها للأيام التالية .

* * *

وبعد

هذه الصفات الأساسية الخمس لحزب الله يجمعها شيئان : العبودية لله ،
والبأس الشديد .

وما كتبنا ما كتبناه من شرح لهذه الصفات الخمس إلا ليخرج معنا الجيل
المتحقق بالعبودية لله والبأس الشديد ، لأنه الجيل الوحيد الذي سيكون بيده حل
مشاكل الأمة الإسلامية كلها ومن جملتها قيام دولة لليهود في فلسطين .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي
بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا ^(١) خِلَالَ الدِّيَارِ ^(٢) وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ
الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ
أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا ^(٣)
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ^(٤) مَا عَلُوا تَتَبِيرًا *

(١) فجاسوا : ترددوا لطلبكم باستقصاء .

(٢) خلال الديار : وسطها .

(٣) ليسؤوا وجوهكم : ليحزنوكم حزناً في وجوهكم .

(٤) ليتبروا : ليهلكوا أو يدمروا .

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾
[الإسراء: ٤ - ٨].

إنْ عدتم إلى العلو في الأرض والإفساد والاستيلاء على بيت المقدس والمسجد،
عدنا بتسليط عباد لنا أولى بأس شديد عليكم فجاسوا خلال الديار ودخلوا
المسجد الأقصى. وَمَنْ تأمل ما قبل : ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾ [الإسراء: ٨] يمكن أن
يفهم الآن هذه الآيات فهما آخر غير ما فسره به المفسرون قديماً. إِنَّ المفسرين لم
يكونوا أمام واقعنا الحاضر من علو بنى إسرائيل في الأرض وإفسادهم واستيلائهم
على بيت المقدس. ففسروا الآيات بأنها قد وقعت، ولكن نظرة إلى الآيات من
جديد ترينا ما يلي :

١- أن الآيات أشارت إلى علو رافقه فساد، وفي الماضي لم يجتمع لبنى
إسرائيل علو وفساد، بل كان علوهم عندما كان يحكمهم رسلهم، وذلك علو
وصلاح، أما في عصرنا فقد رافق علوهم فساد، يدرك هذا مَنْ قرأ بروتوكولات
حكماء صهيون وأمثاله .

٢- الآيات أشارت إلى « عباد الله ومسجد » ، فالأولى أن نفهم ذلك
بالعبودية الخاصة المرتبطة بالمسجد، وهذه لم تكن للفرس الوثنيين الذين سُلطوا
على اليهود أكثر من مرة .

٣- الآيات أشارت إلى أن اليهود يصبحون أكثر نفيراً، وما كان اليهود أكثر
نفيراً من الفرس، أما الآن فقد استطاعوا أن يستنفروا أُمم الأرض .

٤- الآيات أشارت إلى إمداد اليهود بالأولاد والأموال، واليهود الآن يملكون
من المال ما لا يملكه غيرهم .

كل هذه المعاني تجعلنا نُرجح أن الآيات نبوءة قرآنية تحققت بعض معانيها
في عصرنا، ويكون الذين سيُجلون اليهود هذه المرة ناساً جمعوا بين صفة
العبودية لله، والباس الشديد، ولا يكون هذا إلا للمسلمين، ولن يتم هذا

للمسلمين إلا إذا طهروا أرض الإسلام، وأعادوا بناء وحدتهم ودولتهم وقوتهم بحيث يستطيعون معها أن يجابهوا كل من تستطيع دولة اليهود استنفاره، وهذا لا يتم بشيوعية، ولا قومية ولا غيرها، لأن الشيوعية لا توافق على زوال اليهود، ولأن القومية لا تستطيع مجابهة من وراء إسرائيل، فالإسلام وحده هو الحل بقوة المسلمين جميعاً وإمكانياتهم جميعاً، ولما كانت المسألة هي واقعة عصرنا، ومدار تفكيرنا، وحلها لا يكون إلا بإعادة صياغة جيلنا تربية وسلوكاً، وذكرناها هنا لأنه جزء مما على حزب الله أن يعمل، ونسأل الله أن يتقبل ويرضى ويغفر وينصر ويوفق، ويجعلنا من أهل الجنة، ويقينا عذاب النار بفضلته وكرمه . . . آمين .

* * *